فاهم
مفاتيح القلوب



اسم الكتاب: فاهم .. مفاتيح القلوب
المؤلف فضيلة الشيخ / فيصل الحاشدي
رقم الايداع: ١٦٠٥٠/٢٠١٣.
نوع الطباعة: ٢لون.
عدد الصفحات: ١٦٠.
القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف: عادل المسلماني.

طبعة أولى ٢٠١٣


الإدارة
دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات
دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان فرع النزهة
أمام كوبري النزهة القديم - النزهة - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٣٨١٦٠٤٢

فرع القاهرة
العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر
درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - القاهرة.
تليفون: ٢٥١٢٠٦٢١

E-mail
dar_aleman@hotmail.com

فاهم مفاتيح القلوب

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي






بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا، ومِنْ سَيِّئَاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ لَهُ.

وأشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عَبْدُهُ ورسولُهُ.

أمَّا بَعْدُ، فهذا كتاب «**فاهم**»، أَوْدَعْتُ فيهِ ما يحتاجُ إليه المَرْءُ المُسْلِمُ في حياتِهِ مِنْ أُسْلوبِ التعامُلِ مع النَّاس.

عُمْدتي في ذلك كتابُ اللهِ، وسُنَّةُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ أقوالُ سَلَفِنا الصَّالحِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ.

ومَعَاذَ اللهِ أنْ أَسْلُكَ بكتابي هذا - أو غَيْرِهِ - سُلُوكَ بَعْضِ الكُتُبِ الَّتي تُكْتَبُ بأقلامٍ مُعاصرةٍ، وتُصَدَّرُ صفحاتُها بأقوالِ أئمَّةِ الكُفْرِ والإلحادِ: كهتلرَ، ونابليونَ، وكارنجي، ومَنْ شايَعَهُمْ، فإنْ فَعَلْتُ ذلك فإنِّي - إذًا - لَمِنَ الجاهلين.

وكَيْفَ يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ ؟!.

وما تَسْلَمُ الجَرْبَا بِقُرْبِ سليمةٍ ... إلَيْها، ولكنَّ السَّليمةَ تَجْرَبُ

إنْ كان عِنْدَهُمْ شَيْءٌ، فعِندَنا ما هُوَ أَجْمَلُ وأعظمُ بركةً؛ لأنَّهُ صادرٌ مِنْ قُلُوبٍ عامرةٍ بالعِلْمِ والإيمانِ.

فلا يَغُرَّنَّكَ صَفْوٌ أَنْتَ شارِبُهُ ... فَرُبما كانَ بالتَّكْديرِ مُمْتَزِجًا

فالنَّاقِلُ عَنْ هؤلاءِ النَّتْنَى الَّذين وَصَفَهُمُ اللهُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ بأَنَّهُمْ: ﴿ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ (البينة: ٦).

يَرْمُقُهُ النَّاسُ بازدراءٍ، وتذهبُ ثِقَتُهُمْ به، و«على أَهْلِها تَجْني بَراقِشُ[1]»، و«لا يَجْني جانٍ إلّا على نفسه».

تُزَهِّدُني في وُدِّكَ ـ ابْنَ مُسافِعٍ ـ مَوَدَّتُكَ الأَرْذالَ دُونَ ذَوي الفَضْلِ

والمُتصفِّحُ لهذا الكتاب سَيَرى فيه ـ إنْ شاء اللهُ ـ ما يَشْفي العِلَّةَ، ويَرْوي الغُلَّةَ[2].

هَذا كِتابٌ بَديعٌ في مَحاسِنِهِ ضَمَّنْتُهُ كُلَّ شيءٍ خِلْتُهُ حَسَنَا
فَكُلُّ ما فيهِ إنْ مَرَّ اللبيبُ بهِ وَلَمْ يَشُمَّ عَبيرًا شامَ مِنْهُ سَنَا
فَخُذْهُ واشْدُدْ بِهِ كَفَّ الضَّنينِ وَذُدْ حتَّى تُحَصِّلَهُ عَنْ جَفْنِكَ الوَسْنَا



(١) براقشُ: اسْمُ كَلْبةٍ نَبحَتْ على جَيْشٍ مَرُّوا، ولم يشعروا بالحيِّ الَّذي فيه الكَلْبةُ، فلَمّا سَمِعُوا نُباحَها، عَلِمُوا أنَّ أَهْلَها هناك، فَعطَفُوا عليهِم فاستباحُوهُمْ، فَذهبَتْ مَثَلًا. «اللِّسان» (١/ ٣٨٥)

(٢) الغُلَّة ـ بالضَّمِّ ـ: شدَّةُ العَطَش وحرارتُهُ.

تصدير

«والمِسْكُ ما قَدَّ شَفَّ عَنْهُ ذاتُهُ لا ما غَدَا يَنْعَتُهُ بائِعُه».

«إعراب القرآن» للدرويش (١/ ٢١)



التجرد في معاملة الخلق



إن معاملة الناس بالحسنى
وإلى الحسنى يجب أن تسبقها
نية خالصة، لا تشوبها
شائبة من رياء، وما كان لله
دام، وما كان لغيره انقطع.

إذا سلَّمت على أخيك، أَوْ تبسَّمتَ في وَجْهِه، أو أَلْقَيْتَ على مسامعِه كلمةً طيِّبةً - فقدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ ذلك نيَّةً خالصةً، وإنْ كُنْتَ إنَّما تُريدُ بمُعامَلَتِكَ إقامةَ جاهِك، ولتُحْمَدَ عِنْدَ الخَلْقِ سِيرَتُكَ - فَلَكَ ما نَوَيْتَ، فَلَنْ تَحْصِدَ بذلك إلَّا النَّدامةَ، حيثُ لا ينفعُكَ النَّدَمُ.

وأوَّلُ سُقُوطِكَ أنْ يَنْقَلِبَ عليك مَنْ كُنتَ تَوَدُّهُ، أَوَ لَمْ تَسْمَعْ إلى قَوْلِ مَوْلاكَ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧).

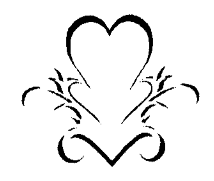
ومن دُرر العلامة ابن الجوزي - رحمه الله - **قوله**: «صارَتْ أَحْوالُ الخَلْقِ نَواميسَ لإقامةِ الجاه، لا جَرَمَ[١] - واللهِ - سَقَطْتُمْ مِنْ عَيْنِ الحقِّ، فأسقطكمْ مِنْ عَيْنِ الخَلْقِ. فكمْ مِمَّنْ يَتْعَبُ في تَرْبيةِ نامُوس، ولا يُلْتَفَتُ إليْه، ولا يَحْظَى بمُرادِه، ويَفُوتُهُ المُرادُ الأكبرُ. فالْتَفِتُوا - إخواني - إلى إصلاحِ النِّيَّاتِ، وتَرْكِ التَّزَيُّنِ للخلْقِ، ولْتَكُنْ عُمْدَتُكُمُ الاستَقامةَ مَعَ الحقِّ، فبذلك صَعِدَ السَّلَفُ وسَعِدُوا، وإياكُمْ وما النَّاسُ عليه اليَوْمَ؛ فإنَّهُ بالإضافةِ إلى يَقَظَةِ السَّلَفِ نَوْمٌ»[٢].

---

(١) لا جَرَمَ أَيْ: حَقًّا.
(٢) «صَيْدُ الخاطِرِ» (ص ١٩٧-١٩٨).

مرجان

«أَخْلِصْ في وُدِّكَ، تَخْلُصْ لكَ المَوَدَّةُ».



بداية الانطلاق



إنَّ ثم حكمة يردِّدها
أئمة السَّلف فيما بينهم،
ويكتب بها إلى بعضهم البعض:
«أصلحْ ما بينك وبين الله،
يَصلحْ ما بينك وبين النَّاس».
حكمة عظيمة تحتاجُ منَّا إلى وقفة!

تلْكَ ـ والله ـ حِكْمَةٌ تبطن حكم بالغة، فَقُلُوبُ العبَادِ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أصابع الرَّحمن، يُقَلِّبُها كيفَ يشاءُ، فَمَنْ أصْلَحَ حالَهُ مَعَ الله، أحبَّهُ اللهُ، وإذا أحبَّهُ أَحْبَبَهُ إلى عِبَادِهِ، وجَعَلَ لَهُ في قُلُوبِهِمْ مَقرًّا ولابُدَّ، يَشْهَدُ لذلك الكتابُ والسُّنَّةُ.

قال الله -سبحانه وتعالى- : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾(مريم: ٩٦). أَيْ: محبَّةً ووِدادًا في قُلُوبِ عِبَادِهِ وأَهْلِ سَمَواتِهِ وأَرْضِهِ؛ لأنَّهُمْ وَدُّوهُ، فودَّدَهُمْ إلى أَوْليائِهِ وأحِبَّائِهِ.

وفي «الصَّحيحَيْنِ»[1] مِنْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قال رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: **«إنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْدًا، نادى جبْرِيلَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادي في أَهْلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ»**

ولله دَرُّ الفُضَيل بن عياض -رحمه الله- حينَ قال:

«إنَّما يَهابُكَ الخَلْقُ على قَدْرِ هَيْبَتِكَ لله»[2].

---

(١) رواه البُخاريُّ (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).
(٢) «حِلْيَة الأَوْلياء» (٢/ ٣٦١).

ومن دُرر العلامة ابن الجوزي - رحمه الله -: «إخواني، اسْمَعُوا نصيحةَ مَنْ قَدْ جرَّبَ وخَبَرَ؛ إنَّهُ بقَدْرِ إجْلالِكُمْ للهِ - عَزَّ وجلَّ - يُجلكُمْ، وبمقْدارِ تعظيم قَدْرِه واحترامِه يُعَظِّمُ أَقْدارَكُمْ وحُرْمَتَكُمْ، ولَقَدْ رَأَيْتُ - والله - مَنْ أَنْفَقَ عُمُرَه في العِلْم إلى أنْ كَبرَتْ سِنُّهُ، ثُمَّ تعدَّى بَعْضَ الحُدُودِ؛ فهان عِنْدَ الخَلْقِ، وكانوا لا يَلْتفتون إلَيه مَعَ غَزارة عِلْمِه، وقُوَّة مُجاهَدَتِه.

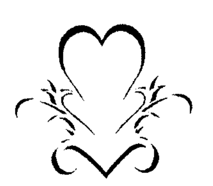
ولَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ كان يُراقِبُ اللهَ - عزَّ وجلَّ - في صَبْوَتِه مَعَ قُصُورِه بالإضافة إلى ذلك العالم؛ فَعَظَّمَ اللهُ قَدْرَهُ في القُلُوبِ، حتَّى عُلِّقَتْهُ[١] النُّفُوسُ، ووصفتْهُ بما يَزِيدُ على ما فيهِ مِنَ الخَيْر»[٢].

لآلئ:

قال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ - رحمه الله -:

«كان العُلَماءُ فيما مَضَى يَكْتُبُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ بهؤلاءِ الكَلِماتِ: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصْلَحَ اللهُ لَهُ عَلَانِيَتَهُ، ومَنْ أَصْلَحَ ما بَيْنَه وبَيْنَ الله، أَصْلَحَ اللهُ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ النَّاسِ، ومَنْ عَمِلَ لآخِرَتِه، كفاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْياهُ».

(رَوَاهُ ابْنُ أبي الدُّنيا في كتاب «الإخلاص»). انظر: فتاوى ابن تَيْميَّه - رحمه الله - (٧/ ١٠).

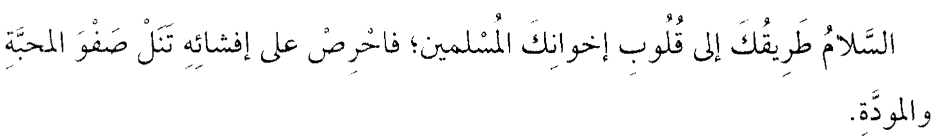


(١) عُلِّقَتْهُ النُّفوسُ - بالضَّمِّ والتَّشديد - أَحَبَّتْهُ.

(٢) «صيد الخاطر» (ص١٥٥-١٥٦).

رسولُ المحبّة

إنَّ السَّلامَ رَسُولُ المحَبةِ،
ونسيمُ المودةِ، وعَبيرُ الأُخوَّة،
وأَريجُ المتحابّين.



السَّلامُ طَرِيقُكَ إلى قُلُوبِ إخوانِكَ المُسْلمين؛ فاحْرِصْ على إفشائِهِ تَنَلْ صَفْوَ المحبَّةِ والمودَّةِ.

قال رسولُ الله - ﷺ -: «أَوَلا أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إذا فَعَلْتُموهُ تحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»(١).

ولا يَضُرُّكَ إنْ كانَ المُسَلَّمُ عليهِ لا يُبالي بسلامِكَ، ولا يَرُدُّ عَلَيك، أَلَا يُرْضيك أَنْ تَرُدَّ عليك ملائكةُ الرَّحمنِ، إذا لم يَرُدَّ عليك أخوك المُسْلِمُ؟!.

قال رسولُ الله - ﷺ -: «السَّلامُ اسْمٌ مِنْ أسماءِ الله، وضعه الله في الأرضِ؛ فأفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، فإنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إذا مرَّ بقَوْمٍ، فسلَّم عليهِمْ، كأن لَهُ فَضْلُ دَرَجةٍ بتذكيرِهِ إيَّاهُمُ السَّلامَ، فإنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْه، رَدَّ عليه مَنْ هُوَ خيرٌ مِنْهُمْ وأَطْيَبُ»(٢).

أَفْشِ السَّلامَ على الجميع ... على عَدُوِّكَ والصَّديقِ
ليَفُوحَ أنسامُ السَّلام ... إلى القُلُوبِ مِنَ الطَّريقِ(٣)

وكما يكونُ السَّلامُ عِنْدَ اللِّقاءِ، يكونُ عِنْدَ الفِراقِ.

---

(١) رواه مسلم (٥٤) عَنْ أبي هُرَيرةَ - رضي الله عنه -.

(٢) (صحيح) أخرجه البزَّارُ (١٩٩٩)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٠٣٩٢) عَنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه -، وصحّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٦٩٧)، و«الصَّحيحة» (١٨٩٤).

(٣) ديوان «بلسم الحياة» لأستاذنا عبد الكريم العماد -حفظه الله- مخطوط.

فعَن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - **قال:** قال رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**إذا انتهى أحدُكُم إلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فإذا أراد أنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ؛ فَلَيْسَتِ الأُولى بأحقَّ مِنَ الآخِرَةِ**»[1].

ويَكُونَ - أَيْضًا - بظَهْرِ الغَيْبِ: كأَنْ تُرْسِلَ لأخيك برَسُولٍ يَعْرِفُهُ؛ ليحملَ إليه سلامَكَ، أو تبعثَ له بالسَّلام عَبْرَ رسالةٍ، أو تَتَّصلَ به هاتفيًّا للسَّلام عليه، ويتخلَّلْ ذلك السُّؤالُ عَنْ حاله، وحالِ مَنْ يعزُّ عليه، مع التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبْرِ؛ فإنَّ ذلك أَدْعَى لبقاءِ المودَّةِ، وتوثيقِ عُرَا الأُخُوَّةِ بَيْنَكُما[2].

فعن عائشة - رضي الله عنها - **قالت: قال رسولُ الله** - صلى الله عليه وسلم -: «**يا عائشُ، هذا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلامَ**». **قالتْ: قُلْتُ: وعليه السَّلامُ ورحمةُ الله**»[3].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - **عَنِ النَّبيِّ** - صلى الله عليه وسلم - **أنَّهُ قال:** «**إنِّي لأَرْجُو - إنْ طال بي عُمُرٌ - أَنْ أَلْقَى عِيسى بْنَ مَرْيَمَ**؛ فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، فَلْيُقْرِئْهُ منِّي السَّلامَ»[4].

سَلامٌ عَلَيْكُمْ والدِّيارُ بَعيدةٌ ... وإنِّي عَنِ المَسْعَى إلَيْكُمْ لَعَاجِزُ
وهذا كتابي نائبًا عَنْ زيارتي ... وفي عدمِ الماءِ التَّيمُّمُ جائِزُ

فإن اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَسْبقَكَ أَحَدٌ إلى السَّلام فافْعَلْ؛ فإنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**وَخَيْرُهُما الذَّي يَبْدَأُ بالسَّلام**»[5].

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ - رضي الله عنه - **قال:** قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**إنَّ أَوْلى النَّاسِ باللهِ**[6]

---

(١) (صحيح) رواه أبو داوُدَ (٥٢٠٨)، والتِّرْمذيُّ (٢٧٠٦) وحسَّنهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٠٠)، وفي «الصَّحيحة» (١٨٣).

(٢) انظر «طريقنا للقلوب» للمؤلِّف (ص٩).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٢٤٩)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٤) رواه أحمدُ في «المسند» (٢/ ٢٩٨) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠) عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ - رضي الله عنه -.

(٦) إنَّ أولى النَّاسِ باللهِ أَيْ: أحقَّ بالقُرْبِ منْهُ بالطَّاعةِ وذكْرِه - جَلَّ وعلا -.

مَنْ بَدَأَهُمْ بالسَّلام»[1].

وختامًا: أقولُ لِمَنْ يقرأُ كتابي هذا كما قال ابْنُ الوَرْديِّ - رحمه الله -:

سَلامٌ عَلَيْكُمْ ما أَحَبَّ وِصَالَكُمْ! وغايةُ مَجْهُودِ المُقِلِّ سَلامُ

وقال آخرُ:

سَلامٌ إذا لَمْ تَكُنْ لُقْيَةٌ وإنَّ يَدًا[2] أَنْ تَرُدُّوا السَّلامَا

أدَبٌ ربّانيٌّ:

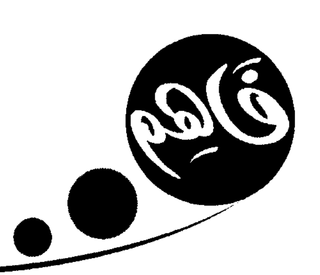
قَالَ تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء: ٨٦).



(١) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ ـ واللَّفْظُ لَهُ ـ (٥١٩٧)، والتِّرْمذيُّ (٢٦٩٤) وحسَّنه، وصحَّحه الألْبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٠١١).

(٢) لا يَقْصدُ باليَد هُنا اليَدَ الحقيقيَّةَ، وإنَّما يَقْصدُ بها النِّعمةَ والعَطَاءَ، وقَدْ وَضَعَ اليَدَ مَوْضِعَ النِّعمةِ على الاستعارةِ؛ لأنَّ النِّعمةَ تكونُ بها.

نسيم المحبة



إنّ المُصافحةَ نَفحةُ المَوَدّة،
وبِساطُ الأُلفةِ، ونَسيمُ المحبّة،
وبَلسَمٌ لكُلوم[١] المُتحابّين.

السَّلامُ سَبَبٌ للمحبَّةِ، بَلْ خاطِبُها، والمُصافحةُ وَاسِطَةُ عِقْدِها[٢]، ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُما، فَقَد اسْتَوَت المحبَّةُ على سُوقِها، مَعَ ما فيهما مِنَ الأَجرِ العَظيم، والمَغْفِرَةِ الحقَّة، وتَسَاقُطِ الذُّنُوبِ تَساقُطَ وَرَقِ الشَجَرِ.

قال رسولُ الله -ﷺ-: «ما مِنْ مُسْلِمَين يَلْتَقِيَانِ فيتصافَحَانِ، إلَّا غُفِرَ لَهُما قَبْلَ أَنْ يَتفرَّقا»[٣].

وقال -ﷺ-: «إنَّ المُؤْمِنَ إذا لَقِيَ المُؤْمِنَ، فسلَّم عَلَيْه، وأَخَذَ بيَدِه فصَافَحَهُ؛ تَنَاثَرَتْ خَطَاياهُمَا، كما يَتَنَاثَرُ وَرَقُ الشَّجَرِ»[٤].

وقال -ﷺ-: «إنَّ المُسْلِمَ إذا صَافَحَ أَخَاهُ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُما، كما يَتَحاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»[٥].

---

(١) **كلوم**: جَمْعُ: كَلْم - بالفَتْح -، وهو الجَرْحُ، ويُجْمَعُ - أيضًا - على كِلام.

(٢) **واسطة العقْد**: الجَوْهَرَةُ الفَاخرةُ التي تُجْعَلُ وَسَطَهُ.

(٣) (حسن) أخرجه أبو داوُدَ (٥٢١٢)، والتِّرمذيُّ (٢٧٢٧)، وقال: حَسَنٌ غَريبٌ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٧٧٧)، وفي «الصَّحيحة» (٥٢٥) عَن البَرَاءِ بْن عازب -رضي الله عنه-.

(٤) (صحيح لغيره) أورده المُنْذريُّ في «التَّرغيب» (٣/ ٤٣٣) عَنْ حُذَيْفَةَ -رضي الله عنه-، وقال: رواهُ الطبرانيُّ في «الأَوْسَط»، ورُوَاتُهُ لا أعلمُ فيهم مَجْروحًا. وقال الهَيْثَميُّ (٨/ ٣٦): رواه الطَّبرانيُّ في «الأوْسَط»، ويَعْقُوبُ بْنُ محمَّد بْن الطحلاء رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحد، ولم يُضعِّفْهُ أَحَدٌ، وبقيَّةُ رجاله ثِقَاتٌ. وقال الأَلْبانيُّ في «صحيح التَّرغيب» (٢٧٢٠): «صحيحٌ لغَيْره».

(٥) (صحيحٌ لغَيْره) أورده المُنْذريُّ في «التَّرغيب» (٣/ ٢٧٠) عن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، وقال الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب»: «صحيحٌ لغَيْرِه».

صَـــافِـــحْ أَخَـــــاكَ؛ فَـــرُبَّـــمَا مَـسَـحَـتْ يَـمِـيـنُـكَ مَـا يَعِيبُكْ
واجْـــنِ الـــسَّـــلامَـةَ بِـالـسَّـلا مِ؛ فَلَسْتَ تَـعْـرِفُ مَـنْ طَبِيبُكْ[1]

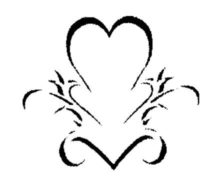
مِنْ أَدَبِ المُصَافَحةِ أَلَّا تَنْزِعَ يَدَكَ مِنْ يَدِ أَخِيك، حتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذي يَنْزِعُ قَبْلَكَ.

فَعَنْ أَنَس - رضي الله عنه - قال: «كان النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - إذا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ، لا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِه، حتى يَكُون الرَّجُلُ الَّذي يَنْزِعُ، ولا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِه، حتَى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ يصرِفُهُ، ولم يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جليسٍ لَهُ»[2].

ماس:

قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رحمه الله -: «المُصَافَحَةُ تَزِيدُ في الوُدِّ».

«المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق» (ص١٨٩).



---

(١) ديوان «بلسم الحياة» مخطوط.

(٢) (حسن) أخرجه أبو داوُدَ (٤٧٩٤)، والتِّرمذيُّ - واللَّفْظُ لَهُ - (٢٤٩٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٣/ ٩١٠)، وهُوَ في «الصَّحيحة» (٢٤٨٥)، وقال مُحَقِّقُ «جامع الأصول» (١١/ ٢٥٠): «وهو حديثٌ حَسَنٌ».

إشْراقـةُ المحَبةِ



إنَّ التَّبَسُّمَ إشراقٌ يستميلُ القُلوبَ، ويَسْتولى على الأفْئدةِ، ويَسْتَوْطِنُ الشِّغافَ [1]، ويَبْعَثُ على السُّرُورِ والانْشِرَاحِ.

مِنْ هَدْيِ نَبِيِّنا - ﷺ - أنَّهُ كان مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ تَبَسُّمًا.

فَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الحارثِ بْن جَزْءٍ - رضي الله عنه - قال: «ما رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رسُولِ الله - ﷺ -»[2].

وكانتِ البَسْمةُ مِنْ ضِمْنِ وَصَايَاهُ للنَّاسِ، حتَّى رَفَعَها إلى مُسْتَوَى الصَّدقةِ.

فَعَنْ أبي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ الله - ﷺ -: «تبسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ» [3].

وَجَعَلَ - ﷺ - لِقَاءَ النَّاسِ بوَجْهٍ طَلِيقٍ - أَيْ: باسم - مِنْ قَبِيلِ المَعْرُوفِ.

فعن أبي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قال: قال لي رَسُولُ الله - ﷺ -: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، ولَوْ أنْ تَلْقى أَخَاكَ بِوَجهٍ طَلْقٍ»[4].

قال الشاعرُ:

ازْرَعِ البَسْمَةَ في الكَوْنِ، ولا ... تَقْتُلِ الحُسْنَ بخَلْقِ الحَزَنِ

---

(١) الشغاف - بزنة السَّحاب -: غلافُ القَلْب.

(٢) (صحيح) رواه التِّرْمذيُّ (٣٦٤١)، وصحَّحه الألْبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٢٨٨٠).

(٣) (صحيح) رواه التِّرْمذيُّ (١٩٥٦)، وصحَّحه الألْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٩٠٨)، و«الصَّحيحة» (٥٧٢).

(٤) رواه مسلم (٢٦٢٦).

كُـنْ سَـفِـيرَ الـسّـعْـدِ في كَوْكَبنا ... بـابْـتِـسَـامٍ مِـثْـلَ طَـهَ فَـكُـن
كـانـت الـبَـسْـمَـةُ لا تَـهْـجُـرُهُ ... ابْـتِـسَـامُ المَــرْءِ بَـعْـضُ الـسُّـنَن
رُتِّـبَ الأَجْـرُ عـلى الـبَـسْـمَـةِ، والْـ ... عَبْسُ ـ بِئْسَ الفِعْلُ! ـ بَخْسُ الثَّمن(١)

وقال أستاذنا أبو محمد عبد الكريم العماد - حفظه الله - :

تـبـسَّـمْ وإنْ كُـنْـتَ في عُـسْرةٍ ... فـإنَّ الـتَّـبـسُّـمَ يَـمْـحُـو الـكَـدَرْ
يَـــرَاكَ أَخُــوكَ فـيـنـسـى أَسَـاهُ ... وتُـخْـرِجُ مِـنْ قَـيـدِ أَسْرِ الضَّجرْ
فَتَحيَا سَـعِـيـدًا، وتُـشْـفِـي سَقِيمًا ... وتَـدْخُـلُ بـالأجْـرِ فِيمَنْ أُجِـرْ(٢).

من أخلاق النبوة:

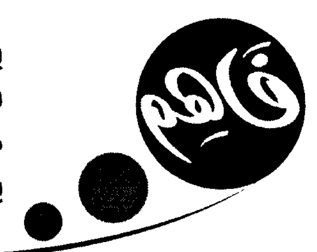
قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -: «ما رآني رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم - إلَّا وَتَبَسَّمَ في وَجْهي». (رواه البُخاري (٦٠٨٩)، ومسلم (٢٤٧٥)).



---

(١) بخس الثمن: ناقصُهُ.
(٢) «بلسم الحياة» مخطوط.

أنوار المحبَّة



إنَّ هُناكَ أُموزًا تَزْرَعُ
الأُلفَةَ والمودَّةَ في القُلوبِ،
منْها: الإعلامُ بالمحبَّةِ القَلبيَّةِ،
إنْ كانَ ثَمَّ (١) حُبٌّ.

فَقَدْ تَظَاهَرَتِ الأحاديثُ النَّبويَّةُ، والتَّوْجيهاتُ المُصْطَفَويَّةُ في التَّأْكيدِ على هذا الحقِّ ورعايتِهِ، لما لَهُ مِنَ الأَثَرِ العظيمِ في إشاعةِ رُوحِ المحبَّةِ والمودَّةِ والأُلْفَةِ، فَمِنْها:

قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ في اللهِ فَلْيُعْلِمْهُ؛ فإنَّهُ أَبْقَى في الأُلْفَةِ، وأَثْبَتُ في المودَّةِ» (٢).

يقولُ البغويُّ - رحمه الله -: «ومَعْنَى الإعلامِ: هُوَ الحَثُّ على التَّوَدُّدِ والتآلُفِ، وذلك أَنَّهُ إذا أَخْبَرَهُ، استمالَ بذلك قَلْبَهُ، واجْتَلَبَ وُدَّهُ» (٣).

وقال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا أحبَّ أَحَدُكُمْ صاحِبَهُ، فَلْيَأْتِهِ في مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ بأَنَّهُ يُحِبُّهُ للهِ - عزَّ وجلَّ -» (٤).

يقولُ البغويُّ - رحمه الله -: «وَفِيهِ: أَنَّهُ إذا عَلِمَ أَنَّهُ مُحِبٌّ لَهُ، قَبِلَ نُصْحَهُ فيما دلَّهُ عَلَيْهِ مِنْ رُشْدِهِ، ولم يَرُدَّ قَوْلَهُ فيما دَعَاهُ إليهِ مِنْ صَلاحٍ خَفِيَ عليه باطِنُهُ» (٥).

(١) ثَمَّ - بالفَتْحِ -: اسمٌ يُشَارُ بِهِ بمعنى هُنَاكَ.

(٢) (حسن) أخرجه وكيعٌ في «الزُّهْد» (٣٣٧) عَنْ عليِّ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ - رضي الله عنهما -، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (١١٩٩)، وفي «صحيح الجامع» (٢٨٠).

(٣) «شرح السنة» (١٣/ ٦٧).

(٤) (صحيح) أخرجه ابْنُ المُبارَكِ (٧١٢) عن أبي ذَرٍّ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٧٩٧)، و«صحيح الجامع» (٢٨١).

(٥) «شرح السنة» (١٣/ ٦٧).

ومَرَّ رَجُلٌ بالنبيِّ - ﷺ -، فقال رَجُلٌ مِمَّنْ عِنْدَهُ: «إنِّي لأُحِبُّ فُلانًا هذا لله».

فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «أَعْلَمْتَهُ؟». قال: لا. قال: «قُمْ إليْهِ فَأَعْلِمْهُ». فقام إليه فَأَعْلَمَهُ، فقال: أَحَبَّكَ الَّذي أَحْبَبْتَني لَهُ. ثُمَّ رَجَعَ، فَسَأَلَهُ النَّبيُّ - ﷺ -، فَأَخْبَرَهُ بما قال، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، ولَكَ ما احْتَسَبْتَ»[(١)].

ولَقَدْ صَرَّحَ النَّبيُّ - ﷺ - بمحبَّتِهِ لأُناسٍ بأَعْيانِهِمْ، فمنها: قَوْلُهُ - ﷺ - لِمُعاذٍ - رضي الله عنه -: «يا مُعاذُ، إنِّي - والله - لأُحِبُّكَ، أُوصيكَ - يا مُعاذُ - لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ»[(٢)].

وبوَّب البخاريُّ - رحمه الله - في «صحيحه» بابًا قال فيه: بابُ قَوْلِ النَّبيِّ - ﷺ - للأَنْصارِ: «أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ». ثُمَّ ساقَ الحديثَيْنِ بسندهما:

عن أنسٍ - رضي الله عنه - قال: رَأَى النَّبيُّ - ﷺ - النِّساءَ والصِّبْيانَ مُقْبِلينَ - قال: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ عُرُسٍ - فقام النَّبيُّ - ﷺ - مُمْثِلًا[(٣)]، فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إليَّ» قالها ثَلاثَ مَرَّاتٍ[(٤)].

وعَنْهُ - رضي الله عنه - قال: جاءت امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصارِ إلى رَسُولِ الله - ﷺ - ومَعَها صَبيٌّ لها، فكلَّمها رَسُولُ الله - ﷺ -، فقال: «والَّذي نَفْسي بيدِهِ، إنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ». مرَّتَيْنِ[(٥)].

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٣/ ١٥٠)، وأبو داوُدَ (٥١٢٥)، والحاكمُ (٤/ ١٧١) عَنْ أَنَسٍ، وقال: صحيحُ الإسناد، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٤١٨).

(٢) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٥/ ٢٤٤)، وأبو داوُدَ (١٥٢٢)، والنَّسائيُّ (١٣٠١)، والحاكمُ (١/ ٢٧٣) وصحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه ابْنُ خُزَيْمَةَ (٧٥١)، والأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

(٣) مُمْثِلًا أيْ: قائمًا مُنْتصبًا.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٧٨٥)، ومسلم (٢٥٠٨)، واللفظ له.

(٥) رواه البخاريُّ (٣٧٨٦)، ومسلم (٢٥٠٩).

وهأنا قَدْ سَرَدتُ بَعْضَ الأحاديثِ، وهي قَليلٌ مِنْ كَثيرٍ؛ لِيَعْلَمَ الجميعُ أنَّ إشاعةَ رُوحِ المحبَّةِ، والتَّأكيدَ عليها بَيْنَ النَّاسِ خُلُقٌ عظيمٌ مِنْ أَخْلاقِ الإسلامِ، بَيَّنَ النَّبيُّ - ﷺ - ثَمْرَتَها بقَوْلِهِ: «......... أَبْقَى في الأُلْفَة، وأَثْبَتُ في المَوَدَّة»[1].

وَمَنْ رامَ[2] مَعْرِفَةَ صَفَاءِ المحَبةِ، فَلْيَسْأَلْ قَلْبَهُ، أَلَيْسَتِ القُلُوبُ شَواهِدَ؟.

قال مُجاهدٌ: «رَأَى ابْنُ عبَّاس - رضي الله عنهما - رَجُلًا، فقال: إنَّ هذا لَيُحبُّني. قالوا: وما عِلْمُكَ؟!. قال: إنِّي لأُحِبُّهُ، والأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ[3]، فما تَعَارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، وما تناكر منها اخْتَلَفَ»[4].

ولله دَرُّ القائل:

لا تَسْأَلَنَّ المَرْءَ عَمَّا عِنْدَهُ ... واسْتَمْلِ[5] ما في قَلْبِهِ مِنْ قَلْبِكا

إنْ كان بُغْضًا كان عِنْدَكَ مِثْلُهُ ... أَوْ كانَ حُبًّا فاز مِنْكَ بِحُبِّكا[6]

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ:

قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ».

(أخرجه أحمدُ (٤/ ١٣٠)، وأبو داوُدَ (٥١٢٤) بلَفظ: «**فَلْيُخْبِرْهُ**» عَنِ المِقْدامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٧٩)).

---

(١) حسن: تقدَّم تَخْريجُهُ.

(٢) رام - مِنْ باب قال -: طَلَبَ.

(٣) **المُجنَّدة:** المجموعة.

(٤) «روضة العقلاء» (ص١٨٠).

(٥) **يُقال: استملاهُ الكتابَ:** إذا سَأَلَهُ أَنْ يُمْلِيَهُ عليه.

(٦) «ديوانُ محمدِ الورَّاقِ» (١٥٦).

استهلال



إنَّ التَّقديمات بَيْنَ يدَي الخطاب بمُقدِّمة تتناسبُ مع ما سيُذكر من الحديث مَسْلكُ عِلْية الأقوام[٣]**، ورَضاعُ الأدب**

وَهَا هُوَ النَّبيُّ - ﷺ - يُقَدِّمُ بمُقَدِّمةٍ رائعةٍ بَيْنَ يَدَيْ دَعْوَةِ قَوْمِه، فيقولُ: «**أَرَأَيْتَكُمْ**[١] **لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ**[٢] **هذا الجَبَل، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**».

قالوا: ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِبًا. قال: «**فإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»[٤].

وأمُّ سُلَيْم - رضي الله عنها - تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْ كَلامِها بمُقَدِّمةٍ رائعةٍ، سَجَّلَها التَّاريخُ بأَحْرُفٍ مِنْ نورٍ، فها هي تقولُ لرَسُولِ الله - ﷺ -: «يا رسولَ الله، إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي مِنَ الحَقِّ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ سُؤَالَها، فقالَتْ: هَلْ على المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إذا هي احْتَلَمَتْ؟. قال: «**نَعَمْ، إذا رَأَتِ المَاءَ**»[٥].

وتُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَي اعتذارِها لِمَنْ خَطَبَها بمُقَدِّمةٍ تَدُلُّ على رَجاحةِ عَقْلِها، وعظيمِ أَدَبِها، خلَّدها التَّاريخُ، يَرْويها لنا وَلَدُها أَنَسُ بْنُ مالك - رضي الله عنه - قال:

«خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْم، فقالَتْ: واللهِ، ما مِثْلُكَ - يا أبا طَلْحَةَ - يُرَدُّ، ولكنَّكَ رَجُلٌ كافرٌ وأَنَا امْرأةٌ مُسْلمةٌ، ولا يَحِلُّ لي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فإِنْ تُسْلِمْ فَذاكَ مَهْري، ما

---

(١) **أَرَأَيْتَكُمْ أَيْ**: أَخْبِروني.
(٢) **سَفْحُ الجَبَل - بالفتح -**: أَسْفَلُهُ، وقيل: عُرْضُهُ حَيْثُ يَسْفَحُ فيه الماءُ، والجَمْعُ سُفُوحٌ.
(٣) **عِلْيةُ الأقوام - بالكسر -**: جِلَّتُهُمْ وعُظَماؤُهُمْ.
(٤) رواه البخاريُّ (٤٩٧٢)، ومسلم - واللَّفْظُ لَهُ - (٢٠٨) من حديث ابن عباس.
(٥) رواه البخاريُّ - واللَّفْظُ لَهُ - (٢٨٢)، ومسلم (٣١٣).

أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَأَسْلَمَ فكان ذلك مَهْرَها»[١].

وَهِرَقْلُ يُقَدِّمُ مُقَدِّمةً بَيْنَ يَدَيْ رَغْبَتِهِ في إسْلَام قَوْمِه مِنَ الرُّوم، فيقولُ لَهُمْ: «يا مَعْشَر الرُّوم، هَلْ لكُمْ في الفَلَاح والرُّشْد، وأنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبايعوا هذا النَّبيِّ؟»[٢].

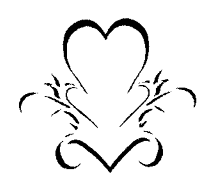
فَهُوَ لَمْ يَقُلْ لقَوْمِه: اتَّبِعُوا هذا النَّبيَّ، وهُوَ مَلِكٌ مُطَاعٌ يَأْمُرُ ويَنْهَى، لكِنْ قدَّمَ بمقدِّمةٍ تَدُلُّ على أنَّهُ كان أَعْقَلَهُمْ.

وبالجُمْلَة: فالتَّقديمـاتُ بَيْنَ يَدَي الخِطَاب تَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ صاحِبها إلى مَصَافِّ[٣] الأُدَباءِ العُقَلاءِ، بَلْ إنَّهُ لَيَتربَّعُ على القُلُوبِ، ويُنْظَرُ لَهُ نَظْرَةَ إجلالٍ وإكبارٍ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وَاسِطَةُ العِقْد:

قال أبو هلال العَسْكَريُّ - رَحِمَهُ اللهُ -:

«إذا كان الابتداءُ حَسَنًا بَديعًا، ومَليحًا رَشيقًا ـ كان داعِيَةَ الاسْتِماعِ لما يَجِيءُ بَعْدَهُ مِنَ الكلامِ». (الصناعتين) (ص٤٣٧).



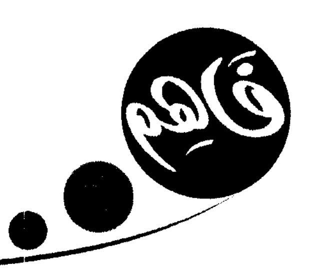
---

(١) رواه البُخاريُّ (٧).

(٢) المَصَافُّ: جَمْعُ المَصَفِّ، وهو مَوْضِعُ الصَّفِّ.

(٣)صَحِيح: رَوَاهُ النَّسَائِي (٦/ ١١٤)وَصَحَّحَهُ الألبَانِي في (صَحِيحِ النَّسَائي).

جمال الذّوق



إنّ التّنزُّه عن الألفاظ الشّنيعة الّتي تنفرُ منها الطّباعُ، وتَنْبو عنها الأسْماعُ، والتّعبيرَ عَنْها بعبارةٍ جَميلةٍ دَرجةٌ منَ الأدَب سَنيّةٌ[1]، ومكانةٌ في حُسْنِ السّمْت[2] عليّةٌ.

التَّلَفُّظُ بالوَحْشيِّ الشَّنيع مُجافاةُ الصَّواب، وفاقدُ ناطِقُهُ السَّجايا والآدابَ، والمُؤْمِنُ يَنْأى بنَفْسِهِ عَنِ الفَحشاءِ، ويَتَجافى عَنِ البَذاءِ.

فعن ابنِ مَسْعود -رضي الله عنه- **قال:** قال رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعّانِ، ولا اللَّعّانِ، ولا الفاحِشِ، ولا البَذيِّ**»[3].

قال النّوويّ -رحمه الله-: وممّا يُنْهى عَنْهُ الفُحْشُ، وبَذاءةُ اللِّسانِ، والأحاديثُ الصَّحيحةُ فيه كثيرةٌ ومعروفةٌ.

ومعناه: التَّعبيرُ عَنِ الأُمُورِ المُسْتقبحة بعبارةٍ صريحةٍ، وإنْ كانتْ صحيحةً، والمُتَكلِّمُ بها صادقًا، ويَقَعُ ذلك كثيرًا في ألفاظِ الوِقاعِ ونَحوِها.

ويَنْبَغي أنْ يُسْتَعْمَلَ في ذلك الكِناياتُ، ويُعَبَّرَ عنها بعبارةٍ جميلةٍ يُفْهَمُ بها الغَرَضُ. وبهذا جاء القُرآنُ العزيزُ، والسُّنَنُ الصَّحيحةُ المُكَرَّمةُ:

قال الله -تعالى-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧).

وقال -تعالى-: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٢١).

---

(١) سنيّة: رفيعة.

(٢) السَّمْت -بالفتح-: اتّباع الحقّ والهَدْي.

(٣) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٤٠٤)، والبُخاريُّ في «الأدب المُفرد» (٣١٢)، والتِّرْمذيُّ (١٩٧٧) -واللفظ له-، وقال: «حَسَنٌ غريبٌ»، وصحّحه الألْبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٧).

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

والآياتُ والأحاديثُ الصَّحيحةُ في ذلك كثيرةٌ.

قال العُلماءُ: «فينبغي أنْ يُسْتَعْمَلَ في هذا وما أَشْبَهَهُ مِنَ العِبَارَاتِ الَّتي يُسْتَحيَا مِنْ ذِكْرِها بصريح اسْمِها ـ الكِناياتُ المُفْهِمةُ، فَيُكْنَى عَنْ جِماعِ المَرْأَةِ بالإفضاءِ، والدُّخولِ، والمُعاشرةِ، والوِقَاعِ، ونَحْوِها، ولا يُصَرَّحَ بالنَّيْكِ، والجِماعِ، ونَحْوِهما، وكذلك يُكْنَى عَنِ البَوْلِ، والتَّغَوُّطِ بقضاءِ الحاجةِ، والذَّهابِ إلى الخَلَاءِ، ولا يُصَرَّحُ بالخِرَاءةِ، والبَوْلِ، ونَحْوِهما.

وكذلك ذكرُ العُيوبِ: كالبَرَصِ، والبَخَرِ[١]، والصُّنَانِ[٢]، وغَيْرِها ـ يُعَبَّرُ عنها بعباراتٍ جميلةٍ يُفْهَمُ منها الغَرَضُ.

ويُلْحَقُ بما ذَكَرْناهُ مِنَ الأمثلةِ ما سِوَاهُ»[٣].

وَمِنْ دُرَرِ العلَّامة الماوَرْديِّ — رحمه الله — قَوْلُهُ في بيان آداب الكلامِ:

«ومِنْ آدابِه: أنْ يَتَجافَى هُجْرَ القَوْلِ، ومُسْتَقْبَحَ الكلامِ، ولْيَعْدِلْ إلى الكنايةِ عمَّا يُسْتَقْبَحُ صريحُهُ، ويُسْتَهْجَنُ فصيحُهُ؛ لِيَبْلُغَ الغَرَضَ ولسانُهُ نَزِهٌ، وأَدَبُهُ مَصُونٌ»[٤].

وَمِنْ طَريف ما يُذكَرُ: أنَّ الحجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ ـ على الرغمِ مِنْ شَنيعِ أَعْمالِه ـ كان يتجافى عَنِ الفُحْشِ البَذيءِ، والسَّخيفِ الدَّنيءِ.

قال الحصريُّ — رحمه الله —: «وكانَ الحجَّاجُ ـ على قُبْحِ أَفْعالِهِ، وسوءِ أَحْوالِه ـ يتنزَّهُ عَنْ أنْ يَنْطِقَ بلَفْظةٍ سخيفةٍ، وقَدْ قال لِمَن اتَّهمهُ بمالِ ابْنِ الأَشْعَثِ: لَوْ خَبَّأتَهُ تَحْتُ ـ حتَّى قال: تَحْتَ ذَيْلِكَ ـ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إخراجِهِ»[٥].

---

(١) البَخَر: نَتْنُ الفَم، وبابُهُ فَرِحَ.
(٢) الصُّنَان ـ بزِنَةِ الغُراب ـ: ذَفَرُ الإبْطِ.
(٣) «الأذكار» للنَّوويِّ (ص٣٣٤).
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٥).
(٥) «جَمْعُ الجواهرِ في المُلَحِ والنَّوادرِ» للحصريِّ (ص٦٠٤).

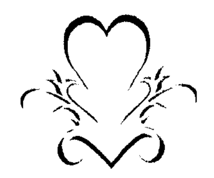
وإنَّما أراد أنْ يَقُولَ: تَحتَ اسْتِك[١].

وكذلك الأَمْثَالُ يَحْسُنُ اختيارُ أَحْسَنِها لَفْظًا[٢].

قال الماوَرْدِيُّ -رحمه الله- في بيان آداب الكلام: «وَمِنْ آدابه: أنْ يَجْتَنِبَ أَمْثَالَ العامَّة الغَوغَاء[٣]، ويَتَخَصَّصَ بأمثالِ العُلَماء الأُدَباء[٤]؛ فإنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّاس أَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ، فلا تَجِدُ لساقطٍ إلّا مَثَلًا ساقطًا، وتَشْبيهًا مُسْتَقْبحًا»[٥].

سبائك ذهبيَّة:

قال القاسميُّ -رحمه الله-: «إيَّاك وما يُسْتَقْبَحُ مِنَ الكَلَامِ؛ فإنَّهُ يُنَفِّرُ عَنْكَ الكِرامَ، ويُوثِبُ عَلَيْكَ اللِّئامَ» (جوامع الآداب) للقاسميِّ (ص٦).



(١) الاسْتُ: حَلْقَةُ الدُّبُر.

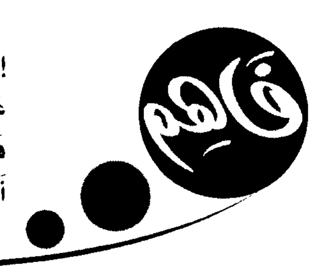
(٢) لِيَعْلَم المُتَأَدِّبُ أَنَّ أَكْثَرَ الأَمْثَالِ الشَّعْبيَّةِ يَغْلِبُ عليها الكلامُ الفاحِشُ إلَّا ما نَدَرَ، وكذلك بَعْضُ أَمْثَالِ العَرَب.

(٣) الغَوْغاء: سَقَطُ النَّاس وهَمَلُهُمْ.

(٤) أَمْثَالُ الأُدَباء والعُلَماء الفُضَلاء مَبْثُوثةٌ في كُتُبِ الأَمْثَالِ المُتقدِّمة، وقَدْ جَمَعْتُ بَعْضَها في كتاب أَسْمَيْتُهُ «المُنْتَقَى مِنْ أَمْثَالِ النُّبلاء»، وهُوَ مَطْبُوعٌ مُتَداوَلٌ، ولله الحَمْدُ.

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٦).

السّحْرُ الحَلالُ



إنَّ الكلامَ الطَّيِّبَ ما عُجِنَ عَنْبَرُ ألفاظه بمِسْك معانيه، فَفَاحَ نَسيمُ عَبَقِه، وسَطَعَ أريجهُ، وعَقَدَ سِحْرَهُ.

عَنْ عَبْد الله بن عُمَرَ -رضي الله عنهما-: أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ المَشْرِقِ فَخَطَبا، فَعَجِبَ النَّاسُ لبيانهما، فقال رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا». أَوْ: «إِنَّ بَعْضَ البَيَانِ سِحْرٌ»[1].

قال ابنُ دُرَيْد -رحمه الله-: «يُريدُ: أَنَّ البليغَ يَبْلُغُ بِبَيَانِهِ ما يَبْلُغُهُ السَّاحِرُ في لَطَافَةِ حِيلَتِه»[2].

وقال ابنُ الرُّوميّ -وأَحْسَنَ-:

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلالُ لَوَ أَنَّها ... لَمْ تَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ[3]

إِنْ طَالَ لَمْ يُمْلِلْ، وإِنْ هِيَ أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المُتَحَدِّثُ أَنَّهَا لَمْ تُوجِزِ

شَرَكُ[4] العُقُولِ، ونُزْهَةٌ ما مِثْلُها ... للسَّامعينَ، وعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ

دُرَرٌ تَعِيشُ الأُذْنُ فِي نَغَماتِها ... بِمُطَرَّزٍ عَذْبٍ وغَيْرِ مُطَرَّزِ[5]

---

(١) رواه البخاريُّ (٥١٤٦)، (٥٧٦٧).

(٢) «المجتنى» (ص١١).

(٣) المُتَحَرِّز: المُتَوقِّي المُتَحَصِّنُ.

(٤) الشَّرَكُ ـ بفتحتَيْن ـ: حبائلُ الصَّائدِ الَّتي يَرْتَبِكُ فيها الصَّيْدُ، واحدتُها شَرَكَةٌ، وجَمْعُها شُرُكٌ ـ بضمَّتَين ـ، وهي قَليلةٌ نادرةٌ.

(٥) «الأمالي» (١/ ١١٥)، و«نهاية الأَرَب» (٢/ ٧١)، و«أدب المجالسة» (ص٤٦)، وفي «ديوانه» (ص٤٠٩): «لَوَ أَنَّهُ لَمْ يَجْنِ»، و«التَّمهيد» (٥/ ١٧٥).

(٦) «التمهيد» (٥/ ١٧٥).

وقال يُوسُفُ بْنُ هارُون:

نطقت بِسِحْرٍ بَعْدَها غَيْرَ أَنَّهُ — مِنَ السِّحْرِ ما لَمْ يُخْتَلَفْ في حَلالَهْ
كذاك ابْنُ سِيرِينَ بنَفْثَةِ يُوسُف — تَكَلَّمَ في الرُّؤْيا بِمِثْلِ مَقالَهْ(٦)

وقال حَسَّانُ في ابْنِ عبَّاس — رضي الله عنه —:

صَموت إذا ما الصَّمْتُ زَيَّنَ أَهْلَهُ — وفَتَّاقُ أَبْكارِ الكَلامِ المُخَتَّم
وَعَى ما وعَى القُرآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ — وَنِيطَتْ(١) لَهُ الآدَابُ باللَّحْمِ والدَّمِ(٢)

زبرجد:

قال عُمَرُ بنُ عبد العزيز — رحمه الله — لِرَجُلٍ سَأَلَهُ حاجةً، فأَحْسَنَ المَسْأَلَةَ، فأَعْجَبَهُ قَوْلُهُ ـ: «هذا ـ واللهِ ـ السِّحْرُ الحَلالُ».

(بهجة المجالس) (١/ ٥٧)، و(التَّمهيد) (٥/ ١٧٤).



(١) نيطَتْ: عُلِّقَتْ، وقَدْ ناطَ الشَّيءَ بِهِ مِنْ بابِ قال.
(٢) «التمهيد» (٥/ ١٧٨).

جرس القلوب



إنَّ في الفُصْحَى حلاوةَ مَنْطق،
فاهم ورَشاقةَ لَفْظ، ورَنينَ أخّاذ،
والنَّاسُ يُجِلُّونَ مَنِ اعْتَادَ الحديثَ بالفُصْحَى،
ويَهابُونَهُ حتَّى العَامَّةُ[(١)]، ومَنْ لا يُحْسِنُ العَرَبيَّةَ[(٢)].

إنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَقْرَعَ جَرَسَ القُلُوبِ، فلا أَرَى أَجْمَلَ وأَحْلَى مِنْ جَرَسِ العربيَّةِ الفُصْحَى، فاعْتَدِ الحديثَ بها؛ فإنَّ لَهَا نَغْمَةَ أوتارٍ لا تُوجَدُ في غَيْرِها مِنْ لُغَاتِ العالَمِ.

قال ابنُ بسَّام - رحمه الله -:

فَـلاَ تَـعْـدُ إصْـلاَحَ الـلِّـسـانِ؛ فإنَّهُ ... يُـخـبِرُ عـمَّـا عِـنْـدَهُ ويُـبـيِّنُ
ويُعْجِبُني زِيُّ[(٣)] الـفَـتَـى وَجَمَـالُـهُ ... وَيَـسْـقُـطُ مِـنْ عَيْنَيَّ ساعةَ يَلْحَنُ

وقال شوقي:

إنَّ الَّـذي مَـلأَ الـلُّـغَـاتِ مَحَاسِنًا ... جَـعَـلَ الجَـمَـالَ وَسِرَّهُ في الـضَّـادِ

---

(١) بَعْضُ العاجزين عَنْ تعلُّم العربيَّة يَقُولُونَ: إنَّهُ لابُدَّ مِنَ العاميَّة؛ لمُخاطبةِ النَّاسِ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ، والجوابُ عليه:

قال د. فتحي جمعة أستاذُ العُلُوم اللُّغويَّة بكُلِّيَّة دار العُلُوم جامعة القاهرة ـ حفظه الله ـ: «إنَّ المُخاطبةَ على قَدْرِ العُقُولِ لا تَعْني تَبَذُّلَ اللُّغَة، أَوْ هُبُوطَ الكلام، وانْحرافَهُ عَنْ سُنَنِ الفُصْحَى، وإنَّما تَعْني الابتعادَ عَنْ تعقيدِ الفكْرة، والتَّقَعُّرِ في اللغة (أيْ: تَعَمُّد اختيار الصَّعْبِ مِنَ التركيب، والغَريبِ الوَحْشيِّ مِنَ الكلام)، أمَّا الجُنُوحُ إلى العاميَّةِ بدَعوى إفهامِ العَوَامِّ، فإنْ لمْ يكُنْ مُداراةً للعَجْزِ عَنِ الفُصْحَى، وَقِصَرِ البَاعِ في استعمالها ـ فَهُوَ ادِّعاءٌ يَظْلِمُ الفُصْحَى والعَوَامَّ في وَقْتٍ مَعًا: يَظْلِمُ الفُصْحَى بأنَّها غَيْرُ مَفْهُومة، وواللهِ، إنَّها لَمفهومةٌ، ويَظْلِمُ العوامَّ بأنَّهُمْ لا يَفْهَمُونَ، وتاللهِ، إنَّهُمْ لَيَفْهَمُونَ، وإلَّا فكَيْفَ يَخْشَعُونَ للقُرْآنِ، ويَتَأثَّرون ببالغِ المَوْعظة، وجَميلِ البيانِ؟!!». ا هـ.

(٢) العَرَبيَّةُ الفُصْحَى سماعيَّةٌ، لها لَذاذةٌ في الأسْماعِ؛ لذا تَجدُ مَنْ لا يُحْسِنُ العربيَّةَ يَطْرَبُ لسماعِ الفَصيحِ مِنَ الكَلامِ، ويَهْتَزُّ لسماعِ مَنْ يتكلَّمُ بالفُصْحَى، وهذا مُجرَّبٌ مُشاهَدٌ.

(٣) الزِّيُّ ـ بالكَسْرِ: اللِّباسُ والهَيْئة.

فما أجمل أن تتعلم العربية إن كنت لا تحسن منها شيئًا؛ فإنها تجملك ما تحدثت بها!.

النَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ[1] والمَرْءُ تُكْرِمُهُ إذا لَمْ يَلْحَنِ
وإذا طَلَبْتُ مِنَ العُلُومِ أَجَلَّها فَأَجَلُّها شَأْنًا مُقِيمُ الأَلْسُنِ[2]

وَمِنْ وصيَّة عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ لبَعْضِ بَنِيهِ: «يا بَنِيَّ، أَصْلِحُوا أَلْسِنَتَكُمْ؛ فإنَّ الرَّجُلَ تَنُوبُهُ النَّائِبَةُ[3]، فيتجمَّلُ فيها، فَيَسْتَعِيرُ مِنْ أخيهِ دابَّتَهُ، وَمِنْ صَدِيقِهِ ثَوْبَهُ، ولا يَجِدُ مَنْ يُعِيرُهُ لِسَانَهُ»[4].

إنِّي -وإنْ كُنْتُ أَثْوابي مُلَفَّقَةً- لَيْسَتْ بخَزٍّ[5]، ولا مِنْ نَسْجِ كَتَّانِ[6]
فإنَّ في المَجْدِ هِمَّاتِي، وفي لُغَتِي فَصَاحَةً، ولِسَانِي غَيْرُ لَحَّانِ[7]

ومن طريف ما يُذكر: أنَّ أَحَدَ الفُصَحاءِ نَظَرَ إلى رَجُلٍ عليه ثِيابٌ فاخرةٌ، يتكلَّمُ بكلامٍ فَيَلْحَنُ في كَلَامِه، فقال لَهُ: «إمَّا أَنْ تتكلَّمَ بكلامٍ يُشْبِهُ لباسَكَ، أو تَلْبَسَ لباسًا يُشْبِهُ كَلَامَكَ!».

جَمِّلِ المَنْطِقَ بالنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمُ الإعْرَابَ في النُّطْقِ اخْتَبَلَ
فاللِّسَانُ العَضْبُ سَيْفٌ مُصْلَتٌ كَمْ بِسِحْرٍ مِنْ حَدِيثٍ قَدْ قَتَلَ

لآلئ:

قال عَبْدُ المَلِك بْنُ مَرْوان -رحمه الله-: «اللَّحْنُ في الكلامِ أَقْبَحُ مِنَ الجُدَرِيِّ في الوَجْهِ». (القواعد الأساسيَّة) للهاشمي (ص٣).

---

(١) **الأَلْكَن**: الَّذي لا يُقيمُ العَرَبِيَّةَ لعُجْمَةِ لسانِه، والجَمْعُ لُكْنٌ.

(٢) «القواعد الأساسيَّة» للهاشميّ (ص٤).

(٣) **النَّائبة**: المُصيبة، والجمْعُ النَّوائبُ.

(٤) «القواعد الأساسيَّة» (ص٣).

(٥) **الخَزُّ** بالفَتْح: الحرير، والجَمْعُ خُزُوزٌ.

(٦) **الكَتَّانُ** بالفَتْح والتَّشديد: القُطْنُ.

(٧) «المفرد العلم في رَسْمِ القَلَم» للهاشميّ (ص٣٩).

مَشاعِرُ الكَلِمَة

إنَّ الكَلِمَةَ الَّتي تَحْمِلُ قَدْرًا كَبيرًا مِنَ المشاعِرِ الصَّادِقَةِ لتَكْسِبُ صاحِبَها حُبَّ النَّاس وتَقْديرَهُم، بَلْ إنَّهُمْ لَيجِلُّونَهُ فَوْقَ إجْلالِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ.

قَدْ تَسْمَعُ الكَلِمَةَ، وتَجِدُ لها مِنَ الارْتياحِ ما لا تَجِدُهُ لغَيْرِها مِنْ آلافِ الكلِماتِ، بَلْ وتَأْسِرُكَ، وتَشْعُرُ أنَّها خَرَجَتْ مِنَ القَلْبِ، لتستقرَّ في القَلْبِ.

في كُــلِّ لَـفْـظٍ مِــنْ لِـسـانِـكَ دُرَّةٌ تَحْـتـارُ في أَوْصَـافِـهـا الأَلْـبـابُ
تَنْســابُ في قَلْبِي، فيحيَا مِثْلَما يُحْيِـي النَّـبـاتَ المـاءُ إِذْ يَـنْـسَـابُ
يـا مُـخْرِسَ المُتكلِّمين ومُرْهِفَ الـ أَسْـمَاعِ إنْ قـالـوا: لَدَيْهِ خِطَابُ[1]

وما مِنْ شَكٍّ أَنَّ الإنسانَ الناضجَ في عَواطِفِهِ ومشَاعِرِهِ يَعْرِفُ ما وَرَاءَ الكلماتِ المنطوقةِ مِنْ مشاعِرَ، وأعظمُ مَنْ يَتَبَيَّنُ ذلك النِّساءُ؛ لأَنَّهُنَّ أَنْدَى عاطفةً[2].

تَقولُ إحداهُنَّ -وهي عبير العقاد- :

«كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ لا يُعيرونَ أَهَمِّيَّةً لصَدَى كلماتِهِمْ، ووَقْعِها في نُفُوسِ الغَيْرِ؛ فَتَراهُمْ لا يُفَكرُون بِما يَقُولُونَ ولا يَأْبَهُونَ بِمَشَاعِرِ الآخَرينَ وَهُنَاكَ مِنَ الأَشْخاصِ مَنْ تَعدَّى هذهِ المَرْحَلَةَ، وتَنبَّهَ إلى أَثَرِ الكَلِماتِ الإيجابيَّةِ في النَّفْسِ، فتراهُمْ يُحَدِّثون الآخَرينَ بكلماتٍ وتعبيراتٍ جَميلةِ المَظْهرِ؛ إلَّا أَنَّها ـ للأسَفِ ـ لا تَمْلِكُ ذلك الأَثَرَ الفَعَّالَ، لماذا؟.

لأَنَّها غَيْرُ صادقةٍ، ولا تُقَالُ بإخلاصٍ....إنَّما هي مُجَرَّدُ كلماتٍ، أراد صاحِبُها إسْدَالَ

(١) «بلسم الحياة» مخطوط.
(٢) أَنْدَى عاطفةً أَيْ: أَحْسَنُ.

ستَارٍ اجتماعيٍّ جميلٍ على نَفْسِه حِيْنما قالها، ولَمْ يُفَكِّرْ في طَبيعةِ البَشَرِ الَّتي تتميَّزُ بوُجُود جهازِ استقبالٍ قَوِيٍّ مُفْعَمٍ بالذَّكاءِ[1] والتَحْليلِ، ذلك الجهازُ الَّذي يَسْتطيعُ أنْ يَكْشِفَ ما وَرَاءَ الكلماتِ المنطوقةِ، ويَسْتطيعُ أنْ يُمَيِّزَ الكلماتِ الَّتي تُنْطَقُ دُونَما نيَّةٍ صافيةٍ مِنْ نَفْسِ صاحبِها عَنِ الأُخْرَى الَّتي تَحْمِلُ في هَمَساتِها كُلَّ الحُبِّ والصَّفاءِ، والشَّفافيَّةِ والتَّقْديرِ.

فالكلماتُ الَّتي تَخْرُجُ مِنَّا تَكُونُ مُحَمَّلَةً بطاقةِ ناطقتِها الفِعْليَّةِ: فإما طاقة الحُبِّ....، أَوِ المُجاملةِ ... العَطْفِ .... اللاَّمُبَالاةِ...التملُّك...الكُرْه..إلخ.

لذا كثيرًا ما تَكْرَهُ شَخْصًا رغمَ مقدارِ الكلماتِ الإيجابيَّةِ الَّتي يَسْتَخْدِمُها مَعَكَ تعبير (يا حبيبي !) لماذا؟.

لأنَّ جهازَ استقبالِكَ ـ إنْ كان حسَّاسًا وناضجًا ـ اسْتَطَاعَ الْتِقاطَ طاقةِ الكلمةِ، وعَرَفَ أنَّ ذلك الشَّخْصَ يَبْعَثُ اللاَّمبالاةَ، ورُبَّما كُرْهًا مَعَ كلمةِ (يا حبيبي !)»[2].

قُلْتُ: هذا واقعٌ مالَه مِنْ دافعٍ، لا يُنْكِرُهُ إلَّا مَنْ بأُذُنِه طَرَشٌ، وفي عَيْنِه رَمَدٌ، فَمَنْ لَزِمَ جانبَ الصِّدْقِ والاخلاصِ، وُجِدَ لكلامِهِ رُوحٌ مِنَ التَّأْثيرِ والتَّنفيذِ، ولاَبُدَّ.

عسجدٌ:

قال عامرُ بنُ قَيس ـ رحمه الله ـ:

«الكلمةُ إذا خَرَجَتْ مِنَ القَلْبِ، وَقَعَتْ في القَلْبِ، وإنْ خَرَجَتْ مِنَ اللِّسانِ، لَمْ تُجاوِزِ الآذانَ» (تُحفة الخطيب) للمؤلِّف (ص١٦).

---

(١) مُفْعَم بالذَّكاء: مَمْلُوءٌ به.

(٢) «مجلة البيان» عدد (٢٣٣).

صَفحَةٌ مَفتُوحةٌ



إنّ المَرْءَ مَتَى أضْمَرَ حُبًّا
فاهم أوْ بُغضاً، فلا يَخفَى ذلك
على أصحاب البَصيرة النافذة؛
فالوَجْهُ صَفحَةٌ مَقروءةٌ،
والعُيُونُ مَغَاريفُ القُلوب.

قال الله -سبحانه وتعالى- : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل: ٥٨).

وقال -تعالى- : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾(الحج: ٧٢).

وقال -تعالى- : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾(يونس: ٢٧).

وقال -تعالى-: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأحزاب: ١٩).

فهذه الآياتُ وغَيْرُها لَتَدُلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الوَجْهَ صَفْحَةٌ مَفْتُوحةٌ، بها يُعْرَفُ ما في القَلْبِ، وإنْ لم يتكلَّمْ صاحِبُهَا.

قال الشاعرُ:

إنْ كاتُمونا القِلى[١] نمَّتْ[٢] عُيُونُهم ... والعَيْنُ تُظْهِرُ ما في القَلْبِ أَوْ تَصِفُ[٣]

وقال أستاذنا العماد:

عَيْنَاكَ تُخْبِرُني بما أَخْفَيْتَ مِنْ ... دَمْعِ الصَّبابةِ، أَوْ لَظَى الأَشْوَاقِ

ولَقَدْ أَمِنْتَ مِنَ اللِّسانِ لحِفْظِها ... لكِنْ نَسيتَ خِيانةَ الأَحْدَاقِ[٤]

---

(١) القِلَى: البُغْضُ، يُقالُ: قَلَاهُ يَقْلِيهِ قِلىً وقَلَاءً ـ بالفَتْحِ والمدِّ ـ، ويَقْلاهُ لُغَةُ طَيِّءٍ.
(٢) نَمَّتْ: رفعت الحديثَ وأشاعتْهُ، وبابُ نَمَّ رَدَّ، ويَنِمُّ ـ بالكَسْرِ ـ لَغَةٌ فيه.
(٣) «عيون الأخبار» (١/ ١٨١).
(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

والعَيْنُ أَشَدُّ بلاغةً، وأَبْلَغُ تَعْبيرًا؛ ولهذا قَالُوا: «رُبَّ طَرْفٍ[١] أَفْصَحُ مِنْ لِسَانٍ»[٢].
وقالوا: «رُبَّ عَيْنٍ أَنَمُّ مِنْ لِسَانٍ»[٣].

وقالوا: «احْتَرِسْ مِنَ العَيْنِ، فوالله، لَهِيَ أَنَمُّ مِنَ اللِّسانِ»[٤].

وقالوا: «شاهِدُ اللَّحْظِ[٥] أَصْدَقُ»[٦].

وقال الشاعر:

وما أحب إذ أحببت مُكتتمًا ... يُبْدي العَداوَةَ -أَحْيانًا- ويُخْفيها
تَظَلُّ في قَلْبِه البَغْضَاءُ كامِنَةً ... فالقَلْبُ يَكْتُمُها، والعَيْنُ تُبْديها
والنَّفْسُ تَعْرِفُ في عَيْنَيْ مُحَدِّثِها ... مَنْ كان مِنَ سِلْمِها، أَوْ مِنْ أَعَادِيها
عَيْنَاكَ قَدْ دلَّتا عَيْنيَّ مِنْكَ عَلى ... أَشْيَاءَ، لَوْلاهُما ما كُنْتُ أَدْرِيها[٧]

وقال ابنُ الأعرابي:

العَيْنُ تُبْدي الَّذي في نَفْسِ صاحِبِها ... مِنَ الشَّناءَةِ[٨] أَوْ وُدٍّ إذا كانا
إنَّ البَغيضَ لَهُ عَيْنٌ يَصُدُّ[٩] بها ... لا يستطيعُ لما في الصَّدْرِ كِتْمانا
العَيْنُ تَنْطِقُ، والأَفْواهُ ساكتةٌ ... حَتَّى تَرَى مِنْ ضَميرِ القَلْبِ تِبْيَانا[١٠]

وبالجُمْلَة: فهذا البابُ بَحْرٌ لا ساحلَ لَهُ، وبَقِي أَنْ نَذْكُرَ أَنَّهُ هَلْ لَنا أَنْ نُعَامِلَ غَيْرَنا بما ظَهَرَ لنا مِنْ لَحْظِه، أَوْ صَفْحَةِ وَجْهِهِ؟.

(١) **الطَّرْف** بالفَتْح : العَيْنُ.
(٢) «عيون الأخبار» (١/ ١٨١).
(٣) «مجمع الأمثال» (١/ ٣١٤).
(٤) المرجع السابق (١/ ٢٠٤).
(٥) **اللَّحْظ**: النَّظَر بمُؤْخرِ العَيْنِ مِنْ أيِّ جانبيه كان يمينًا أو شمالًا، وهُوَ أَشَدُّ التفاتًا مِنَ الشَّزْرِ، وبابُهُ قَطَعَ، ولَحَظانًا أيضًا بالتَّحريك .
(٦) «مجمع الأمثال» (١/ ٣١٤).
(٧) «روضة العقلاء» (ص ١٠٧).
(٨) **الشَّناءة**: البُغْض والكراهيَة.
(٩) **يَصُدُّ**: يُعْرِضُ، وبابُهُ دَخَلَ.
(١٠) «روضة العقلاء» (ص١٠٦).

الجواب: لا، بَلْ نَأْخُذُ الحيطةَ والحَذَرَ فَقَطْ، فإذا ظهر لنا شيءٌ مِنْ فِعْلِه، أَوْ فَلَتاتِ لسانِهِ ـ عاملناهُ بذلك، وإنْ ظهر لنا شيءٌ مِنْ طَرْفِه، أَوْ صَفْحَةِ وَجْهِهِ ـ لَزِمْنا التَّغافُلَ، فَقَدْ كان شَيْخُ الإسلام يَعْرِفُ ذلك مِنْ وُجوهِ بَعْضِ طُلَّابه، فأخبر تِلْميذَهُ ابْنَ القَيِّم بما يَراهُ، فقال لَهُ: «لماذا لَمْ تُخْبِرْنا؟».

فقال: «إنَّكُمْ لا تَصْبِرُونَ».

وقال إبراهيمُ بْنُ المَهْدِيِّ العبَّاسي ـ رحمه الله ـ:

«اعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ ما تُحِبُّ أَوْ ما تَكْرَهُ، فإنَّما لك أنْ تَقيسَ ما أَضْمَرَ قَلْبُهُ بالَّذي أظهر لسانُهُ، وليس لك أَنْ تَعْرِفَ ما أَسَرَّ ضَميرُهُ، فعامِلْهُ على نَحْوِ ما يُبْدي لك لسانُهُ»[1].

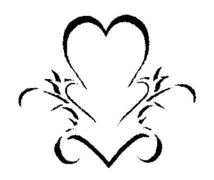
لَيْسَ المُسِيءُ إذا تَغَيَّبَ سُوءُهُ ... عنِّي بِمَنْزِلَةِ المُسيءِ المُعْلِنِ
مَنْ كان يُظْهِرُ ما أُحِبُّ فإنَّهُ ... عِنْدي بِمَنْزِلَةِ الأمينِ المُحْسِنِ
واللهُ أَعْلَمُ بالقُلُوبِ، وإنَّما ... لَكَ ما بَدَا لَكَ مِنْهُمْ بالأَلْسُنِ
وَلَقَدْ يُقالُ خِلافُ ذلك: إنَّما ... لَكَ ما بَدَا لك مِنْهُمَ بالأَعْيُنِ

ماسٌ:

قال إبراهيمُ الحجنيُّ ـ رحمه الله ـ:

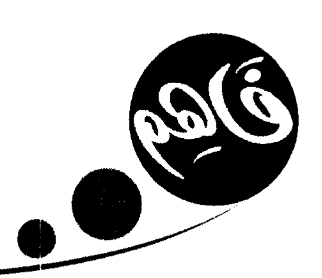
«دَلائِلُ الحُبِّ تُعْرَفُ في المُحِبِّ، وإنْ لَمْ يَنْطِقْ لسانُهُ».

(روضة العقلاء) (ص١٠٧).



(١) المرجع السابق (ص ١٠٧).

صَيْدُ القُلُوبِ



إنَّ التواضعَ منْ مَصَايدِ القُلُوبِ،
يَطيرُ بها إلى سَماءِ العُلا،
تَخالُهُ الطَّائرَ، وهي مَنْ طار بِهِ.

ما تواضَعَ أَحَدٌ لله، إلَّا رَفَعَ اللهُ في القُلُوبِ مَنْزِلَتَهُ، دَلَّ على ذلك قَوْلُهُ - ﷺ -: **«ما تواضع أَحَدٌ لله، إلَّا رَفَعَهُ الله[١]»** [٢].

قال ابنُ الحاج - رحمه الله -: «مَنْ أَرَادَ الرِّفعةَ، فَلْيتواضعْ لله - تعالى -؛ فإنَّ العِزَّةَ لا تَقَعُ إلَّا بقَدْرِ النُّزول، أَلَا تَرَى أنَّ الماءَ لَمَّا نَزَلَ إلى أَصْلِ الشَّجَرة، صَعِدَ إلى أَعْلَاها، فكأنَّ سائلًا سَأَلَهُ: ما صَعِدَ بك هُنا - أَعْني في رَأْسِ الشَّجَرةِ - وأَنْتَ في أَصْلِها؟!، فكأنَّ لسانَ حالِهِ يَقُولُ: مَنْ تواضَعَ لله رَفَعَهُ»[٣].

قال البُحْتُريُّ:

دَنَـوْتَ تَـوَاضُـعًـا، وَعَـلَـوْتَ مَجْـدًا ... فَـشَـأْنَـاكَ انْـخِـفَـاضٌ وارْتِـفَـاعُ
كَـذَاكَ الشَّـمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى[٤] ... وَيَـدْنُـو الـضَّـوْءُ مِنْها والـشُّـعَـاعُ

---

(١) قال النَّوويُّ - رحمه الله - في «شرحه على مسلم» (٦/ ١٤٢) في شَرْحِهِ لهذا الحديث: «قولُهُ - ﷺ -: ما تواضع أحدٌ لله، **إلَّا رَفَعَهُ اللهُ**» فيه وَجْهان: أَحدُهما - يَرْفَعُهُ اللهُ في الدُّنيا، ويُثْبِتُ لَهُ - بتواضعه - في القُلُوب مَنْزِلَةً، ويَرْفَعُهُ اللهُ عِنْدَ النَّاسِ، ويُجِلُّ مكانَهُ. والثَّاني - أنَّ المُرادَ: ثوابُهُ في الآخرة، ورَفْعُهُ فيها - بتواضعِهِ - في الدُّنيا.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) «المدخل» لابْنِ الحاج (٢/ ١٢٢).

(٤) تُسَامَى: تُفَاخَرُ.

وقال - أيضًا - :

كَالْبَدْرِ أَفْـرَطَ فِي العُلُوِّ وَضَـوْءُهُ ... للعُصْبَةِ(٥) السَّـارِينَ(٦) جِـدُّ قَرِيبِ

وقال غَيْرُهُ:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كالنَّجْم لاَحَ(١) لِنَاظِرٍ ... على صَـفَـحَـاتِ المَـاءِ، وهُـوَ رَفِـيْـعُ

ولا تَـكُ كـالـدُّخَـانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... إلى طَـبَـقَـاتِ الجَـوِّ، وَهُـوَ وَضِـيْـعُ

وقال أستاذنا العماد - حفظه الله - :

خَـلِّ الـتَّـعَـاظُـمَ في المَـلا ... فـالـنَّـاسُ هُـمْ أَدْرَى بِـحَـالِـكْ

مَـهْـمَا عَـلَـوْتَ بِـنـاظـريـك ... فَـلَـسْـتَ عِـنْـدَهُـمُ كَـذَلِـكْ

لَـنْ تَـرْتَـقِـي إلَّا إذا ... كـان الـتَّـوَاضُـعُ رَأْسَ مـالِـكْ(٢)

سَبائكُ ذَهَبِيَّة:

قال ابنُ المُقَفَّع: «إنِ استطعتَ أَنْ تَضَعَ نَفْسَكَ دُونَ غايتِكَ في كُلِّ مَجْلِسٍ، ومقامٍ ومقالٍ، ورأْيٍ وفِعْلٍ - فافْعَلْ؛ فإنَّ رَفْعَ النَّاسِ إيَّاك فَوْقَ المَنْزِلَةِ الَّتي تَحُطُّ إليها نَفْسَكَ، وتَقْرِيبَهُمْ إيَّاكَ إلى المَجْلِسِ الَّذي تَبَاعَدْتَ مِنْهُ، وتعظيمَهُمْ مِنْ أَمْرِكَ ما لَمْ تُعَظِّمْ، وتزيينَهُمْ مِنْ كلامِكَ ورَأْيِكَ وفِعْلِكَ ما لَمْ تُزَيِّنْ - هُوَ الجَمالُ».

(الأدب الصَّغير، والأدب الكبير) (ص١١٨-١١٩).

---

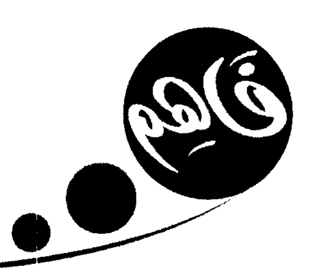
(١) **العُصْبَة** بالضَّمِّ: الجماعة.

(٢) **السَّارين**: السَّائرين ليلًا من السُّرىٰ، وهُوَ سَيْرُ اللَّيلِ.

(٣) **لاَحَ**: بَدَا وظهر، وبابُهُ قال.

(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

استراحة القلوب



إنَّ المليحَ والنَّادرَ الرَّائعَ منَ الأحاديث إذا حَرَصَ المَرْءُ على انتقائها، ونَثَرها عِنْدَ مَنْ يَرْغَبُ ليَزِيْنَ في حديثه، ورأيه، وفعْله ما لَمْ يَزِيْنْ.

حَرِيٌّ بكَ أَنْ تَحْرِصَ على حِفْظِ المَليحِ والرَّائعِ مِنَ الأحاديثِ؛ لتَنْثُرَهَا في كُلِّ مَجْلس ومقام؛ فإنَّ الإنسانَ لا يَزَالُ شَغُوفًا بما لَمْ يَذُقْ، فإذا أَطْعَمْتَهُ نوادرَ الحَديث، ظَنَّ أَنَّ لحديثكَ شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ ما ذاق، فيفتحُ لك قَلْبَهُ، ويَجْري بَيْنكما تعارفٌ ومودَّةٌ، ما مِنْ ذلك بُدٌّ.

قال ابنُ المُقفَع: «اعْلَمْ أَنَّهُ سَتَمُرُّ عَلَيْكَ أَحَاديثُ تُعْجِبُكَ: إمَّا مَليحةٌ، وإمَّا رائعةٌ.

فإذا أَعَجَبَتْكَ كُنْتَ خَليقًا أَنْ تَحْفَظَها؛ فإنَّ الحِفْظَ مُوَكَّلٌ بما مَلُح وَرَاعَ، وسَتَحْرِصُ على أَنْ تَعْجَبَ مِنْهَا الأَقْوَامُ. فإنَّ الحِرْصَ على ذلك التَّعَجُّبِ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ، ولَيْسَ كُلُّ مُعْجِبٍ لك مُعْجِبًا لغَيْرِكَ»[1].

قلتُ: لِيَحرِص المَرْءُ على إتحافِ السَّامعينَ بما لَذَّ وطاب مِنَ الأحاديثِ، مُراعيًا الحالَ والمَقَامَ ووُقُوعَهُ مِنْ نُفُوسِهِمْ مَوْقِعَهُ، فإنِ اشْتَهَتْ حَديثَهُ اسْتَهَلَّ كلامَهُ، وإنْ عافَتْ أَمْسَكَ.

وَلْيَحْرِصْ تَمَامَ الحِرْصِ على الصِّدْقِ في الأَقْوالِ، ولْيَبْتَعِدْ عَنِ الغِيْبَةِ، والنَّميمةِ، وجَرْحِ المشاعِرِ، ولْيَكُنْ حَدِيثُهُ جامعًا نافعًا مُفيدًا، ولْيَبْتَعِدْ ـ أيضًا ـ عَنْ سخيفِ الحديثِ وهَزْلِهِ الَّذي تَمُجُّهُ الأسماعُ، وتَنْفِرُ منه الطِّباعُ.

---

(١) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٢٣-١٢٤).

قال ابنُ المُقفع: «فإذا انْتَشَرَ ذلك ـ أي: المليحُ والرَّائعُ ـ المرَّةَ والمرَّتَيْنِ، فَلَمْ تَرَهُ وَقَعَ مِنَ السَّامعينَ مَوْقِعَهُ ـ فازْدَجِرْ[1] عَنِ العَوْدَةِ؛ فإنَّ العجبَ مِنْ غَيْرِ عَجيبٍ سُخْفٌ شديدٌ.

وقَدْ رَأَيْنا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْلَقُ الشَّيْءَ[2]، ولا يُقْلِعُ عَنْهُ، وعَنِ الحديثِ بِهِ، ولا يَمْنَعُهُ قِلَّةُ قَبُولِ أصحابِهِ لَهُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إليه، ثُمَّ يَعُودُ.

ثُمَّ انْظُرِ الأَخْبَارَ الرَّائعةَ، فتحفَّظْ مِنْها؛ فإنَّ الإنسانَ مِنْ شَأْنِهِ الحِرْصُ على الأخبارِ، ولا سَيَّما ما راع منها، فأكثرُ النَّاسِ مَنْ يُحَدِّثُ بما سَمِعَ، ولا يُبالي مِمَّنْ سَمِعَ، وذلك مَفْسَدَةٌ للصِّدْقِ، ومَزْرَاةٌ بالمُروءةِ، فإنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تُخْبِرَ بشَيْءٍ، إلَّا وأَنْتَ بِهِ مُصَدِّقٌ، ولا يَكُونَ تصديقُكَ إلَّا ببُرْهانٍ ـ فافْعَلْ.

ولا تَقُلْ كما يَقُولُ السُّفهاءُ: أُخْبِرُ بِمَا سَمِعْتُ؛ فإنَّ الكَذِبَ أكثرُ ما أَنْتَ سامعٌ، وإنَّ السُّفَهاءَ أَكْثَرُ مَنْ هُوَ قائلٌ.

وإنَّكَ إنْ صِرْتَ للأحاديثِ واعيًا وحاملًا، كان ما تَعِي وتَحملُ عَنِ العامَّةِ أكْثَرَ مِمَّا يَخْتَرِعُ المُخْتَرِعُ بأَضْعَافٍ»[3].

نادرةٌ:

المَلِيحُ والرَّائعُ مِنَ الأحاديثِ فَخٌّ لاصطيادِ القُلُوبِ.



---

(١) ازْدَجِرْ: ارْتَدِعْ وامْتَنِعْ.
(٢) يَعْلَقُ الشَّيْءَ: يَلْزَمُهُ ويَلْهَجُ به، وبابُهُ فَرِحَ.
(٣) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٢٢).

السحر الظاهر



إنَّ الهديّة علاج ساحر لضغائن القلوب، وسخائم النّفوس، كما هي سببٌ عظيمٌ لنَيل المحبّة، واكتساب المودّة.

حَثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على الهَديَّة، وبَيَّنَ لنا أنَّها سَبَبُ المحبَّة بقَوْلِه: «**تَهَادَوْا تحابُّوا**»[١].

بَلْ إنَّها لَتَسُلُّ السَّخيمةَ[٢]، وتَذْهَبُ بالضَّغِينة، وتُورِثُ المودَّةَ.

كما قيل:

إنَّ الهَـــدِيَّـــةَ حُـلْـــوَةٌ ... كـالـسِّـحْـرِ تَخْـتَـلِـبُ الـقُـلُـوبـا

تُــدْني الـبَـعِـيـدَ مِـنَ الهَـــوَى ... حَــتَّـى تُـصَـيِّـرَهُ قَـرِيـبـا

وتُـعِـيـدُ مُـضْـطَـغِـنَ الـعَـدا ... وَةَ -بَـعْـدَ بـغْـضَـتِـه- حَـبِـيـبـا

تَنْفي السَّخيمةَ مِنْ ذَوِي الشَّـ ... ـحْـنَـا، وتَمْـتَـحِـقُ الـذُّنُـوبـا[٣]

وقال الأبرش:

هَـدايـا الـنَّـاس بَـعْـضِـهِـمُ لبَعْض ... تُـوَلِّـدُ في قُـلُـوبِـهِـمُ الـوِصَـالا

وتَـــزْرَعُ في الـقُـلُـوبِ هَـوًى ووُدًّا ... وتَـكْـسُـوكَ المَـهَـابَـةَ والجَــلالا

مصايِدُ للقُلُوبِ بـغَـيْـرِ لَـغَـبٍ[٤] ... وتَمْـنَـحُـكَ المحبَّـةَ والجَـمَالا[٥]

---

(١) (حسن) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -، وحسَّنه الألبانيُّ لشواهدِه في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤)، و«الإرواء» (١٦٠١).

(٢) **السَّخيمة**: الحِقْدُ، والجَمْعُ سَخائِمُ.

(٣) «روضة العقلاء» (ص٣٩٦).

(٤) **اللَّغَب**: كالتَّعَب زِنَةً ومعنىً.

(٥) «روضة العقلاء» (ص٣٩٧).

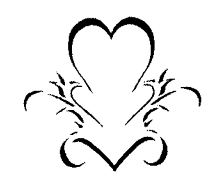
وقال أستاذنا العماد - حفظه الله -:

أَلْجَمْتَني بالهدايا وفي اختيارِكَ ماهِرْ
قَهَرْتَ ما كان عِنْدي مِنَ الضَّغائنِ قاهِرْ
إنَّ الهَدِيَّةَ سِحْرٌ لكنَّهُ جِدُّ ظاهِرْ[1]

سحر:

قال عَبْدُ المَلِكِ بنُ رِفَاعَةَ الفَهْميُّ - رحمه الله -: «الهَدِيَّةُ هُوَ السِّحْرُ الظَّاهِرُ».

«رَوْضَةُ العُقَلاءِ» (ص٣٩٦).



(١) «بلسم الحياة» مخطوط.

خلاصة الزُّهور

فاهم

إنَّ الثَّناءَ الحَسَنَ على الرَّجل بما فيه متى تحقَّقت المَصلحة؛ كتألُّفه، أو تشجيعه، أو اتِّقاء شرِّه ـ سُنَّةٌ مُتَّبعةٌ.

والنَّاظِرُ في كتابِ اللهِ يَجِدُ مِنَ الثَّناءِ الحَسَنِ مِنَ اللهِ ـ سُبْحانَهُ ـ على بَعْضِ عِبادِهِ الصَّالحينَ ـ ما يَمْلأُ الصَّدْرَ والنَّحْرَ:

منها قولُهُ -سُبحانَهُ- في الثَّناءِ على نوح -عليه السلام-: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ (الإسراء: ٣).

وقولُهُ -تعالى- في حقِّ إبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥)﴾ (هود: ٧٥).

وقولُهُ -تعالى- في حقِّ سُليمان -عليه السلام-: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠).

وقولُهُ -تعالى- في حقِّ أيوب -عليه السلام-: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ (ص: ٤٤).

وقولُهُ ـ تعالى ـ في حقِّ نبيِّنا مُحمَّد -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ (القلم: ٤).

وأمَّا السُّنَّةُ فَلَوْ أَلْقَيْنا نَظْرَةً في دَواوينِ السُّنَّةِ وفي كُتُبِ المَناقِبِ، لَرَأَيْنا عَجَبًا، فَقَدْ مَدَحَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- كثيرًا مِنَ الصَّحابةِ[1]، فَمَدَحَ بَعْضَهُمْ بشارةً، وبَعْضَهُمْ لأَجْلِ

(١) جاءَتْ أحاديثُ في النَّهْيِ عَنِ المَدْحِ، كما جاءَتْ أحاديثُ مُصرِّحةٌ بالمَدْحِ، ونَحْنُ نَتْرُكُ المَجالَ لأَهْلِ الرُّسُوخِ في العِلْمِ، لِيَضَعُوا النُّقَطَ على الحُرُوفِ.

يَقُولُ النَّوويُّ -رحمه الله- كما في «شرح مسلم» (ص١٧٢١) ـ قَبْلَ أَنْ يَسُوقَ أحاديثَ النَّهْيِ ليشرَحَها ـ:

«ذكر مَسْلِمٌ في هذا البابِ الأحاديثَ الواردةَ في النَّهْيِ عَنِ المَدْحِ، وقَدْ جاءَتْ أحاديثُ كثيرةٌ في «الصَّحيحين» بالمَدْحِ في الوَجْهِ، قال العُلَماءُ: وطريقةُ الجَمْعِ بَيْنَهَا: أَنَّ النَّهْيَ مَحْمُولٌ على المُجازفةِ في المَدْحِ، والزِّيادةِ في الأَوْصافِ، أَوْ على مَنْ يُخافُ عليه فتنةٌ مِنْ إعجابٍ ونَحْوِهِ إذا سَمِعَ المَدْحَ، وأَمَّا مَنْ لا يُخافُ عليه ذلك لكمالِ تَقْواهُ، ورُسُوخِ عَقْلِهِ ومَعْرِفَتِهِ ـ فلا نَهْيَ في مَدْحِهِ في وَجْهِهِ، إذا لم يَكُنْ فيه مُجازفةٌ، بَلْ إِنْ كان يَحْصُلُ بذلك مصلحةٌ: كنشطِهِ للخَيْرِ، والازديادِ مِنْهُ، أو الدَّوامِ عليه، أو الاقتداءِ بِهِ ـ كان مُسْتَحبًّا، واللهُ أَعْلَمُ». أهـ

الاقتداءِ به، وبَعْضَهُمْ حَثًّا لَهُ على الازدياد مِنَ الخَيْرِ[١]، وبَعْضَهُمْ تألُّفًا لقَلْبِه، وكان مَدْحُهُ - ﷺ - لِبَعْضهِمْ خيرًا مِنْ حُمرِ النَّعَم لَوْ كانتْ لَهُ[٢].

فَمَنْ كان مادحًا أَخَاهُ فَلْيَقتد بالأُسْوَةِ الحَسَنَةِ، ولْيَحْتَسِبْ أَخَاهُ[٣]، ولْيَحْذَر الشَّطَطَ[٤].

وبابُ المَدْح بابٌ عظيمٌ يحتاجُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وخاصَّةً العُلَماءَ والمُربِّين؛ فَرُبَّ مَمْدُوحٍ يَنْتَفعُ بالثَّناءِ الحَسَنِ أَعْظَمَ مِن انتفاعِه بالدِّرْهَم والدِّينار.

قال أبو الطَّيِّب:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها ولا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

وأمَّا في اتِّقاءِ الشَّرِّ، فإنَّ المادِح يَعْمِدُ لِمَحاسِنِ المَمْدُوحِ، ويَنْشُرُها بَيْنَ يَدَيْه، ولا يَخْلُو رَجُلٌ مِنْ خَيْرٍ.

---

(١) جاء في البخاريِّ (١١٢١، ١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩) مِنْ حديث سالم بْن عَبْد الله عَنْ أَبيه قال: كان الرَّجُلُ في حياة النَّبيِّ - ﷺ - إذا رَأَى رُؤْيا قصَّها على رَسُول الله - ﷺ -، فَتمنَّيْتُ أنْ أَرَى رُؤْيا، فأَقُصَّها على رَسُول الله - ﷺ -، وكُنْتُ غُلامًا شابًّا، وكُنْتُ أَنَامُ في المَسْجد على عَهْد رَسُول الله - ﷺ -، فَرَأَيْتُ في النَّوْم كأنَّ مَلَكَيْن أَخَذاني، فَذَهبا بي إلى النَّار، فإذا هي مَطْويَّةٌ كَطَيِّ البِئْر، وإذا لها قَرْنان، وإذا فيها أُناسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ؛ فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بالله مِنَ النَّار، قال: فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ، فقال لي: لَمْ تُرَعْ. فَقَصَصْتُها على حَفْصَةَ، فَقَصَّتْها حَفْصَةُ على رَسُول الله - ﷺ -، فقال: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَوْ كان يُصَلِّي مِنَ اللَّيل». فكان بَعْدُ لا يَنَامُ من اللَّيلِ إلَّا قَليلًا.

(٢) جاء في البُخاريِّ (٩٢٣) عَنْ عَمْرو بْن تَغْلبَ: أنَّ رَسُولَ الله - ﷺ - أُتي بمال، أَوْ بِسَبْي فَقَسَمَهُ، فأعْطى رجالًا وتَرَكَ رجالًا، فَبَلَغَهُ أنَّ الَّذين تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمدَ اللهَ، ثُمَّ أَثْنى عليه، ثمَّ قال: «أمَّا بَعْدُ، فوالله، إنِّي لأُعْطي الرَّجُلَ، وأَدَعُ الرَّجُلَ، والَّذي أَدَعُ أَحَبُّ إِليَّ مِنَ الَّذي أُعْطي، ولكنْ أُعْطي أَقْوامًا لما أَرَى في قُلُوبهِمْ مِنَ الجَزَع والهَلَع، وأَكِلُ أَقْوامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قُلُوبهِمْ مِنَ الغِنَى والخَيْر، فيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلبَ». فوالله، ما أُحبُّ أنَّ لي بكَلمة رَسُول الله - ﷺ - حُمْرَ النَّعَم.

(٣) جاء في البُخاريِّ (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) مِنْ حديث أَبي بَكْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قَال رَسُولُ الله - ﷺ -: «إذا كان أَحَدُكُمْ مادحًا صاحبَهُ - لا مَحالَةَ - فَلْيَقُلْ: أَحْسبُ فُلَانًا، واللهُ حَسيبُهُ، ولا أُزكِّي على الله أَحَدًا، أَحْسبُهُ - إنْ كان يَعْلَمُ ذاك - كذا وكذا». ومعنى: أَحْسبُهُ: أَظُنُّ فيه الخَيْرَ؛ لوجود الظَّاهر المُقتضي لذلك.

(٤) الشَّطَطُ - بالتَّحريك -: مُجاوَزَةُ الحدِّ في كُلِّ شيءٍ.

قال العلامةُ ابنُ حزمٍ - رحمه الله -: «إنَّهُ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ - أي: المَدْحِ - في الإقصارِ عَنِ الشَّرِّ، والتَّزيُّدِ مِنَ الخَيْرِ، وفي أَنْ يَرْغَبَ في ذلك الخُلُقِ المَمْدُوحِ.

ولقد صحَّ عندي: أنَّ بَعْضَ السَّائسينَ للدُّنيا لَقِيَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الأذَى للنَّاسِ، وقَدْ قُلِّدَ بَعْضَ الأَعْمالِ الخبيثةِ، فقابله بالثناء عليه، وبأنَّهُ قَدْ سَمِعَ شُكْرَهُ مُسْتَفِيضًا، ووَصَفَهُ بالجميلِ والرِّفقِ منتشرًا، فكان ذلك سَبَبًا إلى إقصارِ ذلك الفاسقِ عَنْ كثيرٍ مِنْ شَرِّهِ»[1].

ولْيَحْذَرِ المادحُ مِنْ أَنْ يَشُوبَ[2] مَدْحَهُ بشيءٍ مِنَ الكَذِبِ؛ فإنَّ ذلك صِفَةُ أَهْلِ المَلَقِ[3]، بَلْ هُو ذَمٌّ على الحقيقةِ.

قال الزمخشريُّ - رحمه الله -:

«رُبَّ مَوْصُوفٍ بالمَكَارمِ والمَسَاعي[4] وَهُوَ مَعْروفٌ بالمكارهِ والمَسَاوي[5]، ومَنْعُوتٌ بالحِلْمِ الرَّاسي، والعِلْمِ الرَّاسِخِ[6]، وهُوَ مِنْهُما على أَمْيالٍ وفَراسِخَ[7]، حَسْبُكَ بهذا الشَّطَطِ مُسْتَنْزِلًا للسَّخَطِ»[8].

وقال العلامة - ابنُ حزمٍ - - رحمه الله -:

«أَبْلَغُ في ذَمِّكَ مَنْ مَدَحَكَ بما لَيْسَ فِيكَ؛ لأنَّهُ نَبَّهَ على نَقْصِكَ، وأَبْلَغُ في مَدْحِكَ مَنْ ذَمَّكَ بما لَيْسَ فِيكَ؛ لأنَّهُ نَبَّهَ على فَضْلِكَ»[9].

وسَمِعَ ابْنُ الرُّوميِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا، ويُبالغُ في مَدْحِهِ.

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص١٢١).

(٢) الشَّوْبُ: الخَلْطُ، وبابُهُ قال.

(٣) المَلَقُ - بالتَّحريك -: أَنْ تُعطيَ باللِّسانِ ما لَيْسَ في القَلْبِ.

(٤) المساعي: جَمْعُ مَسْعاةٍ، وهي المَكْرُمَةُ والمَعْلاةُ في أنواعِ المَجْدِ والجُودِ.

(٥) المساوي: العيوب.

(٦) الراسخ: البالغ الرُّسُوخِ، وهُوَ الثَّباتُ.

(٧) فراسخ: جَمْعُ فَرْسَخٍ، وهُوَ مِقْياسٌ قديمٌ للمسافةِ، ويَقْصِدُ: أَبعادًا كثيرةً.

(٨) «أطواق الذَّهب» (ص١٨١).

(٩) «الأخلاق والسِّير» (ص١١٤).

فأنشأ يقول:

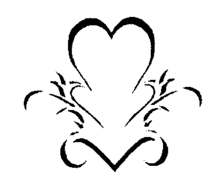
إذا ما وَصَفْتَ امْرَأً لامْرِىءٍ ... فَلا تَغْلُ[2] في وَصْفِهِ واقْصِدِ[3]

فإنَّكَ إنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُو ... نُ فيهِ إلى الأَمَدِ[4] الأَبْعَدِ

فَيَضْؤُلُ[5] مِنْ حَيْثُ عَظَّمتَهُ ... لِفَضْلِ المَغيبِ على المَشْهَدِ[6]

جُمَانٌ:

إذا أَعْيَتِ القُلُوبُ مَفَاتِيحَها، فعالِجْها بالثَّناءِ الحَسَنِ.



(١) الغُلُوُّ: مُجاوزُ الحدِّ، وبابُهُ سَمَا.
(٢) القَصْدُ: ضدُّ الإفراط كالاقْتصاد، وبابُهُ ضَرَبَ.
(٣) الأَمَد بالتَّحريك: الغاية والمُنْتَهَى.
(٤) يَضْؤُلُ: يَحْقَرُ، وبابُهُ ظَرُفَ.
(٥) «أدب الدُّنيا والدين» (ص٣١٧).

أطيب الطيب



إنّ الكلمة الطيّبة لتدلّ على طيبة قائلها، وطهارة معدنه، وأصالة نفسه

﴿ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ (الأعراف: ٥٨).

أَوْصَى اللهُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ عبادَهُ بالقَوْلِ الحَسَنِ، فقال:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الإسراء: ٥٣).

﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة: ٨٣).

ووَفَّقَهُمْ ـ سُبحانَهَ وتعالى ـ للكلام الطَّيِّب، قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (الحج: ٢٤).

وأَمَرَهُمْ بالدَّفْع بالَّتي هي أحْسَنُ، فقال:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت: ٣٤).

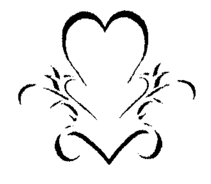
وأَخْبَرَ أنَّ الكَلمةَ الطَّيِّبَةَ تُرْفَعُ إليه مِنْ جُمْلَة العَمَلِ الصَّالح، فقال:

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: ١٠).

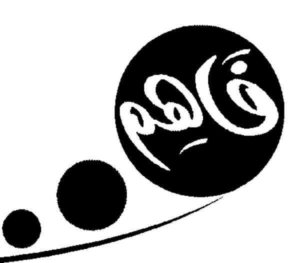
نتيجة:

قال رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ: «والكَلمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ».

(رواه البخاريُّ (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ).



ضجيجُ البَحْر



إنَّ خَفضَ الصَّوْتِ دَليلُ السَّكينةِ والوَقَارِ، وزينةٌ لصاحبه، وما عَبَّرَ الإنسانُ عَنْ طَيْشه بِمثْلِ الحِدَّةِ والغِلْظَةِ والزُّعَاقِ.

مِنْ تَوْجيهِ لُقْمانَ الحكيم لابْنِهِ غَضُّ الصَّوْتِ وتَقْصيرُهُ، قال اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى- على لسانِه: ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ (لقمان: ١٩).

قال ابْنُ سَعْديٍّ -رحمه الله- **في تفسيرها**: « ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أَدَبًا مَعَ النَّاسِ ومَعَ اللهِ، ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ ﴾ أي: أَفْظَعَها وأَبْشَعَها ﴿ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾، فَلَوْ كان في رَفْعِ الصَّوْتِ فائدةٌ ومصلحةٌ، لما اخْتُصَّ بذلك الحِمارُ الَّذي قَدْ عَلِمْتَ خِسَّتَهُ وبَلادَتَهُ»[١].

فتبيَّن لك أنَّ خَفْضَ الصَّوْتِ أَدَبٌ عَزيزٌ، وهُوَ أَدَبُ حَمَلَةِ القُرْآنِ.

قال ابْنُ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه-: «يَنْبَغي لحامِلِ القُرْآنِ أنْ يَكُونَ باكيًا مَحْزُونًا، حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا يَنْبَغي لحامِلِ القُرْآنِ أنْ يَكُونَ جافيًا، ولا غافلًا، ولا صخَّابًا، ولا صيَّاحًا، ولا حديدًا[٢]»[٣].

والنَّاظِرُ إلى البَحْرِ يَجِدُ الصَّخَبَ والضَّجيجَ على الشَّاطِىءِ وعِنْدَ الصُّخُورِ، حَيْثُ الماءُ[٤] ضَحْلٌ، لا جَوَاهِرَ فِيهِ ولا دُرَرَ، ويَجِدُ الهُدُوءَ لَدَى الماءِ الأَعْمَقِ، حَيْثُ نَفائِسُ البَحْرِ وكُنُوزُهُ، وفي بَعْضِ الأَمْثَالِ: «الماءُ الأَعْمَقُ أَهْدَأُ».

---

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص٦٤٩).

(٢) **الحديد**: يعني الشَّديدَ الغَلِيظَ.

(٣) «الفوائد» لابْنِ القَيِّم (ص١٤٤).

(٤) **الضَّحْلِ** - بالفَتْحِ -: الماءُ القليلُ على الأرضِ لا عُمْقَ لَهُ، والجَمْعُ أَضْحالٌ، وضُحُولٌ، وضِحالٌ.

قال أستاذنا عبدُ الكريمِ العمادُ -حفظه الله- :

أَرَى البَحْرَ حَيْثُ العُمْقُ والـدُّرُّ هادِئًا ... ويُلْقَى ضَجيجُ البَحْرِ عِنْدَ السَّواحِلِ

فكُنْ هادئًا طَبْعًا، تَكُنْ ذا مَهَابَةٍ ... ولا تَرْفَعَنَّ الصَّوْتَ عِنْدَ التَّجادُلِ

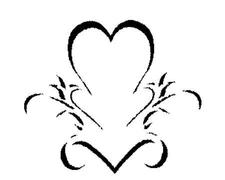
فَصَوْتُكَ لا يُعْطِيكَ قُوَّةَ حُجَّةٍ ... وغَضُّكَ لا يُرْدِيكَ[1] بَيْنَ الأَرَاذِلِ

فَعَقْلُ الفَتَى عُنْوانُهُ في لِسَانِهِ ... وَعِلْمُ الفَتَى يُعْلِيهِ عَنْ كُلِّ سَافِلِ[2]

عسجد :

قال ابنُ دُرَيدٍ -رحمه الله-: «لَوْ كان رَفْعُ الصَّوْتِ خَيْرًا، ما جَعَلَهُ اللهُ لِلْحَمِيرِ».

(«زاد المسير» لابْنِ الجَوْزِيِّ (٦/ ٣٢٣).



(١) لا يُرْدِيكَ: لا يُهْلِكُكَ.

(٢) «بلسم الحياة» مخطوط.

رأس الحكمة



إنّ الصَّمتَ حكمةٌ، وقليلٌ فاعلُه،
يُكسِبُ صاحبَهُ المهابةَ والوَقارَ،
ويَكسُو حديثَهُ ثوبَ البهاءِ والجَلالِ،
ويُحلِّيه بحليةِ الاعتبارِ.

يُخْبِرُنا اللهُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ أنَّ كثيرًا ممَّا يَتناجَى بِهِ النَّاسُ مَتى عَرِيَ مِنَ الفائدةِ فلا خَيْرَ فيه.

قال -تعالى- : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ (النساء: ١١٤).

وإلى ذلك أرشدَنا النبيُّ - ﷺ - كما في «الصَّحيحَيْن»[1] مِنْ حَديثِ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**مَنْ كان يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ**».

قال النوويُّ - رحمه الله -: «اعْلَمْ أنَّهُ يَنْبغي لكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لسانَهُ عَنْ جَميعِ الكلامِ، إلَّا كلامًا ظَهَرَتْ فيه المصلحةُ، ومَتَى اسْتَوَى الكَلامُ المُباحُ وتركُهُ في المصلحةِ، فالسُّنَّةُ الإمساكُ عَنْهُ؛ لأنَّهُ قَدْ يَجُرُّ الكَلامُ المُباحُ إلى حَرامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، وذلك كثيرٌ في العادةِ، والسَّلامةُ لا يَعْدِلُها شيْءٌ»[2].

وقال الزَّمَخْشَريُّ -غفر الله له-: «خَيْرُ اللِّسانِ المَخْزُونُ[3]، وخيرُ الكلامِ المَوْزُونُ[4]، فحدِّثْ إذا حدَّثْتَ بأفْضَلَ مِنَ الصَّمْتِ، وزَيِّنْ حَديثَكَ بالوَقارِ وحُسْنِ السَّمْتِ،

(١) رواه البخاريُّ (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).
(٢) «رياض الصَّالحين» (ص٣٩١).
(٣) **المخزون**: المحفوظُ عَنِ التكلُّمِ بما لا يَليقُ.
(٤) **المَوْزُونُ**: المُنْتَقى المُحْكَمُ.

وأَرْسِلْ حَدْسَكَ[١] لكلماتِكَ في اتِّساق[٢] أنابيب السَّمْهَرِيِّ[٣]، ولا تَقْرَعْ في إرسالها ظنابيبَ[٤] المَهْرِيِّ[٥]، إنَّ الطَّيْشَ في الكَلام يُتَرْجِمُ عَنْ خِفَّةِ الأَحْلَام[٦]، وما دَخَلَ الرِّفْقُ شَيْئًا إلَّا زَانَهُ[٧]، وما زَانَ المُتكلِّمَ إلَّا الرَّزانةُ[٨]»[٩].

وقال بعضُ البُلغاء: «الْزَم الصَّمْتَ؛ فإنَّهُ يُكْسِبُكَ صَفْوَ المَحَبةِ، ويُؤْمِنُكَ سُوءَ المَغَبَّةِ[١٠]، ويُلْبِسُكَ ثَوْبَ الوَقَار، ويَكْفِيكَ مَئُونةَ[١١] الاعتذار»[١٢].

وقال بعضُ الفُصحاء: «اعْقِلْ لسانَكَ إلَّا عَنْ حَقٍّ تُوَضِّحُهُ، أو باطلٍ تُدْحِضُهُ، أَوْ حِكْمةٍ تَنْشُرُها، أو نعمة تَذْكُرُها»[١٣].

وقال أبو الفتح البُستيّ:

تَكَلَّمْ وسَدِّدْ ما اسْتَطَعْتَ؛ فإنَّما ... كَلامُكَ حَيٌّ، والسُّكُوتُ جَمَادُ

فإنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُه ... فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدادِ سَدَادُ[١٤]

---

(١) **الحَدْس بالفَتْح**: التَّخمين والتَّوَهُّمُ في معاني الكلام والأُمُور.

(٢) **اتِّساق**: انتظام.

(٣) **السَّمْهَريّ**: الرُّمْحُ الصُّلْبُ، والمَنْسُوبُ إلى سَمْهَرٍ زَوْجِ رُدَيْنَةَ وكانا مُثَقِّفَيْن للرِّماح، أَوْ إلى قَرْيةٍ بالحَبَشَة.

(٤) **ظنابيب**: جَمْعُ ظُنْبُوب ـ بزِنَة عُصْفُور ـ، وهُوَ حَرْفُ العَظْمِ اليابسُ مِنَ السَّاقِ، والرَّجُلُ يَقْرَعُ ظُنْبُوبَ بَعيرهِ إذا أَنَاخَهُ؛ ليركبَهُ رُكُوبَ المُسْرِعِ إلى الشَّيْءِ.

(٥) **المَهْرِيّ**: البعير المَنْسُوب إلى مَهْرَة اسْم قبيلة يمانية، تَقَعُ جَنُوبَ الجزيرة العربيَّة، بَيْنَ حَضْرَمَوْتَ وعُمَان.

(٦) **الأحلام**: العقول، واحدُها حِلْمٌ ـ بالكَسْر ـ، ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على حُلُوم.

(٧) **زانه**: زيَّنه وجَمَّلهُ، وبابُهُ باع.

(٨) **الرَّزانة**: ضدُّ الخفَّة.

(٩) «أطواق الذَّهب» (ص١٦٢).

(١٠) **المغبَّة**: عاقبة الشَّيْء.

(١١) **المَئُونة**: الثِّقَلُ.

(١٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٧).

(١٣) المرجع السابق (ص٢٧٧).

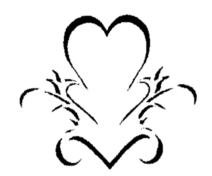
(١٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٦).

وَمِن أجمَلِ ما قِيلَ في الصَمت قَولُ الأعْوَرِ الشَّنِّيّ:

وكائِنْ[١] تَرَى مِنْ صامتٍ لَكَ مُعْجِب زيَـادَتُـهُ أَوْ نَـقْـصُـهُ في التَّكَلُّم
لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ، ونِصْفٌ فُـؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إلَّا صُـورةُ اللَّحْمِ والـدمِ[٢]

ياقوت:

قال وهبُ بنُ مُنَبِّه - رحمه الله -: «أَجْمَعَتِ الحُكَماءُ أنَّ رَأْسَ الحِكْمَةِ الصَّمْتُ».
(السَّمْتُ في الصَّمْتِ) للسُّيوطيِّ (ص٢٤).



(١) كائِنْ: لُغَةٌ في كَأَيِّنْ الَّتي بمنزلةِ كَمْ الخبريَّةِ الدَّالَّةِ على تكثيرِ المَعْدُودِ.
(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٦).

فُضول المنطق



إنّ فضول الكلام مضلّة للفهم، مكسبة للوهم؛ لأنّ مَنْ قلّ كلامُه كثُرَ صوابُه، ومَنْ كثُرَ كلامُه فصوابُه نزْرٌ في ظلمات بعضها فوق بعض.

فُضُولُ الكَلام ممَّا يُزْري بصاحبِه، ويُكْسِبُهُ النَّقْصَ؛ لأنَّ فُضَلاءَ النَّاسِ يَكْرَهُونَ مَنْ هذا حالُهُ، وتَلْعَنُهُ قُلُوبُهُمْ[٣]، ومَنْ مِنَّا يَرْضَى لِنَفْسِه بذلك؟.

والنبيُّ -ﷺ- يقولُ: «**وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ، وأَبْعَدَكُمْ منِّي في الآخرةِ - أَسْوَؤُكُمْ أَخْلاقًا: الثَّرْثارُونَ[٤]، المُتَفَيْهِقُونَ[٥]، المُتَشَدِّقُونَ[٦]**»[٧].

قال الماوَرْديّ -رحمه الله-: «قال أَبو عُثْمانَ الجاحظُ: للكلام غايةٌ، ولِنَشاطِ السَّامعينَ نهايةٌ، وما فَضَلَ عَنْ مِقْدارِ الاحتمالِ، ودَعَا إلى الاسْتِثْقالِ والمَلالِ - فذلك الفاضِلُ هُوَ الهَذَرُ[٨].

---

(١) **فُضُول**: جَمْعُ فَضْلٍ - بالفَتْحِ -، وهُوَ ما زاد عَن الحاجةِ.

(٢) **النَّزْر** - بالفَتْحِ -: القَليل.

(٣) **تَلْعَنُهُ قُلُوبُهُمْ** أَيْ: تُبْغِضُهُ.

(٤) **الثَّرْثار**: هُوَ كَثيرُ الكلام تَكَلُّفًا فيما لا فائدةَ فيه.

(٥) **المُتَفَيْهِق**: أَصْلُهُ مِنَ الفَهْق، وهُوَ الامْتلاءُ، وهُوَ الَّذي يَمْلأُ فَمَهُ بالكلام، ويتوسَّعُ فيه، ويُغْرِبُ به تكبُّرًا وارتفاعًا، وإظهارًا للفضيلة على غَيْرِه.

(٦) **المُتشدِّق**: المُتطاولُ على النَّاس بكلامه، المتكلِّم بملْءِ فيه تفصُّحًا وتعظيمًا لكلامه.

(٧) (حسن) أخرجه أحمدُ (٤/ ١٩٣)، والتِّرمذيُّ (٢٠١٨) عن جابرٍ -رضي الله عنه-، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٧٩١).

(٨) **الهَذَرُ** - بفتحتَيْن -: سَقَطُ الكلام.

وصَدَقَ أَبو عُثْمانَ؛ لأنَّ الإكثارَ منْهُ ـ وإنْ كان صَوابًا ـ يُمِلُّ السَّامعَ، ويُكِلُّ الخاطِرَ[1]، وهُوَ صادرٌ عَنْ إعْجابٍ بِهِ، لَوْلاهُ قَصَرَ عَنْهُ، ومَنْ أُعْجِبَ بكلامِهِ اسْتَرْسَلَ فيهِ، والمُسْتَرْسِلُ في الكلامِ كَثيرُ الزَّلَلِ، دَائمُ العِثَارِ»[2].

وَقيلَ في مَنْثُورِ الحِكَمِ: «إذا تَمَّ العَقْلُ، نَقَصَ الكَلَامُ»[3].

وقال بَعْضُ البُلَغاءِ: «عِيٌّ[4] تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ؛ فاقْتَصِرْ مِنَ الكَلامِ على ما يُقِيمُ حُجَّتَكَ، ويَبْلُغُ حاجَتَكَ، وإيَّاكَ وفُضُولَهُ؛ فإنَّهُ يُزِلُّ القَدَمَ، ويُورِثُ النَّدَمَ»[5].

وقال القاسميُّ ـ رحمه الله ـ: «إيَّاكَ وفُضُولَ الكَلامِ؛ فإنَّهُ يُظْهِرُ مِنْ عُيُوبِكَ ما بَطَنَ، ويُحَرِّكُ مِنْ عَدُوِّكَ ما سَكَنَ، فكلامُ الإنسانِ بَيَانُ فَضْلِهِ، وتُرْجُمانُ عَقْلِهِ؛ فاقْصُرْهُ على الجَميلِ، واقْتَصِرْ مِنْهُ على القَليلِ»[6].

وقال بَعْضُ الشُّعَراءِ:

إنَّ الكَلامَ يَغُرُّ القَوْمَ جِلْوَتُهُ[7] حَتَّى يَلِجَ[8] بِهِ عِيٌّ وإكْثَارُ[9]

وقال ابنُ بلالٍ الأنصاريُّ:

وَلَنْ يَهْلِكَ الإنسانُ إلَّا إذا أَتَى مِنَ الأَمْرِ ما لَمْ يَرْضَهُ نُصَحَاؤُهُ

فَأَقْلِلْ إذا ما قُلْتَ قَوْلًا؛ فإنَّهُ إذا قَلَّ قَوْلُ المَرْءِ قَلَّ خَطَاؤُهُ[10]

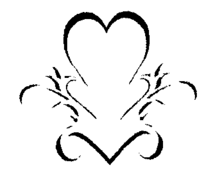
---

(١) يُكِلُّ الخاطِرَ: يُتْعِبُهُ ويُعْيِيهِ.
(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٩).
(٣) المرجع السَّابق (ص٢٧٩).
(٤) العِيُّ ـ بالكَسْرِ ـ: الحَصَرُ وثِقَلُ اللِّسانِ.
(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٩ ـ ٢٨٠).
(٦) «جوامع الأدَب والأخلاق» (ص٦).
(٧) جَلْوَةُ الشَّيْءِ ـ بالتَّثْليث ـ: عَرْضُهُ مَجْلُوًّا مَكْشُوفًا.
(٨) يَلج: يَدْخُل، وبابُهُ جَلَسَ، ولَجَةَ ـ أيضًا ـ.
(٩) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٠).
(١٠) «رَوْضَةُ العُقلاء» (ص٧٣).

جوهرة:

قال عَطاءُ بنُ أبي رَباحٍ - رحمه الله -: «بِتَرْكِ الفُضُولِ تكْمُلُ العُقُولُ».

(بَهْجة المجالسِ) لابْنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٦١).



حُسنُ الخلق



إنَّ مَنْ رُزِقَ الأخلاقَ الحَسَنةَ
تَرأسَ وساد، وأحَبَّهُ
العِبادُ، وفتحَتْ لَهُ القُلوبُ.

حُسْنُ الخُلُق شيْءٌ هَيِّنٌ: وَجْهٌ طَلْقٌ، وكَلامٌ لَيِّنٌ، ومُعاملةٌ بالحُسْنَى[1].

عَامِلِ النَّاسَ بِخُلُقٍ رَقيقْ   وَالْقَ مَنْ تَلْقَى بِوَجْهٍ طَليقْ
فَإذَا أَنْتَ جَميلُ الثَّناءِ   وإذا أَنْتَ كثيرُ الصَّديقْ

وَمَنْ جَهِلَ مَعْرِفَتَهُ، فَلْيَقْتَدِ بالأسْوَةِ الحَسَنةِ، والرَّحْمةِ المُهْدَاةِ في أقوالِه، وأفعالِه، وأحْوالِه.

قال ابنُ حَزمٍ - رحمه الله -: «مَنْ أَرَادَ خَيْرَ الدُّنْيا والآخِرَة، وعَدْلَ السِّيرة، والاحْتوَاءَ على مَحَاسِنِ الأخلاقِ كُلِّها، واستحقاقَ الفضائِلِ بأَسْرِها - فَلْيَقْتَدِ بمحمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم -، ولْيَسْتَعْمِلْ أخلاقَهُ وسَيرَهُ ما أمْكَنَهُ، أعانَنَا اللهُ على الاتِّساءِ به بمنِّه وكَرَمِه»[2].

وقال ابنُ القيم - رحمه الله -: «جَمَعَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - بَيْنَ تَقْوَى اللهِ وحُسْنِ الخُلُق؛ لأنَّ تَقْوَى اللهِ تُصْلِحُ ما بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ ربِّه، وحُسْنَ الخُلُقِ يُصْلِحُ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ خَلْقِه، فَتَقْوَى اللهِ تُوجِبُ لَهُ مَحَبَّةَ اللهِ، وحُسْنُ الخُلُقِ يَدْعُو النَّاسَ إلى محبَّتِه»[3].

---

(١) انظر «الأخلاق بَيْنَ الطَّبْعِ والتَّطَبُّع» للمؤلِّف، ففيهِ بَيَانُ ما أُجْمِلَ ها هُنا، وَفَّق اللهُ الجميعَ للعِلْمِ النَّافع، والعَمَلِ الصَّالح.
(٢) «الأخلاق والسِّيَر» (ص٩١).
(٣) «الفوائد» (ص٧٥).

قلت: ما رُزِقَ أَحَدٌ ـ بَعْدَ تَقْوَى اللهِ ـ خيرًا مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ؛ فإنَّ «في سَعَةِ الأَخْلَاقِ كُنُوزَ الأَرْزَاقِ»، ولله دَرُّ حافظ إبراهيم حين قال:

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً[1] مَحْمُودَةً ... فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ
فَالنَّاسُ هذا حَظُّهُ مَالٌ، وذا ... عِلْمٌ، وذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ
والمَالُ إنْ لَمْ تَدَّخِرْهُ مُحَصَّنًا ... بالعِلْمِ، كان نهايةَ الإِمْلَاقِ[2]
والعِلْمُ إنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ[3] ... تُعْلِيهِ، كان مَطِيَّةَ الإِخْفَاقِ
لا تَحْسَبَنَّ العِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ ... ما لَمْ يُتَوَّجْ رَبُّهُ[4] بِخَلَاقِ[5].[6]

مرجان:

قال الماوردي ـ رحمه الله ـ:

«إذا حَسُنَتْ أَخْلَاقُ الإنسان، كَثُرَ مُصَافُوهُ، وقَلَّ مُعَادُوهُ؛ فَتَسَهَّلَتْ عليه الأُمُورُ الصِّعَابُ، ولانَتْ لَهُ القُلُوبُ الغِضَابُ».

(أدب الدُّنيا والدِّين) (ص٢٤٣).



(١) **الخليقة**: الخُلُق، والجمعُ خلائق.
(٢) **الإملاق**: الفَقْرُ، يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ: إذا افْتَقَرَ.
(٣) **الشمائل**: الأخلاق، مُفْرها شِمَالٌ ـ بالكَسْر ـ.
(٤) **رَبُّهُ**: صاحِبُهُ، والجَمْعُ أَرْبَابٌ.
(٥) **بخَلَاق** ـ بفتح الخاء ـ أي: بنصيب مِنَ الخَيْرِ والصَّلاحِ ومَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.
(٦) «جواهر الأدب» لأحمدَ الهاشميِّ (ص٤٩٥).

حُسْنُ السَّمْت



إنَّ حُسْنَ السَّمْت يُورِثُ صاحبَه
فاهم الوَجَاهَةَ والمَنْزِلَةَ في قُلوبِ الخَلْق،
كما يُحَلِّيه بِحِلْيَةِ الوَقار.

حُسْنُ السَّمْت: هُوَ المَظْهَرُ الخارجيُّ للإنسانِ: مِنْ طريقِ الحَدِيثِ والصَّمْتِ، والحركةِ والسُّكُونِ، والدُّخُولِ والخُرُوجِ، والسِّيرةِ العَمَلِيَّةِ في النَّاسِ، بحَيْثُ يَسْتطيعُ مَنْ يَراهُ أوْ يَسْمَعُهُ أنْ يَنْسُبَهُ إلى أَهْلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ، والدِّيانةِ والفَلَاحِ[1].

وهُوَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزاءِ النُّبُوَّةِ.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: **«إنَّ الهَدْيَ الصَّالحَ[2]، والسَّمْتَ الصَّالحَ[3]، والاقْتِصَادَ[4] - جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»**[5].

ومَعْنَى الحَدِيث: أنَّ هذهِ الخِلَالَ مِنْ شمائِلِ الأنْبياءِ، ومِنْ جُمْلَةِ خِصَالِهِمْ، وأنَّها جُزْءٌ مَعْلُومٌ مِنْ أَجْزاءِ أَفْعَالِهِمْ[6].

فتبيَّن لك أنَّ السَّمْتَ الحَسَنَ هُوَ المَظْهَرُ الخارجيُّ للإنسانِ؛ فعلى المَرْءِ أنْ تَكُونَ لَهُ

---

(١) «نَضْرَةُ النَّعيم» (٥/ ١٥٨٨).

(٢) **الهَدْي:** السِّيرة والطَّريقة.

(٣) **السَّمْتُ:** حُسْن المَظْهَر في أَمْر الدِّين.

(٤) **الاقتصاد:** التَّوسُّط في كُلِّ شيءٍ يُحْمَدُ فيه التَّوسُّطُ.

(٥) حسن: أخرجه أحمدُ (١/ ٢٩٦)، وأبو داوُدَ - واللَّفْظُ لَهُ - (٤٧٧٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٦٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٩٩٣).

(٦) «الآداب الشَّرْعيَّة» لابْنِ مُفْلِحٍ (٢/ ٤٢). انظر «التاج المفقود» للمؤلِّف، ففيه تَفْصيلٌ وبَيَانٌ لهذا البابِ.

عنايةٌ خاصَّةٌ بمَظْهَرِه؛ فإنَّ ذلك مِنْ أَسْبَابِ مَيْلِ القُلُوبِ إليه، ولَوْ تَحَلَّى به غَيْرُ أَهْلِه[١]، كما قِيلَ: «الحِلْيَةُ في الظَّاهِرِ تَدُلُّ على مَيْلِ البَاطِنِ».

ومِمَّا يَدُلُّ على أنَّ حُسْنَ المَظْهَرِ مِنْ أَسْبَابِ مَيْلِ القُلُوبِ ما رَوَاهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ - رضي الله عنه - قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ الله - صلى الله عليه وسلم - ذاتَ يَوْمٍ، إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إلى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -»[٢].

فالحكمةُ مِن مجيءِ جبريل - عليه السلام - بهذه الهيئة الحسنة: أَنْ يَعْظُمَ اتِّجاهُهُمْ إليه، وإجلالُهُمْ لَهُ، وإصغاؤُهُمْ لما يَقُولُ.

حَسِّنْ ثِيَابَكَ ما اسْتَطَعْتَ؛ فإنَّها ... زَيْنُ الرِّجالِ بها تُعَزُّ وتُكْرَمُ
وَدَعِ التَّخشينَ في الثِّيابِ تواضُعًا ... فاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّ وتَكْتُمُ
فَجَمِيلُ ثَوْبِكَ لا يَضُرُّكَ بَعْدَما ... تَخْشَى الإلهَ، وتتَّقي ما يَحْرُمُ
ورَثاثُ ثَوْبِكَ لا يَزِيدُكَ رِفْعَةً ... عِنْدَ الإلهِ وأَنْتَ عَبْدٌ مُجْرِمُ[٣]

وَلْيَلْبَسِ المَرْءُ ما اعْتَادَهُ أَهْلُ بَلْدَتِه، وخاصَّةً أَهْلَ العِلْمِ والفَضْلِ والدِّينِ، ولا عِبْرَةَ بما دُونَهُمْ، ولِلْمُعْسِرِ قَدَرُهُ، ولِلْمُوسِرِ قَدَرُهُ، ولا يَتْرُكِ العِمامَةَ[٤]؛ فإنَّ «هَدْيَ السَّلَفِ

---

(١) **قال ابْنُ عقيل في «الفنون»** (١/ ٣١٦): «مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ لَهُ سَمْتٌ، وعَلَيه مَسْحَةٌ مِنْ تَواضُعٍ وَذُلٍّ، فَمَتى خَاصَمَهُ مَنْ عليه سِيما الجَلادة، كان النَّاسُ كُلُّهُمْ مَعَ صاحبِ السَّمْتِ؛ لما يَغْلِبُ على ظَنِّهِمْ مِنْ ضَعْفِ ذلك السميتِ ووقارِه، وفَوْرَةِ ذلك الجَلْدِ وتَسَلُّطِه، فكان مُخَاصِمُ ذلك السميتِ مُعِينًا على نَفْسِه، حَيْثُ حَمَلَ النَّاسَ بخُصُومَتِه على ظَهْرِه، ومَنْ خاصَمَ النَّاسَ خُصِمَ».

(٢) رواه مسلم (٨).

(٣) «حاشية البيجرمي في فقه الشَّافعيّ» (١/ ٥٥).

(٤) **قال الألبانيُّ - رحمه الله - في «تمام المِنَّة»** (ص١٦٤): «لَيْسَ مِنَ الهَيْئَةِ الحَسَنةِ في عُرْفِ السَّلَفِ اعْتيادُ حَسْرِ الرأسِ، والسَّيرُ كذلك في الطُّرُقاتِ، والدُّخُولُ كذلك في أماكنِ العِبَاداتِ، بَلْ هذه عادةٌ أَجْنَبِيَّةٌ، تسرَّبَتْ إلى كثيرٍ مِنَ البلادِ الإسلاميَّةِ حينما دَخَلَها الكُفَّارُ، وجَلَبُوا إليها عاداتِهِمُ الفاسدةَ، فقلَّدهُمُ المُسلمون فيها، فأضاعوا بها - وبأَمْثَالِها مِنَ التَّقاليدِ - شخْصيَّتَهُمُ الإسلاميَّةَ».

الصَّالح الحِرْصُ على غِطَاءِ الرَّأْسِ، ولَمْ يَثْبُتْ عَنْ واحد مِنْهُمْ أَنَّهُ كان يَسِيرُ حاسرًا»[١].

ولْيَحْرِصْ على الطِّيب؛ فإنَّهُ مِنْ أَحَبِّ الأشياءِ إلى الأُسْوَةِ الحَسَنَةِ في دَلِّه[٢] وهَدْيِهِ وسَمْتِهِ، وفي شَأْنِه كُلِّه.

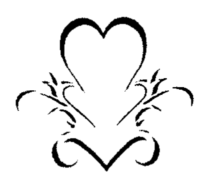
«حُبِّبَ إليَّ مِنَ دُنْيَاكُمْ: النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاة»[٣].

وكان - ﷺ -: «**لا يَرُدُّ الطِّيبَ**»[٤]. ونَهَى عَنْ رَدِّه: «مَنْ عُرِضَ عليه رَيْحَانٌ، فلا يَرُدَّهُ؛ فإنَّهُ خَفيفُ المَحْمَلِ، طَيِّبُ الرِّيح»[٥].

لَوْ كُنْتُ أَحملُ جَمْرًا حِينَ زُرْتُكُمُ ... لَمْ يُنْكِرِ الكَلْبُ أنِّي صاحِبُ الدَّارِ
لَكِنْ أَتَيْتُ وَرِيحُ المِسْكِ يَقْدُمني ... والعَنْبَرُ النَّدُّ مَشْبُوبٌ[٦] على النَّارِ

ثمرة:

قال ابنُ الجوزي - رحمه الله -: «قَدْ كان جماعةٌ مِنَ السَّلَفِ يَقْصِدُونَ العَبْدَ الصَّالحَ للنَّظَرِ إلى سَمْتِهِ وهَدْيِه، لا لاقْتِبَاسِ عِلْمِهِ؛ وذلك أَنَّ ثَمَرَةَ عِلْمِهِ هَدْيُهُ وسَمْتُهُ». (صَيْدُ الخاطر) (ص٢١٦).



(١) «المروءة وخوارمها» لمشهور بْن حسن (ص١٤٥)

(٢) **الدَّل** - بالفَتْح -: قريبُ المعنى مِنَ الهَدْي، وهُما مِنَ السَّكينةِ والوَقَارِ في الهَيْئة، والمنظرِ، والشمائلِ، وغَيْرِ ذلك.

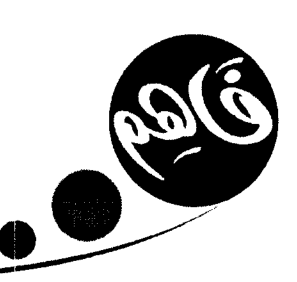
(٣) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٣/ ١٢٨) عن أنس، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

(٤) رواه البخاريُّ (٢٥٨٢) عَنْ أَنَس - رضي الله عنه -.

(٥) رواه مسلم (٢٢٥٣) عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -.

(٦) مَشْبُوب: مُوقَدٌ، وبابُ شَبَّ رَدَّ، وشُبُوبًا - أيضًا - بالضَّمِّ -.

حُسْنُ الاستماع



إنَّ حُسْنَ الاستماع لِمَنْ يُحَدِّثُكَ بالأُذُن، والإقبال بالعَيْن، وحُضور القَلْب، وإشراقة الوَجْه ـ يُقَرِّرُ لكَ فِي نَفْسه مِنَ المهابة والفضل فَوْقَ المنزلة الَّتي تَحُطُّ إليها نَفْسكَ.

أَلِبَّاءُ[١] الرِّجالِ يَقْضُونَ هذا الحقَّ، تَجِدُ أَحَدَهُمْ يُصْغِي لِمُحدِّثِه إصغاءَ مَنْ لا يَعْرِفُ الحديثَ، ولَمْ يَمُرَّ عليه، ولم يَخْطُرْ على بالِه، وإنْ كان أَعْلَمَ بِهِ مِنْ قائله.

قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

«لجليسي عليَّ ثَلاثٌ: أَنْ أَرْمِيَهُ بطَرْفي إذا أَقْبَلَ، وأَنْ أُوَسِّعَ لَهُ في المَجْلِسِ إذا جَلَسَ، وأَنْ أُصْغِيَ إليه إذا تحدَّثَ»[٢].

إنْ أَنْتَ جالَسْتَ الرِّجالَ ذَوِي النُّهَى[٣] ... فَاجْلِسْ إليهِمْ بالكمالِ مُؤَدَّبا

واسْمَعْ حَدِيثَهُمُ إذا هُمْ حَدَّثُوا ... واجْعَلْ حَدِيثَكَ -إنْ نَطَقْتَ- مُهَذَّبا[٤]

ومِنْ دُرَرِ ابنِ المُقَفَّع:

«تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ، كما تتعلَّمُ حُسْنَ الكَلامِ، وَمِنْ حُسْنِ الاستماعِ: إمهالُ المُتكلِّم حتَّى يَنْقَضِيَ حديثُهُ، وقلَّةُ التَّلَفُّتِ إلى الجوابِ، والإقْبالُ بالوَجْهِ والنَّظَرِ إلى المُتكلِّمِ، والوَعْيُ لِمَا يَقُولُ»[٥].

---

(١) أَلِبَّاء: جَمْعُ لَبِيب، وهو العاقلُ الحازمُ.

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٣٠٦).

(٣) النُّهَى: جَمْعُ نُهْيَة ـ بالضَّمِّ ـ، وهي العَقْلُ، سُمِّيَ العَقْلُ نُهْيَةً؛ لأَنَّهُ يَنْهى صاحبَهُ عَنْ مُقارَفَةِ كُلِّ قَبيح.

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٠٧).

(٥) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٢٩ ـ ١٣٠).

وقال: «وإذا رَأَيْتَ رَجُلًا يُحَدِّثُ حَدِيثًا قَدْ عَلِمْتَهُ، أَوْ يُخْبِرُ خَبَرًا سَمِعْتَهُ ـ فلا تُشَارِكْهُ فِيهِ، ولا تَتَعَقَّبْهُ عليهِ؛ حِرْصًا على أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَهُ؛ فإنَّ في ذلك خِفَّةً وسوءَ أَدَبٍ وسُخْفًا»[1].

وقال ابنُ عَبْدِ البر ـ رحمه الله ـ:

«مِنْ سُوءِ الأَدَبِ في المُجالسةِ: أَنْ تَقْطَعَ على جَليسِكَ حَدِيثَهُ، أو أن تَبْدُرَهُ[2] إلى تَمَامِ ما ابْتَدَأَ به مِنْهُ، خَبَرًا كانَ أو شِعْرًا، تُتِمُّ لَهُ البَيْتَ الَّذي بَدَأَ به؛ تُرِيهِ أَنَّكَ أَحْفَظُ لَهُ مِنْهُ، فهذا غايَةٌ في سُوءِ المُجالسةِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تُصْغِيَ إليهِ كأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْهُ ـ قَطُّ ـ إِلَّا مِنْهُ»[3].

وَمِنْ أَدَبِ الاستماعِ ـ أيضًا ـ التَّعزيزُ والتَّشجيعُ، وهُوَ الثَّناءُ على المُتكلِّمِ، وإبداءُ الإعجابِ والاستحسانِ، فإنْ وُجِدَ ما يَجِبُ التَّنبيهُ إليه، فبأسلوبِ (أَحْسَنْتَ ولكنْ)، ولا سيَّما مَعَ الصِّغارِ أَوِ المُبتدئينَ في شِعْرٍ، أَوْ خَطَابةٍ، أو مقالةٍ، أَوْ نَحْوِهِ.

قال أستاذنا العماد:

إنْ لَمْ يَبِنْ لي مِنْكَ فَضْلُكْ ... أَوْ لَمْ يَمُرَّ عَلَيَّ أَصْلُكْ
فَلَقَدْ عَرَفْتُكَ يا فَتَى ... حُسْنُ استماعِكَ لي يُجِلُّكْ[4]

وقال ـ أيضًا ـ:[5]

حَسْنُ استماعِكَ وانْتِبا ... هِكَ زاد في قَلْبي مَهابَهْ
ولَقَدْ حَفِظْتُ مَقالتي ... لكنْ رَجَعْتُ إلى الكِتَابَهْ
خَوْفًا مِنَ الزَّلَلِ المُشِيـ ... ـنِ أَمامَ أصحابِ النَّجابَهْ

---

(١) المرجع السابق (ص١٣٦).
(٢) تَبْدُره: تعاجله، وبابُهُ دَخَلَ.
(٣) «بهجة المجالس» (١/ ٣٦).
(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.
(٥) المرجع السابق.

سحر:

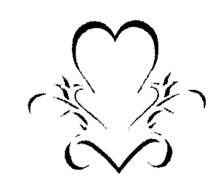
قال أبو تمام الطائي -رحمه الله-:

مَـنْ لي بـإنـسـانٍ إذا أَغْـضَـبْـتُـهُ ... وجَهلْـتُ، كان الحِلْـمُ رَدَّ جَوَابِـهِ

جَلَسْتُ إلى الـمُدَام[1]شَرِبْتُ مِنْ ... أَخْـلاقِـه، وسَـكِـرْتُ مِـنْ آدابِـه

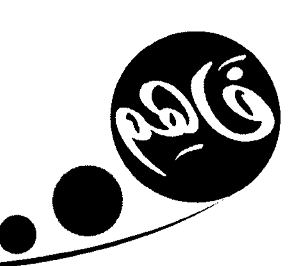
وتَـرَاهُ يُصْغِـي للحَدِيـثِ بِسَـمْعِهِ ... وبِـقَـلْـبِـهِ، ولَـعَـلَّـهُ أَدْرَى بِـهِ؟!

«طرائق الحكمة» (١/ ٧٣).



(١) المُدام -بزنة الغُراب-: الخَمْر.

جُنَّة (١)



إنَّ مَنْ أعطى الرِّفقَ، فقدْ أُعطيَ الخَيْرَ كُلَّهُ، والراحةَ بتمامها، وحُسْنَ حالهُ في دُنياهُ وآخرَتهِ، وَمَنْ حُرمَ الرِّفقَ، كان سبيلاً إلى كُلِّ بليَّةٍ وشَرٍّ. الرِّفقُ هُوَ الدَّفعُ بالَّتي هي أَحْسَنُ.

قال اللهُ -سُبْحانَهُ وتعالى- : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت: ٣٤).

قال ابنُ سَعْديٍّ - رحمه الله - في قوله -تعالى- : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ :

«أَيْ: فإذا أَسَاءَ إليك مُسيءٌ مِنَ الخَلْقِ، خُصُوصًا مَنْ لَهُ حَقٌّ كبيرٌ عليك: كالأقارب، والأصحاب، ونَحْوهِمْ، إساءةً بالقَوْلِ أَوْ بالفِعْلِ ـ فقابلْهُ بالإحسانِ إليه، فإنْ قَطَعَكَ فَصِلْهُ، وإنْ ظَلَمَكَ فاعْفُ عَنْهُ، وعامِلْهُ بالقَوْلِ اللَّيِّنِ، وإنْ هَجَرَكَ وتَرَكَ خِطَابَكَ، فطيِّبْ لَهُ الكلامَ، وابْذُلْ لَهُ السَّلامَ، فإذا قابلتَ الإساءةَ بالإحسانِ، حصل فائدةٌ عظيمةٌ»(٢).

والرِّفْقُ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ، حتَّى مَعَ أَكْفَرِ خَلْقِ اللهِ: كفِرْعَونَ، أَلَا تَسْمَعُ إلى قَوْلِ اللهِ ـ سُبْحانَهُ وتعالى ـ مُخاطبًا نبيِّه موسى - عليه السلام -:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ (طه: ٤٤).

قال ابنُ سَعْديٍّ - رحمه الله -:

«أَيْ: سَهْلًا لَطِيفًا، برِفْقٍ ولِينٍ وأَدَبٍ في اللَّفْظِ، مِنْ دُونِ فُحْشٍ ولا صَلَفٍ ولا غِلْظةٍ

---

(١) الجُنَّة ـ بالضَّمِّ ـ : كُلُّ ما وَقَى، والجَمْعُ جُنَنٌ. والمُرادُ بها هُنا: ما وَقَى مِنْ طَيْشِ الطَّائشينَ، وجَهْلِ الجاهلينَ.

(٢) «تفسير السَّعْديِّ» (ص٧٤٩).

في المقال، أَوْ فَظَاظة في الأَفْعال»[١].

وعندما قالت عائشة - رضي الله عنها - **لليهود:** «بَلْ عليكمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ». قال لها الرَّسُولُ - ﷺ -: **«يا عائشةُ، إنَّ الله رَفيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ، وما لا يُعْطِي على ما سِوَاهُ»**[٢].

ومَتَى رَفَقْتَ بالنَّاس في أَقْوالِكَ وأفعالِكَ، أَحَبَّكَ النَّاسُ، وأَقْبَلُوا عَلَيْكَ بقُلُوبِهِمْ؛ لأنَّ اللهَ يُعْطِي على الرِّفْقِ مِنَ البَرَكَةِ ما لا يُعْطِي على غَيْرِهِ كما جاء في الحديث، والمَحْرُومُ مِنَ الخَيْرِ مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ.

فعن جابر - رضي الله عنه - **قال:** قال رَسُولُ الله - ﷺ -: **«مَنْ يُحْرَم الرِّفْقَ، يُحْرَم الخَيْرَ»**[٣].

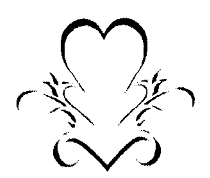
لَمْ أَرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِينِهِ ... أَخْرَجَ لِلْعَذْراءِ مِنْ خِدْرِها
مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ ... يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِها[٤]

مِنْ مشْكاة النُّبوّة:

قال رَسُولُ الله - ﷺ -:

«إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ في شَيْءٍ إلَّا زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلَّا شَانَهُ».

(رواه مسلم (٢٥٩٤) عَنْ عائشةَ - رضي الله عنها -).



(١) المرجع السابق (ص٥٠٦).

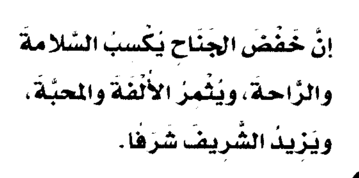
(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٤) «حياة الحيوان» (١/ ٢٧٥).

خفض الجناح





إنَّ خفضَ الجناحِ يُكسبُ السَّلامةَ والرَّاحةَ، ويُثمِرُ الألفةَ والمحبَّةَ، ويَزيدُ الشَّريفَ شرفًا.

قال الله -سبحانه وتعالى- :

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

قال ابنُ سَعديّ - رحمه الله -: «بلينِ جانبكَ، ولُطْفِ خِطَابِكَ، وتَوَدُّدِكَ وتَحَبُّبِكَ إليهم، وحُسْنِ خُلُقِكَ، والإحسانِ التَّامِّ بِهِمْ»[١].

وقال الله -سبحانه وتعالى- :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

قال ابنُ سعديّ - رحمه الله -: «ذَكَرَ أنَّ صِفَاتِهُمْ أَكْمَلُ الصِّفاتِ، ونُعُوتَهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ، فَوَصَفَهُمْ بأَنَّهُمْ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا، أي: ساكنين مُتواضعين للهِ وللخَلْقِ، فهذا وَصْفٌ لَهُمْ بالوَقَارِ والسَّكينةِ، والتَّواضُعِ للهِ ولعبادِهِ»[٢].

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ :

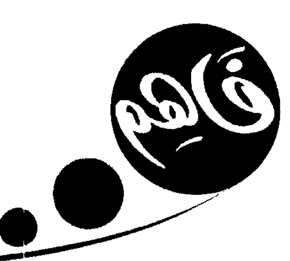
قال رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**إنَّ اللهَ أَوْحَى إليَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا، حتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يَبْغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ**» (رواه مسلم) (٢٨٦٥) عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ - رضي الله عنه -.

---

(١) «تفسير ابنُ سَعْديٍّ» (ص٥٩٩).

(٢) المرجع السابق (ص٥٨٦).

أسس العافية



إنّ التّغافل منْ أخلاق عظماء الرّجال؛ لأنّه منْ أقْوى القوى على قهْر العدوّ، وما حلّ في نفْس امْرئ إلاّ حلّتْ منْهُ العافيةُ بالمَحلّ.

مَنْزِلَةُ التَّغافُلِ في حياةِ المُسْلِمِ بأَعْظَمِ المَنازِلِ؛ لأنَّ أكْثَرَ أُمُورِ الحياةِ لا تستقيمُ إلَّا بالتَّغافُلِ.

رَوى البيهقيُّ عَنْ عُثمانَ بن زائدة قال: «العافيةُ عَشَرةُ أجْزاءٍ، تِسْعَةٌ في التَّغافُلِ».

فحدَّثتُ به أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فقال: «العافيةُ[1] عَشَرةُ أجْزاءٍ، كُلُّها في التَّغافُلِ»[2].

النّبيّ - ﷺ - يتغافلُ عنْ بَعْض الأمور:

قال الله -سبحانه وتعالى- : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ (التحريم: ٣).

فالنَّبيُّ - ﷺ - حدَّثَ بَعْضَ أزواجه بحديث، وأَوْصاها ألَّا تُخْبِرَ به أَحَدًا، فَذَهَبَتْ وأَخْبَرَتْ بِهِ، فأَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ - ﷺ - على الَّذي كان مِنْ أَمْرِها، فلمَّا جاء العتَابُ، ما عاتبها على الصَّغيرةِ والكبيرةِ، بَلْ بيَّن ما يستحقُّ البَيَانُ، وتغافَلَ عَنْ بَعْضِ الأُمُورِ، كما قال اللهُ ـ سبحانه ـ : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾.

أخي، أَلَا يَسَعُكَ ما وَسِعَ نبيَّكَ - ﷺ - مِنَ التَّغافُلِ؟

---

(١) العافيةُ أَيْنما حَلَّتْ، حلَّتْ معها السَّلامةُ، والسَّلامةُ مِنْ أَذَى النَّاسِ تَنْحصرُ أسبابُها في إظهارِ التَّغافُلِ عَنْ شُرُورِهِمْ وأَذَاهُمْ، يُريهِمْ أنَّهُ لمْ يَتفطَّنْ لها، ولا يَكُونُ التَّغافُلُ إلَّا عَنْ فِطْنةٍ.

(٢) «الآداب الشَّرْعيَّة» (٢/ ١٠٤).

قال ابنُ الورديّ -رحمه الله-:

وتَـغـافَـل عَـنْ أُمُـورٍ؛ إنَّـهُ ... لَمْ يَـفُـزْ بـالحَـمْـدِ إلَّا مَـنْ غَـفَـلْ

وإنْ أرَدْتَ الشَّرَفَ، فإنَّ التَّغافُلَ مِنْ مصايدِهِ.

قال الطائيّ:

لَـيْـسَ الـغَـبِـيُّ بِـسَـيِّـدٍ في قَـوْمِـهِ ... لَـكِـنَّ سَـيِّـدَ قَـوْمِـهِ المُـتَـغـابي[1]

ولله دَرُّ أبي العتاهية حينَ قال:

فالْبسَ النَّاسَ ما اسْتَطَعْتَ مِنَ النَّقْـ ... ـصِ، وإلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ لَـك خِـلَّـهْ[2]

عِشْ وَحِيدًا إنْ كُنْتَ لا تَقْبَلُ العُذْ ... رَ، وإنْ كُـنْـتَ لا تُجـاوِزُ زَلَّـهْ[3]

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

وإنِّي أَغُـضُّ الطَّرْفَ عَنْ زَلَّـةِ الفَتَى ... كـأنِّي لَمْ أَسْـمَـعْـهُ أَوْ لَمْ أُشـاهِـدِ

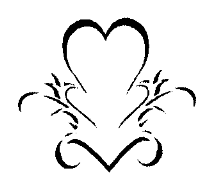
سُمُوًّا بنَفْسي أَنْ تُجـاري ذَوِي الخَنَا ... وتَنْزِيهَ قدري عَنْ تقصِّي المصايدِ

ولَـوْ شِئْتُ لاستأصلتُهُ مِنْ جُـذُورِهِ ... ولكن حِلْمي فَـوْقَ كيدِ المكايدِ[4]

رَياحِينُ:

قال شَبيبُ بنُ شَيبةَ -رحمه الله-: «العاقلُ هُوَ الفَطِنُ المُتَغافِلُ».

(أدب الدُّنيا والدِّين) (ص١٨٠).



(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٠).

(٢) الخِلَّة -بالكَسْر-: المُصادقة والإخاء.

(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٠).

(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

مؤانسة

فاهم

إنَّ التَّحبُّب إلى النَّاس بشيء من المزاح المشروع لمؤانستهم وإدخال البهجة والسُّرور عليهم سُنَّة مشروعة.

المُزَاحُ هُوَ الطَّرِيقُ السَّهْلُ إلى القُلُوب، وقَدْ كان الرَّسُولُ - ﷺ - يُدَاعِبُ أَصْحابَهُ، ويُمازِحُهُمْ، فَيُدْخِلُ السُّرورَ والبَهْجَةَ إلى قُلُوبِهِمْ، ويَطْرُدُ السَّآمَةَ والمَلَلَ مِنْ نُفُوسِهِمْ، ويتحبَّبُ إليهِمْ بما يُؤَانِسُهُمْ بِهِ.

فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قالُوا: يا رَسُولَ الله، إنَّكَ تُدَاعِبُنَا؟!. قال: «**إنِّي لا أَقُولُ إلاَّ حَقًّا**»[١]. وفي رواية: «**إنِّي لأُدَاعِبُكُمْ**»[٢].

وما أَجْمَلَ أنْ يَكُونَ المُزَاحُ في مَوْضِعِهِ، مُتواخيًا به فُرْصَتَهُ، فإنْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كذلك، فَتَرْكُهُ أَمْحَضُ في التَّكرُّم.

وَمِنَ العُلَماءِ مَنْ كَرِهَ المُزَاحَ.

قال ابْنُ عَبْد البر - رحمه الله -: «وَقَدْ كره جَمَاعةٌ مِنَ العُلَماءِ الخَوْضَ في المُزَاحِ؛ لما فيهِ مِنْ ذَمِيمِ العاقبةِ، ومِنَ التَّوصُّلِ إلى الأعراضِ، واسْتِجْلابِ الضَّغائِنِ، وإفسادِ الإخاءِ»[٣].

---

(١) حَقًّا: صدْقًا.

(٢) (صحيح) رواهُ التِّرْمذيُّ (١٩٩٠)، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وأحمدُ في «المُسند» (٢/ ٣٤٠،٣٦٠)، والبَغَويُّ في «شرح السُّنَّة» (٢٦٠٢) وحسَّنه. ولَهُ شاهدٌ بلَفْظ: «إنِّي لأَمْزَحُ، ولا أَقُولُ إلَّا حقًّا» مِنْ حَديث ابْن عُمَرَ - رضي الله عنهما - عِنْدَ الطَّبرانيِّ في «الكبير»، ومِنْ حديث أَنَس - رضي الله عنه - عِنْدَ الخطيب وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٤٩٤) و(٢٥٠٩)، وفي «الصَّحيحة» (١٧٢٦).

(٣) «بهجة المجالس» (٢/ ٥٦٩).

والجَمْعُ بَيْنَ ذلك كما قال الحافظُ ابْنُ حَجرٍ - رحمه الله -: «والجَمْعُ بَيْنَهما: أنَّ المَنْهيَّ عَنْهُ ما فيه إفراطٌ، أَوْ مُداومةٌ عليه؛ لما فيه مِنَ الشغلِ عَنْ ذِكْرِ الله، والتَّفكُّرِ في مهمَّاتِ الدِّين، ويَئُولُ - كثيرًا - إلى قَسْوةِ القَلْبِ، والإيذاءِ والحِقْد، وسُقُوطِ المهابةِ والوَقَار.

والَّذي يَسْلَمُ مِنْ ذلك هُوَ المُبَاحُ، فإنْ صادَفَ مَصْلَحةً - مثل تَطْييبِ نَفْسِ المُخاطبِ ومُؤانَسَتِهِ - فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ»[1].

فَعَلَيْكَ - أخي - أنْ تتوخَّى[2] طِبَاعَ النَّاسِ؛ وذلك لأنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَجُرُّهُ مَزْحُكَ مَعَهُ إلى إيذائك، فلا يَحْسُنُ أنْ تُمازِحَ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ جِنْسِكَ، ولا رَجُلًا لا يَعْرِفُكَ فَيُنْزِلَكَ مَنْزِلَتَكَ، ولا طِفْلًا لا يَهابُكَ، ولا عَدُوًّا؛ لما يَقُودُ إلى مفسدةٍ تُؤْذيك، ولا يَحْسُنُ المُزاحُ بحَضْرةِ العامَّة؛ فرُبَّما كان فيهمْ رَجُلٌ وَضِيعٌ لا يَعْرِفُ قَدْرَكَ، فَيَجْترِئَ عَلَيْكَ.

قال ابنُ حبَانَ - رحمه الله -: «مَنْ مازح رَجُلًا مِنْ غَيْرِ جِنْسِه، هان عليه، واجْتَرَأَ عَلَيْه، وإنْ كان المُزاحُ حقًّا؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ لا يَجِبُ أَنْ يُسْلَكَ به غَيْرُ مَسْلَكِه، ولا يُظْهَرَ إلَّا عِنْدَ أَهْلِه، على أنِّي أكرَهُ استعمالَ المُزاحِ بحَضْرةِ العامَّةِ، كما أكرهُ تَرْكَهُ عِنْدَ حُضُورِ الأَشْكَالِ[3]»[4].

واعْلَمْ أنَّ المُزَاحَ كالمِلْحِ في الطَّعامِ؛ فاجْعَلْ لَهُ قدرًا، وما زاد عَنْ حَدِّهِ انْقَلَبَ إلى ضِدِّهِ.

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ١٥٨).
(٢) تَتوخَّى: تراعي.
(٣) الأشكال: جَمْعُ شِكْلٍ - بالفَتْحِ والكَسْرِ -، وهُوَ المِثْلُ، ويُجْمَعُ - أيضًا - على شُكُولٍ.
(٤) «روضة العقلاءِ» (ص ٨١).

كما قال البستي:

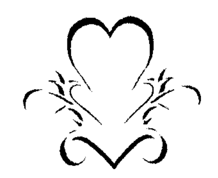
أفد طَبْعَكَ المَكْدُودَ[١] بالجدِّ راحةً يَجُمَّ[٢]، وعَلِّلْهُ بشَيْءٍ مِنَ المَزْحِ
ولكنْ إذا أعْطَيْتَهُ المَزْحَ، فَلْيَكُنْ بِمقْدَارِ ما تُعْطِي الطَّعامَ مِنَ المِلْحِ[٣]

عسجد:

قيل لسفيان بن عيينة - رحمه الله -: «المُزَاحُ هُجْنَةٌ[٤]؟».

قال: «بَلْ سُنَّةٌ، لَكِنَّ الشَّأْنَ فِيمَنْ يُحْسِنُهُ، ويَضَعُهُ مَوْضِعَهُ»

«شرح السُّنَّة» (١٣/ ١٨٤).



(١) المكدود: المُتعب المُرهق مِنْ شدَّةِ العَمَلِ.

(٢) يجم: يَذْهَبُ إعياؤُهُ.

(٣) «أدب الدنيا والدين».

(٤) الهُجْنة - بالضَّمِّ - مِنَ الكلام: ما يَعِيبُهُ.

سِيَاسَةٌ



إنَّ النَّاسَ بحاجةٍ إلى سياسةٍ فاهم تُطفيءُ نارَ العَداوةِ، وتُخمدُ جَمرَ الحِقدِ، وتَقلبُ العَدوَّ إلى صديقٍ، وتلكَ السِّياسةُ هي المُداراةُ.

إنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ لِمُحترفي السيرك، كَيْفَ نَجَحُوا في تَرْويضِ الحيواناتِ الضَّخْمةِ والشَّرِسَةِ، ودرَّبوها على أعمالٍ تَدْعُو للدَّهْشَةِ والاستغراب؟!؛ وطَريقَتُهُمْ في ذلك السِّياسةُ[1]، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ مِنْ أكْثرِ مَخْلُوقاتِ الله ذَكَاءً، وأَحْوَجِهَا إلى السِّياسةِ، وسياسَتُهُ لَيْسَتْ كسياسةِ الحيواناتِ، بَلْ كما قال الشَّافعيُّ - رحمه الله -:

«سياسةُ النَّاسِ أَشَدُّ مِنْ سِيَاسَةِ الدَّوَابِّ».

النَّبيُّ - ﷺ - يستَعملُ السِّياسةَ:

فَعَن عائشة - رضي الله عنها -: «أنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ على النَّبيِّ - ﷺ -، فقال:

«ائْذَنُوا لَهُ، فَلَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرةِ! -أَوْ: بِئْسَ رَجُلُ العَشِيرةِ!- ».

فلمَّا دَخَلَ عليه، أَلَانَ لَهُ القَوْلَ، قالتْ عائشةُ: فَقُلْتُ: يا رَسُولَ الله، قُلْتَ لَهُ الَّذي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ القَوْلَ؟!.

قال: **«يا عائشةُ، إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامةِ مَنْ وَدَعَهُ النَّاسُ -أَوْ: تَرَكَهُ النَّاسُ- اتِّقاءَ فُحْشِه»**[2].

---

(١) مِنْ سِيَاسَتِهِمْ أنَّهم يَطْلُبون مِنْ هذا الحيوانِ عَمَلًا مُعيَّنًا، فإذا حقَّق فيه نَجَاحًا ٥٪ أَعْطَوْهُ قِطْعَةَ لَحْمٍ، وشَدُّوا مِنْ أَزْرِهِ، دلالةً على رِضَاهُمْ عَنْهُ، ثُمَّ يُكَرِّرُونَ هذا الأَمْرَ، فيزدادُ النَّجاحُ شيئًا فشيئًا، حتَّى يتوصَّلوا إلى مَقْصُودِهِمْ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

وعن المِسْوَر بن مَخْرَمَة - رضي الله عنه - **أنه قال:** قَدِمَتْ على النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - أَقْبِيَةٌ[١]، فقال لي أَبي مَخْرَمَةُ: انْطَلِقْ بنا إليه؛ عَسَى أَنْ يُعْطِيَنا منْها شَيْئًا. قال: فقام أبي عَلَى البَاب، فتكلَّم، فَعرفَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - صَوْتَهُ، فَخَرَجَ وَمَعَهُ قَبَاءٌ، وَهُوَ يُرِيه مَحَاسِنَهُ، وهُوَ يَقُولُ: «خَبَّأْتُ هذا لَكَ، خَبَّأْتُ هذا لَكَ»[٢].

وفي رواية للبُخاريِّ: «وكان في خُلُقِه شَيْءٌ»[٣].

قال ابنُ حجر - رحمه الله -:

«قال ابْنُ بَطَّال: الْمُداراةُ مِنْ أَخْلاق الْمُؤْمنين، وهي: خَفْضُ الجَنَاح للنَّاس، وَلِينُ الكلمة، وتَرْكُ الإغلاظِ لَهُمْ في القَوْلِ، وذلك مِنْ أقوى أسباب الأُلْفَة»[٤].

وقال بعضُهم: «يَنْبَغي للعاقِلِ أنْ يُداري زمانَهُ مُداراةَ السَّابح في الماءِ الجاري»[٥].

وقال الشافعيُّ - رحمه الله -:

إنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِه ... لأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بالتَّحيَّات

وأُظْهِرُ البِشْرَ للإنسانِ أُبْغِضُهُ ... كَأَنَّهُ قَدْ حَشَا قَلْبي مَحَبَّاتِ[٦]

وقال آخر:

ما دُمْتَ حيًّا فدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... فإنَّما أَنْتَ في دار المُدَارات

مَنْ يَدْرِ دارى، وَمَنْ لَمْ يَدْرِ سَوْفَ يُرَى ... عمَّا قليلٍ نَدِيماً للنَّدامات[٧]

---

(١) الأقبية: جَمْعَ قَبَاءٍ - بالفتح ممدودًا -، وهُوَ يُلْبَسُ فَوْقَ الثِّياب.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٩٩)، ومسلم (١٠٥٨)، واللَّفْظُ لَهُ.

(٣) رواه البخاريُّ (٦١٣٢) مِنْ طَريقِ ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ.

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٨).

(٥) «عين الأدب والسياسة» لعليِّ بنْ هذيل (ص١٥٤).

(٦) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٢٨) جَمْعُ الزعْبيِّ.

(٧) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٤١).

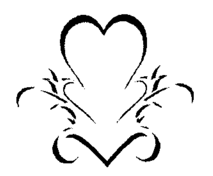
وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

ما بَخِلْتُ على السَّفيه ولَمْ أَهَبْهُ ودارَيْتُ السَّفيهَ بِنِصْفِ مالي
لِعِلْمي في الكَريمِ بُلُوغَ عُذْري ولا يَرْثي السَّفيهُ لِسُوءِ حالي

ماس:

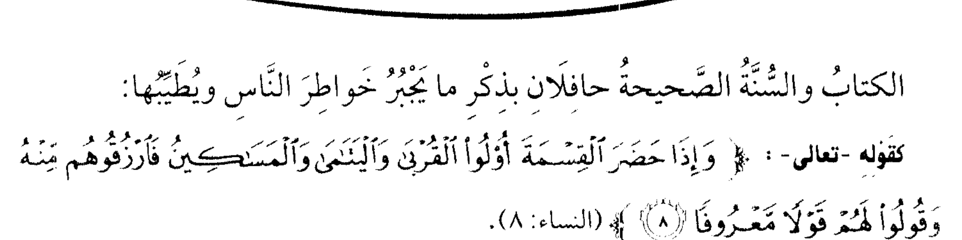
قال العتابيُّ -رحمه الله-:

«المُداراةُ سياسةٌ لَطيفةٌ، لا يَسْتَغْنى عنها مَلِكٌ ولا سُوقةٌ[1]، يَجْتَلِبُونَ بها المَنافعَ، ويَدْفَعُون بها المَضارَّ، فَمَنْ كَثُرَتْ مُداراتُهُ، كان في ذِمَّةِ الحَمْدِ والسَّلامةِ». «عين الأدب والسِّياسة» (ص١٥٤).



(١) **السُّوقة ـ بالضَّمِّ ـ** : الرَّعيَّة، للواحِدِ والجَمْعِ، والمُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ، أَوْ قَدْ يُجْمَعُ على سُوَقٍ ـ بزِنَةِ غُرَفٍ.

بلسم



الكتابُ والسُّنَّةُ الصَّحيحةُ حافلَانِ بذِكْرِ ما يَجْبُرُ خواطِرَ النَّاسِ ويُطَيِّبُها:

كقولِه -تعالى-: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ (النساء: ٨).

فهؤلاءِ الأَقاربُ والفُقراءُ والمَساكينُ الَّذين لا حَظَّ لَهُمْ في الميراث، ولا مالَ لَهُمْ طيَّب اللهُ خاطِرَهُمْ بجُزْءٍ مِنَ مالِ التَّرِكَة، تُعْطيهِمْ إيَّاهُ، يُباركُ اللهُ لَكَ، ويُعَوِّضُكَ خيْرًا [١].

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سبأ: ٣٩).

وكقولِه -تعالى-: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤١).

فخاطرُ المُطَلَّقةِ مكسورٌ؛ لكونها طُلِّقَتْ، فعُوِّضَ هذا الكَسْرُ بشيءٍ مِنَ المَالِ تخفيفًا مِنْ أحْزانها[٢].

وإذا أَرَدْتَ أَنْ تَمْنَعَ أَحَدًا شيْئًا، فَكَلِّلْ ذلك بالكلماتِ الطَّيِّبة.

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٨)[٣].

---

(١) ومِنْ تَطْييب الخواطر: أنَّهُ إذا كان لك مالٌ تُفرِّقُهُ بيْنَ أوْلادك، وحضَرَ أوْلادُ الجيران، أو الأيتامُ - فأَعْطِهِمْ مِنْ ذلك المالِ ما تُطيِّبُ خواطِرَهُمْ، ومثْلُ هذا كثيرٌ.

(٢) انظر: «فقه الأخلاق» (١/ ١٢٨).

(٣) انظر «فقه الأخلاق» (١/ ١٢٩).

وأمَّا السُّنَّةُ الصَّحيحةُ فحافلةٌ بذِكْر جَبْر الخواطر وتَطْييبها، وذِكْرُ ذلك بحاجةٍ إلى سِفْر[1] بَلْ أَسْفَار، ولكنْ يَكْفي منَ القلادَة ما أحاط بالعُنُق.

فَعن البَراء - رضي الله عنه - **قال:** «لَمَّا اعْتَمَرَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - في ذي القَعْدَة....» فذكَرَ الحديثَ، وَفيه: (فَخَرَجَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم -، فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنادي: يا عَمِّ يا عَمِّ، فتناوَلَها عليٌّ، فأَخَذَ بيدِها، وقال لفاطمةَ: دُوْنَكِ[2] ابْنَةَ عَمِّك حَمِّليها، فاخْتَصَمَ فيها عليٌّ وزَيْدٌ وجَعْفَرٌ:

قال عليٌّ: أَنَا أَخَذْتُها، وهي بِنْتُ عمِّي.

وقال جَعفرٌ: ابْنَةُ عميِّ، وخالَتُها تَحْتي.

وقال زَيدٌ: ابْنَةُ أخي.

فَقَضَى بها النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - لخالَتِها، وقال: «الخالةُ بمَنْزِلَة **الأُمِّ**»

وقال لعليٍّ: «**أَنْتَ منِّي، وأنا منْكَ**».

وقال لجَعفَر: «**أَشْبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي**».

وقال لزَيد: «**أَنْتَ أَخونا ومَوْلَانا**»)[3].

فانظرْ كَيْفَ طيَّب - صلى الله عليه وسلم - خاطِرَ كُلِّ واحدٍ منهم بما قاله لَهُ؟![4].

ياقوتٌ:

قال الأَحْنَفُ بنُ قَيس - رحمه الله -:

«لَوْ جَلَسْتُ إلى مِائَةٍ، لأَحْبَبْتُ أَنْ أَلْتَمِسَ رِضا كُلِّ واحدٍ منْهُمْ».

«بهجة المجالس» لابْنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٤٥).

---

(١) **السِّفْر - بالكَسْر -:** الكتاب الكبير، والجَمْعُ أَسْفارٌ.

(٢) **دُونَكِ:** اسم فعل أمر بمعنى: خُذي.

(٣) رواه البخاريُّ (٤٢٥١).

(٤) انظر «فقه الأخلاق» (١/ ١٣٠).

تعاهد ما زرعت

فاهم

إن المودة لن تبلغ أن تكون مودة بالغة ما لم تتعاهدها، كما لا يحسن أن تضع البذر في الأرض، ثم تتولى عنه.

ما أُتِيَ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ إلَّا مِنْ قِبَلِ عَدَمِ تعاهدُ الوُدِّ، ومَتَى اقْتَصَرَ الوُدُّ على حَلاوةِ مَنْطقٍ، كان تعارُفًا، لا خُلَّةً[1] خالصةً.

قال صالحُ بنُ عبدِ القُدُّوس:

إذا كـان وُدُّ المَـرْءِ لَـيْسَ بـزائـدٍ ... على «مَرْحبًا» أو «كَيْفَ أَنْتَ وحَالُكَا؟»

أو القَوْل: «إنِّي وامِـقٌ[2] لَكَ حَافظٌ» ... وأَفْـعَـالُـهُ تُـبْـدِي لنا غَـيْرَ ذَلِـكَا

ولَمْ يَـكُ إلَّا كَـاشِرًا أَوْ مُحَـدِّثًـا ... فَـأُفٍّ لِــوُدٍّ لـيس إلا كـذلـكـا

ولـكِـنْ إخـاءُ المَـرْءِ مَـنْ كـان دائـمًا ... لذِي الـوُدِّ مِنْهُ حَيْثُمَا كان سَالِكَا[3]

وإنَّما يُؤَاخي مَنْ كان صافِيَ الوُدِّ، فَمِثْلُهُ حَقِيقٌ بكُلِّ خَيْرٍ.

---

(١) **الخُلَّة** ـ بالضَّمِّ ـ: الصَداقة المُخْتَصَّةُ لا خَلَلَ فيها، والجَمْعُ خِلالٌ، وإنَّما سُمِّيت الصَّداقةُ المُخْتَصَّةُ خُلَّةً؛ لتَخَلُّلِ المحبَّة جميعَ أَجْزاءِ الرُّوح، كما قال بشَّارٌ:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الـروحِ مِنِّي ... وَبِــهِ سُـمِّـي الخَـلِـيـلُ خَلِيلا

(٢) وَمِقَهُ يَمِقُهُ ـ بكَسْرِهما ـ وَمْقًا ومِقَةً: أحبَّهُ، فهُوَ وامِقٌ.

(٣) «رَوْضة العُقَلاء» (ص٧٤).

قال الشافعيُّ - رحمه الله -:

إذا المَــرْءُ لا يَــرْعَــاكَ إلَّا تَكَلُّفًا ... فَـدَعْـهُ، ولا تُكْثِرْ عَلَيْهِ التَّأَسُّفا

ففي النَّاس أَبْـدالٌ، وفي الـتَّرْك راحةٌ ... وفي القَلْب صَـبْرٌ للحبيب وَلَوْ جَفَا

فَـما كُـلُّ مَـنْ تَهْـوَاهُ يَهْـوَاكَ قَلْبُهُ ... ولا كُـلُّ مَـنْ صافَيْتَهُ لَكَ قَـدْ صَفَا

إذا لَمْ يَـكُـنْ صَـفْـوُ الـودَاد طَبيعةً ... فـلا خَـيْرَ في وُدٍّ يَجِــيءُ تَكَلُّفا

ولا خَـيْرَ في خـلٍّ يَخُـونُ خَليلَهُ ... ويَـلْـقَـاهُ مِـنْ بَـعْـد المَـوَدَّة بالجَفَا

ويُـنْـكـرُ عَيْشًا قَـدْ تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهُ ... ويُظْهرُ سرًّا كـان بالأَمْس قَـدْ خَفَا

سَـلامٌ على الدُّنْيا إذا لَمْ يَكُـنْ بها ... صَدِيقٌ صَـدُوقٌ صادِقُ الوَعْدِ مُنْصِفَا

ولا يَكُونُ المَرْءُ حافظَ الوُدِّ حَتَّى يؤتى إلى إخوانه الذي يحب أن يؤتى إليه[١]، ويُحِبَّ لَهُمْ ما يُحِبُّهُ لنَفْسه[٢].

ومِنْ دُرَرِ الحِكَم: «أَخُوكَ هُوَ شَخْصُكَ الثَّاني».

ولله در السعدي الشيرازيِّ القائل:

قـال لِيَ المَـحْـبُـوبُ لَمَّـا زُرْتُـهُ: ... مَـنْ ببـابي؟، قُـلْـتُ: بـالـبـاب أَنَـا

قـال لي: أَخْـطَـأْتَ تَعْريفَ الهَـوَى ... حِـيـنَـما فَـرَّقْـتَ فِـيـه بَـيْـنَـنَـا

وَمَــضَى عــامٌ، فَـلَـمَّا جِـئْـتُـهُ ... أَطْـرُقُ الـبَـابَ عَـلَـيْـهِ مُـوهِـنَـا

قال لي: مَنْ أَنْـتَ؟، قُلْتُ: انْظُرْ فَما ... ثَـمَّ إلَّا أَنْـتَ بـالـبـاب هُـنَـا

قـال لِي: أَحْـسَـنْـتَ تَعْرِيفَ الهَـوَى ... وَعَـرَفْـتَ الحُـبَّ، فـادْخُـلْ يـا أَنَـا

---

(١) روى مُسْلمٌ (١٨٤٤) منْ حديث عَبْد الله بْن عَمْرو - رضي الله عنهما - قال: قال رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «وَلْيَأْت إلى النَّاس الَّذي يُحبُّ أَنْ يُؤْتَى إليه».

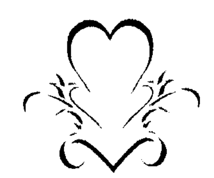
(٢) رَوَى البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥) منْ حديث أَنَس - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكمْ حَتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنَفْسه».

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

وافيتني فزرعت في قلبي زهورًا يانعة
وهجرتني حتى ذوت تلك الزهور الرائعة
لو لم تفارقها نمت وغدت حقولًا ماتعة[1]

سبائك ذهبية:

قال ابنُ حبّان -رحمه الله-: «مَنْ أضاعَ تعهُّدَ الوُدِّ مِنْ إخوانِه، حُرِمَ ثَمرةَ إخائِهِمْ، وآيَسَ الإخوانَ مِنْ نَفْسِهِ» «رَوْضَة العُقَلاء» (ص١٤٧).



(١) «بلسم الحياة» مخطوط.

وفاء



إنَّ الوَفاءَ عَزيزٌ والأوْفياءُ على عِزَّتِهِمْ يَترَبَّعُون الأفْئِدَةَ، في فَيْحائِها يَسْرَحُونَ، وفي دَوْحاتِها يَمْرَحُونَ.

عَظَّمَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وتعالى ـ أَمْرَ الوَفَاءِ، فقال:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (البقرة: ٤٠).

ولقلَّةِ وُجُودِهِ في النَّاسِ، وعزَّتِهِ بَيْنَهُمْ قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ (الأعراف: ١٠٢).

والعَرَبُ تَضْرِبُ به المَثَلَ في العِزَّةِ، فتقول للشَّيْءِ النَّفِيسِ الَّذي قَلَّ فلا يكادُ يُوجَدُ: «هُوَ أَعَزُّ مِنَ الوَفَاءِ»[١].

قال الشَّاعرُ:

سَقَى اللهُ أَطْلالَ[٢] الوَفَاءِ بكَفِّهِ ... فَقَدْ دَرَسَتْ[٣] أَعْلامُهُ ومَنَازِلُهْ

والوَفَاءُ أَنْوَاعُ، منها:

الوَفَاءُ بالعَهْدِ، الوَفَاءُ بالعَقْدِ، الوَفَاءُ بالوَعْدِ، الوَفَاءُ في حقِّ الأُخُوَّةِ ورعاية ذمامِها[٤].

ولا سبيلَ إلى الحياةِ الطَّيِّبةِ إلَّا بأَنْ يَلْزَمَ العَبْدُ الوَفَاءَ في كُلِّ أَحْوالِهِ، فيُوفي بحُقُوقِ

---

(١) انظر «الذَّريعة في مكارم الشَّريعة» (ص٢٩٣).

(٢) **الأطلال**: جَمْعُ طَلَلٍ ـ بفتحتَيْنِ ـ، وهو ما شَخَصَ مِنْ آثارِ الدِّيارِ ـ ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على طُلُولٍ، وأطلال الوفاء على التَّشْبيه.

(٣) دَرَسَتْ: عَفَتْ وذَهَبَتْ، وبابُهُ دَخَلَ.

(٤) الذِّمام ـ بالكَسْرِ ـ: الحُرْمة، والجَمْعُ أَذِمَّةٌ.

اللهِ ـ سبحانه وتعالى ـ كاملةً، وحُقُوقِ إخوانِه، وحُقُوقِ أَهْلِه ونَفْسِه، ويُعْطِيَ كُلَّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وهُنَاكَ مواقِفُ عَزِيزةٌ في الوَفاءِ سَجلها لنا التَّاريخُ بأحْرُفٍ من نُورٍ، أَذْكُرُ منها:

وَفَاءُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ مالكِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الرِّقَاعِ لعُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحمنِ ـ رحمهما الله ـ، فَعِنْدَما عَزَلَ الوَليدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ عاملَهُ على الأُرْدُنِّ عُبَيْدَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحمنِ، وضَرَبَهُ، وحَلَقَهُ، وأقامَهُ للنَّاسِ، وقال للمتوكِّلين به: مَنْ أَتَاهُ مُتَوجِّعًا، وأَثْنَى عليه، فَأْتُوني به، فَأَتَاهُ عَدِيُّ بْنُ الرِّقَاعِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ، وكان عُبَيْدَةُ إليه مُحْسِنًا، ومُقَرِّبًا لَهَ، ومُجْزِلًا لَهُ العَطَاءَ، فوقف عليه، وأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَـمَا عَـزَلُـوكَ مَـسْـبُـوقًـا، ولـكـنْ ... إلى الخَـيـراتِ سَـبَّـاقًـا جَـوَادا
وكُـنْـتَ أَخِـي ومـا وَلَـدَتْـكَ أُمِّـي ... وَصُـولًا بـاذلًا لي مـسـتـزادا
وَقَـدْ هِيضَتْ[١] لنَكْبَتِكَ القُدامَى[٢] ... كـذاك اللهُ يَـفْـعَـلُ مـا أَرَادَا

فَوَثَبَ المُتوكِّلون بعُبَيْدَةَ، وأَمْسَكُوا عَدِيًّا، وأَدْخَلُوهُ على الوَليدِ، وأَخْبَرُوهُ بما جَرَى، فتغيَّظَ عليه الوليدُ، وقال لَهُ: أَتَمْدَحُ رَجُلًا قَدْ فَعَلْتُ به ما فَعَلْتُ؟!.

فقال: يا أَميرَ المُؤْمنينَ، إنَّهُ كان إليَّ مُحْسِنًا، ولي مُؤْثِرًا، وبي بَرًّا، ففي أيِّ وَقْتٍ كُنْتُ أُكافِئُهُ بَعْدَ هذا اليَوْمِ؟!.

فقال: صَدَقْتَ وكَرُمْتَ، وقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ وعَنْهُ لك، فَخُذْهُ وانْصَرِفْ. فانْصَرَفَ بِهِ إلى مَنْزِلِه[٣].

---

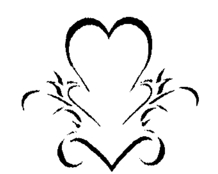
(١) **هاضَ الشَّيْءَ**: كَسَرَهُ، وبابُهُ باع.
(٢) **القُدَامى** ـ بزِنَة الحُبَارَى ـ: أَرْبَعُ أَوْ عَشْرُ ريشاتٍ في مُقَدَّمِ الجَنَاحِ، الواحدةُ قادمةٌ.
(٣) «الوفاء» لعَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ صالحٍ آل عبد اللَّطيف (ص٧٦).

قال أستاذنا العماد -حفظه الله- :

كَـريـمٌ؛ فَـقَـدْ وافـيـتُـهُ ذاتَ مـرَّةٍ فَـلَـمْ يَـلْـقَ مـا يُـرْضـيـهِ إلَّا فُـؤَادَهُ
وَفِيٌّ، فَـلَـوْ مَـزَّقْـتَ أَشْــلاءَ قَلْبِهِ لصاحَتْ جـميعًا: لَنْ تَخُـونَ ودادَهُ[1]

عُقودٌ ذَهَبيَّةٌ :

قال ابنُ حَزمٍ - رحمه الله - : «الوَفاءُ مُرَكَّبٌ مِنَ العَدْلِ، والجُودِ، والنَّجْدَةِ».
«الأخلاق والسِّير» (ص١٤٥).



(١) «بلسم الحياة» مخطوط.

قلوبٌ مؤتلفةٌ



إنَّ الأُخُوَّةَ الصادقةَ لا يدومُ وُدُّها بينَ اثنَيْنِ، ولا ينتظمُ عقدُها بينَ شخصَيْنِ ـ حتَّى يكونَ بينَ رُوحَيْهما تقارُبٌ، وفي آدابِهما تشابُهٌ، وإذا لم يكُنِ الأمرُ كما ذكرتُ لكَ، انفرطَ العقدُ، ما مِنْ ذلكَ بُدٌّ.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ يقولُ: «الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ[١]، فما تعارفَ[٢] منها ائْتَلَفَ[٣]، وما تَنَاكَرَ[٤] منها اخْتَلَفَ[٥]»[٦].

يقولُ البَغويُّ ـ رحمه الله ـ: «في الحديثِ بيانُ أنَّ الأرواحَ خُلِقَتْ قَبْلَ الأَجْسَادِ، وأنَّها مَخْلُوقَةٌ على الائْتِلَافِ والاختلافِ كالجُنُودِ المُجَنَّدَةِ، إذا تقابلتْ وتواجَهَتْ، وذلك على ما جَعَلَها اللهُ عليه مِنَ السَّعادةِ والشَّقاوةِ، ثُمَّ الأجسادُ الَّتي فيها الأرواحُ تَلْتقي في الدُّنيا، فَتَأْتَلِفُ وتختلفُ على حَسَبِ ما جُعِلَتْ عليه مِنَ التشاكُلِ والتَّناكُرِ في بَدْءِ الخَلْقِ، فَتَرى البَرَّ الخَيِّرَ يُحِبُّ مِثْلَهُ، والفاجرَ يَأْلَفُ شَكْلَهُ، ويَنْفِرُ كُلٌّ مِنْ ضِدِّه»[٧].

---

(١) **جُنودٌ مجنَّدةٌ**: جُمُوعٌ مجتمعةٌ، وأنواعٌ مُختلفةٌ، والأرواحُ جَمْعُ رُوحٍ، وهو الَّذي يَقُومُ به الجَسَدُ، وتكونُ به الحياةُ.

(٢) **تعارف منها**: توافقتْ صفاتُها، وتناسبتْ في أخلاقِها.

(٣) **ائتلف**: مِنَ الأُلفةِ، وهي المحبَّةُ والمودَّةُ.

(٤) **تناكر منها**: تنافرتْ في طبائعِها.

(٥) **اختلف**: تباعد.

(٦) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٣٣٣٦)، ورواه مسلمٌ (٢٦٣٨) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ.

(٧) «شرح السُّنَّة» (١٣/ ٥٧).

قال الشاعرُ:

تعارَفُ أرْوَاحُ الرِّجالِ إذا الْتَقَوْا ... فَمِنْهُمْ عَدُوٌّ يُتَّقَى وخَلِيلُ
كذاك أُمُورُ النَّاسِ، والنَّاسُ مِنْهُمُ ... خَفِيفٌ -إذا صاحَبْتَهُ- وثَقِيلُ [1]

وقال أحمد عبيد - رَحِمَهُ اللهُ -:

بحثتُ عن الأَدْيَانِ في كُلِّ أمةٍ ... وَطُفْتُ بلادَ اللهِ غَرْبًا وَمَشْرِقَا
فلم أرَ كالإسلامِ أدْعَى لأُلْفَةٍ ... ولا مثلِ أهليهِ هوىً وتَفَرَّقَا

وقال ابنُ القيمِ - رَحِمَهُ اللهُ -:

(وأَنْتَ إذا تَأَمَّلْتَ الوُجُودَ، لا تَكَادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ يتحابَّان إلَّا وبَيْنَهما مُشَاكلةٌ، أو اتِّفاقٌ في فِعْلٍ، أو حالٍ، أو مقصدٍ، فإنْ تباينت المقاصدُ، والأَوْصَافُ، والأَفْعَالُ، والطَّرائقُ لَمْ يَكُنْ هناك إلَّا النفرةُ، والبُعْدُ بَيْنَ القُلُوبِ، ويَكْفي في هذا الحديثِ الصَّحيح عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَثَلُ المُؤْمنِينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعَاطُفِهِمْ كمَثَلِ الجَسَدِ الواحدِ، إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى[2]»)[3].

وقال - رَحِمَهُ اللهُ -: «إذا كانت المحبَّةُ بالمُشاكلةِ والمُناسبةِ، ثَبَتَتْ وتمكَّنَتْ، ولم يُزِلْها إلَّا مانعٌ أَقْوَى مِنَ السَّبَبِ، وإذا لَمْ تَكُنْ بالمُشاكلةِ، فإنَّما هي محبَّةٌ لغرضٍ مِنَ الأَغراضِ، تَزُولُ عِنْدَ انقضائِهِ وتَضْمَحِلُّ، فَمَنْ أحبَّكَ لأَمْرٍ ولَّى عِنْدَ انقضائِهِ، فداعي المحبَّةِ وباعِثُها إنْ كان غَرَضًا للمُحِبِّ، لم يَكُنْ لمحبَّتِهِ بقاءٌ»[4].

---

(١) «ديوان طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ» (ص١٢١).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) عَنِ النُّعْمانِ بْنِ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -.
(٣) «روضة المُحبِّين» (ص٥٤).
(٤) المرجع السابق (ص٥١).

قال الشاعر:

إنْ كُنْتَ حُلْتَ[١] وبي اسْتَبْدَلْتَ مُطَّرِحًا ... وُدًّا، فَلَمْ تَـأْتِ مَكْروهًا ولا بِدَعا[٢]

فكُلُّ طَـيرٍ إلى الأَشْـكـالِ مَوْقِعُها ... والفَرْعُ يَجْرِي إلى الأَعْـراقِ مُنْتَزِعَا[٣]

وقال أستاذنا العماد- حفظه الله- :

وإنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ، أُحِبُّ ذوي التُّقى ... كـذلك أَهْـلُ الـشَّرِّ يَـجْمَعُهُمْ إِلْفُ

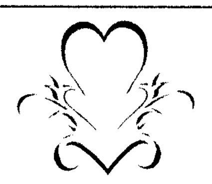
تراهُمْ إلى بَعْضٍ يَـوَدُّون بَعْضَهُمْ ... ولا خَـيْرَ في قَـوْمٍ قُـلُـوبُهُـمُ غُلْفُ

إذا اشْـتَـدَّتِ الدُّنيا عليهِمْ رَأَيْتَهُمْ ... ومـا بَيْنَهُمْ وُدٌّ يُراعَى ولا عُـرْفُ[٤]

عُقودُ ماسٍ :

قال مالكُ بنُ دينارٍ — رحمه الله — **لختنه**[٥]: «يا مُغيرةُ، انْظُرْ كُلَّ أَخٍ لك، وَصَاحِبٍ لكَ، وصديقٍ لك لا تَسْتَفيدُ في دينِكَ منْهُ خَيْرًا، فانْبِذْ عَنْكَ صُحْبَتَهُ، فإنَّما ذلك لك عَدُوٌّ، يا مُغيرةُ، النَّاسُ أَشْكَالٌ: الحَمامُ مَعَ الحَمام، والغُرابُ مَعَ الغُرابِ، والصَّعْوُ مَعَ الصَّعْوِ[٦]، وكُلٌّ مَعَ شَكْلِه» .

«المنتقى من مكارم الأخلاق» (ص١٥٩).



(١) حلت: انْقَلَبْتَ عَنِ العَهْد.

(٢) يقولُ: أيُّها المُستبدلُ بي غَيْري، لا عَيْبَ عليك؛ إنَّما أنت تبعُ مَنْ تُجالسُهُ.

(٣) «روضة العُقلاء» (ص١٨٢).

(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

(٥) **الخَتَنُ** ـ بفتحَتَيْن ـ : واحدُ الأَخْتان، وهُوَ عِنْدَ العَرَبِ كُلُّ مَنْ كان مِنْ قِبَلِ المرأةِ، مثل: الأَبِ، والأَخِ، وعِنْدَ العامَّة زَوْجُ البِنْت.

(٦) **الصَّعْوُ** ـ بالفَتْح ـ : جَمْعُ صَعْوَةٍ، وهو طائرٌ أَصْغَرُ مِنَ العُصْفُورِ، ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على صِعَاءٍ.

مَصْنَعُ الحُبِّ



إنَّ الكَرَمَ يَجْتَذِبُ القُلُوبَ، وَيَصْنَعُ الحُبَّ، وَيُثْمِرُ المَوَدَّةَ، وَيَسُلُّ السَّخِيمَةَ، وَيَذْهَبُ بِالضَّغِينَةِ.

يَكْفِي الكَرَمَ شرفًا وفَضْلًا أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ ـ سُبْحانَهُ وتعالى ـ: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ (النمل: ٤٠).

وهُوَ ـ أيضًا ـ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الأنبياء ـ عليهمُ السَّلامُ ـ.

يقولُ جابرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ـ رضي الله عنهما ـ: «ما سُئِلَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ عَنْ شَيْءٍ ـ قَطُّ ـ فقال: لا»[١].

مـا قــال لا إلَّا في تَـشَـهُّـدِهِ ... لَـوْلَا التَّشَهُّدُ كانتْ لاؤُهُ نَعَمُ

يَـكَـادُ يُـمْـسِـكُـهُ عِـرْفَـانَ راحَـتِـهِ ... رُكْنُ الحطيمِ[٢] إذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ

وَقَدْ كان جَودُهُ وكَرَمُهُ ـ ﷺ ـ سَبَبًا في دُخُولِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ في دِينِ اللهِ أَفْواجًا.

يقولُ أَنَسٌ ـ رضي الله عنه ـ:

«ما سُئِلَ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ على الإسلام شَيْئًا إلَّا أَعْطَاهُ، فجاءَهُ رَجُلٌ، فأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ[٣]، فَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ، فقال: يا قَوْمِ، أَسْلِمُوا؛ فإنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطاءً لا يَخْشَى الفاقةَ[٤]»[٥].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٢) **الحَطيم**: هو ما بَيْنَ الرُّكْنِ والباب.

(٣) أَيْ: كثيرةً كأنَّها تملأ ما بَيْنَ جَبَلَيْنِ.

(٤) **الفاقة**: الفَقْر والحاجة.

(٥) رواه مسلم (٢٣١٢).

تَبَرَّعْتَ لي بالجُودِ حَتَّى نَعَشْتَني[١] وأَعْطَيْتَني حَتَّى حَسِبْتُكَ تَلْعَبُ
فأَنْتَ النَّدَى[٢]، وابْنُ النَّدَى، وأَخُو النَّدى حَلِيفُ[٣] النَّدى، ما للنَّدى عَنْكَ مَذْهَبُ

أقول: لَوْ كان شَيءٌ يَلْعَبُ بالقُلُوب لكان الكَرَمَ؛ لأنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، وبُغْض مَنْ أَسَاءَ إليها، فإذا مكَّنك اللهُ مِنَ لُعاعةٍ[٤] مِنَ الدُّنيا، فاشْتَرِ القُلُوبَ؛ فإنَّك إنَّما تَشْتَرِيها بأَرْزَاقِها، وتَرْبَحُ الأَجْرَ والحَمْدَ.

قال حاتمٌ الطائيُّ:

لَعَمْرُك، ما يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا، وضاق بها الصَّدْرُ؟
أَلَمْ تـر أنَّ المـالَ غـادٍ ورائـحٌ ويَبْقَى مِنَ المالِ الأَحادِيثُ والذِّكْرُ؟

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله-:

الشُّحُّ رَأْسٌ للـرَّذائلِ كُلِّها أَمَّا الفضائلُ رَأْسُهُنَّ الجُودُ
ابْذُلْ وجُدْ بالمُستطاعِ ولا تَخَفْ فاللهُ في عليائِهِ مَوْجُودُ
يَحْيَا الكَرِيمُ مُبَجَّلًا في قَوْمِهِ أَمَّا البَخِيلُ فجائعٌ مَحْسُودُ
قاسَى شقاوتَهُ ليُسْعِدَ غَيْرَهُ وإليهِ ذَمُّ الوارثينَ يَعُودُ[٥]

وهُنَاكَ نَوْعٌ عَزِيزٌ مِنَ الكَرَمِ - إنْ لم يَكُنْ أَعْلاهُ - وهُوَ كَرَمُ الرَّجُلِ عمَّا في أَيْدي النَّاسِ، ويُستدلُّ بِهِ على كَرَمِ النَّفْسِ، وطِيبِ الأَصْلِ.

قال ابنُ المُقفع: «عَوِّدْ نَفْسَكَ السَّخاءَ، واعْلَمْ أَنَّهُ سخاءَانِ:

---

(١) **نعشتني:** رَفَعْتني، وبابُهُ قَطَعَ.
(٢) **النَّدَى** - بزنَة الفَتَى -: الجُود والكَرَمُ.
(٣) **الحليف** - بزنَة الأمير -: الصَّديق يَحْلِفُ لصاحبه أَلَّا يَغْدرَ به، والجَمْعُ حُلفاءُ.
(٤) **اللُّعاعة** - بالضَّمِّ -: كُلُّ نباتٍ ليِّنٍ مِنْ أَحْرارِ البُقُولِ، فيها ماءٌ كثيرٌ لَزِجٌ، تُشَبَّهُ به الدُّنيا في قِلَّة البَقَاءِ.
(٥) «بلسم الحياة» مخطوط.

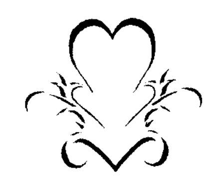
سَخَاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بما في يَدَيْهِ، وسَخَاوتُهُ عمَّا في أَيْدي النَّاسِ، وسَخاوَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بما في يَدَيهِ أَكْثَرُهُمَا، وأَقْرَبُهما مِنْ أَنْ تَدْخُلَ في بابِ المُفاخرةِ، وتَرْكُهُ ما في أَيْدي النَّاسِ أَمْحَضُ[1] في التَّكَرُّمِ، وأَبْرَأُ مِنَ الدَّنَسِ، فإنْ هُوَ جَمَعَهُما، فَبَذَلَ وعَفَّ، فَقَد اسْتَكْمَلَ الجُودَ والكَرَمَ»[2].

وأُعْـرِضُ عَنْ ذي المالِ حتَّى يُقالَ لي: لَـقَـدْ جـاءَ هـذا جَـفْـوَةً وتَـعَـظُّـما
ومـا بي جَـفَـاءٌ عَـنْ صَـدِيـقٍ ولا أَخٍ ولكنَّهُ فِعْلي إذا كُـنـتُ مُـعْـدِمـا[3]

عقودُ مرجان:

قال ابنُ القيِّم – رحمه الله –: «فَلِسَانُ حالِ القَدَرِ يَقُولُ للفَقيرِ الجَوادِ: وإنْ لَمْ أُعْطِكَ ما تَجُودُ بِهِ على النَّاسِ، فَجُدْ عَلَيْهِمْ بزُهْدِكَ في أموالِهِمْ، وما في أَيْدِيهِمْ، تَفْضُلْ عَلَيْهِمْ، وتُزاحِمْهُمْ في الجُودِ، وتَنْفَرِدْ عَنْهُمْ بالراحةِ».

«مدارج السَّالكين» (٢/ ٢٨٢).



(١) أَمْحَضُ: أَخْلَصُ.

(٢) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٤٤).

(٣) المُعْدِم: الفقير، يُقال: أَعْدَمَ الرَّجُلُ: إذا افتقر.

إنصاف



إنّ الإنصاف خُلقٌ رفيعٌ، ما تحلّى به أحدٌ إلّا تربّع على القلوب، وما شيءٌ أقطعُ لودّ ذي الودّ مثلُ قلّة الإنصاف.

وَلَمْ تَـزَلْ قِلَّـةُ الإنـصافِ قاطِعَةً بَيْنَ الرِّجالِ، وإنْ كانوا ذَوي رَحِمِ

الإنصافُ بَيْنَ الناس كما عَرَفَه ابْنُ القيم - رحمه الله -: «أنْ تُؤدِّيَ حُقُوقَهُمْ، وألَّا تُطالِبَهُمْ بما لَيْسَ لك، وألَّا تُحَمِّلَهُمْ فوْقَ وُسْعِهِمْ، وأنْ تُعامِلَهُمْ بما تُحِبُّ أنْ يُعامِلُوكَ به، وأنْ تُعْفِيَهُمْ، مِمَّا تُحِبُّ أنْ يُعْفُوكَ مِنْهُ، وَأنْ تَحْكُمَ لَهُمْ أوْ عَلَيْهِمْ بما تَحْكُمُ به لِنَفْسِكَ أوْ عَلَيْهَا»[١].

وقال - رحمه الله -:

وتَحَـلَّ بـالإنْـصَـافِ أَفْـخَـرِ حُـلَّـةٍ زِينَتْ بها الأَعْـطـافُ[٢] والكَتِفَانِ[٣]

والنبيُّ - صلى الله عليه وسلم - **يَحُثُّنا على الإنصاف، فيقولُ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفْسِه»**[٤].

ويقولُ: «وَلْيَأْتِ إلى النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إليه»[٥].

وَمِنَ الإنصافِ قَبُولُ الحقِّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، ولَوْ كان قائِلُهُ بَغيضًا، ورَدُّ الباطِلِ على كُلِّ أَحَدٍ، ولَوْ كان قائِلُهُ حَبيبًا.

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٤٠٧) بتصرُّف.

(٢) **الأعطاف**: جَمْعُ عِطْفٍ - بالكَسْرِ -، وهُوَ الجانِبُ.

(٣) «نونيَّة ابْنِ القيِّم» بشرح محمد خليل هراس (١/ ٥٢).

(٤) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٧١) من حديث أنس - رضي الله عنه -.

(٥) رواه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عَمْرٍو - رضي الله عنهما -.

ألا تَرَى أنَّ مَلِكَةَ سَبَإٍ في حالِ كَوْنِها تَسْجُدُ للشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ هي وقومُها، لَمَّا قالتْ كلامًا حَقًّا صَدَّقَها اللهُ فيه، ولَمْ يَكُنْ كُفْرُها مانعًا مِنْ تصديقِها في الحقِّ الَّذي قالَتْهُ، وذلك في قَوْلِها فيما حَكَى اللهُ عنها:

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾، فقـال اللهُ - سبحانه وتعالى - مُصَدِّقًا لها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (النمل: ٣٤).

وقَدْ تَقُولُ قَوْلًا تَرَاهُ صَوابًا، فَيَنْقُدُهُ آخَرُ بميزانِ العِلْمِ الصَّحيحِ، ولَمْ تَجِدْ حَرَجًا مِنْ أَنْ تَقُولَ: أَخْطَأْتُ في قَوْلي، ومَتى فَعَلْتَ ذلك، فَقَدْ أَنْصَفْتَ نَفْسَكَ مِنْ نَفْسِكَ.

عَنِ الرَّبيعِ بنِ سُليمانَ قال: سَمِعْتُ الشَّافعيَّ - رحمه الله - يَقُولُ: «ما أَرَدْتُ الحقَّ والحُجَّةَ على أَحَدٍ، فَقَبِلَها، إلَّا هِبْتُهُ، واعْتَقَدْتُ مَوَدَّتَهُ، ولا كابَرَني على الحَقِّ أَحَدٌ، ودَافَعَ الحُجَّةَ، إلَّا سَقَطَ مِنْ عَيْني»[1].

قال الشَّاعرُ:

إذا أَنْـتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَـاكَ وَجَدْتَهُ ... عَلَى طَـرَفِ الهِجْرَانِ لَـوْ كان يَعْقِلُ

وقال أُستاذُنا عَبْدُ الكريمِ العمادُ - حفظه اللهُ -:

أَنْصِفْ وإنْ كُـنْتَ ذَا جاهٍ ومَرْتَبَةٍ ... وَعُـدْ إلى الحَـقِّ مَهْمـا كُنْتَ مُقْتَدِرا

فَـمَـنْ تَـكَـبَّرَ في حَـقٍّ أُهِـينَ بِـهِ ... ومَـنْ تَـوَاضَعَ في حَقٍّ فَقَدْ كَبُرا [2]

وقال - أيضًا -:

وإنَّ أَحَـبَّ النَّـاسِ عِنْـدي مُنْصِفٌ ... وإنْ قـالَ بـي مـا لا أُحِـبُّ مِنَ الذَّمِّ

وأَبْغَـضُـهُمْ - واللهِ - عِـنْـدي مُنافِقٌ ... مَـدائِـحُـهُ بـالـزُّورِ شَرٌّ مِـنَ الشَّتْمِ

إذا عَـلِـمَ الإنْـسـانُ مِـقْـدارَ نَفْسِهِ ... يَرَى أَنَّ سَيْفَ الحَقِّ خالٍ مِنَ الظُّلْمِ[3]

---

(١) «صفة الصَّفوة» لابن الجَوْزيِّ (٢/ ١٦٧).

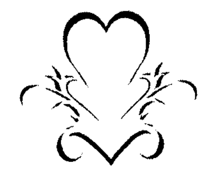
(٢) «بلسم الحياة» مخطوط.

(٣) «بلسم الحياة» مخطوط.

نسيم:

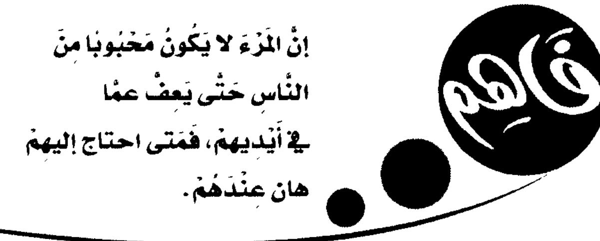
قال ابن حزم - رحمه الله -:

«مَنْ أراد الإنصافَ، فَلْيَتوَهَّمْ نَفْسَهُ مكانَ خَصْمِهِ؛ فإنَّهُ يَلُوحُ لَهُ وَجْهُ تَعَسُّفِهِ[1]». «الأخلاق والسِّير» (ص٨٠).



(١) التَّعَسُّف: الظُّلْم.

عفة



مِن وَصيَّةِ جبريلَ - عليه السلام - **لرَسُولِ الله** - ﷺ -: «واعْلَمْ أنَّ شَرَفَ المُؤْمِنِ قِيامُهُ باللَّيْلِ، وعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤهُ عَنِ النَّاسِ»[١].

وَمِن وَصيَّةِ رَسُولِ الله - ﷺ -: «وأَجْمِعِ اليَأْسَ عمَّا في أَيْدي النَّاسِ»[٢].

وعَنْ عَوفِ بنِ مالكٍ - رضي الله عنه - **قال**: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله - ﷺ - تِسْعَةً، أَوْ ثمانيةً، أو سَبْعةً، فقال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟!». وكُنَّا حَدِيثِيْ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنا: «قَدْ بايَعْنَاكَ يا رَسُولَ الله». ثُمَّ قال: «ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟!». فَقُلْنا: قَدْ بايَعْنَاكَ يا رَسُولَ الله. ثُمَّ قال: «ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟». قال: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنا، وقُلْنا: قَدْ بايَعْنَاكَ يا رسولَ الله، فَعَلَامَ نُبايِعُكَ؟!. قال: «على أَنْ تَعْبُدوا اللهَ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، والصَّلَواتِ الخَمْسِ، وتُطِيعُوا - وأَسَرَّ كَلِمةً خَفِيَّةً - ولا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا».

فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سوط أَحَدِهِمْ، فما يَسْأَلُ أَحَدًا يُناوِلُهُ إِيَّاهُ[٣].

---

(١) (حسن) أخرجه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» (١/ ٦١)، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٨٣١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ - رضي الله عنه -.

(٢) (صَحيح) أَخرجه ابْنُ ماجَهْ (٤١٧١)، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٤٠١) عَنْ أبي أَيُّوبَ - رضي الله عنه -.

(٣) رواه مسلم (١٠٤٣).

هُمُ القَوْمُ، إنْ قالُوا أَصابُوا، وإنْ دُعُوا أَجَابُوا، وإنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا [١]

ولا يستطيعُ الفاعِلونَ فعالَهُمْ ولَوْ حاوَلُوا في النَّائباتِ وأَجْمَلُوا

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ [٢]، ولكنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» [٣].

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «فَغَنِيُّ النَّفسِ الَّذي لا يَسْتَشْرِفُ - أَيْ: يتطلَّعُ - إلى المَخْلُوقِ، فإنَّ الحُرَّ عَبْدٌ ما طَمِعَ، والعَبْدُ حُرٌّ ما قَنِعَ.

وقد قيل: أَطَعْتُ مَطامعي فاسْتَعْبَدَتْني. فَكُرِهَ أَنْ يتبعَ نَفْسَهُ، ما استشرفت له؛ لئَلَّا يَبْقَى في القَلْبِ فَقْرٌ وطَمَعٌ إلى المَخْلُوقِ، فإنَّهُ خِلافُ التَّوكُّلِ المَأْمُورِ بِهِ، وخِلافُ غِنَى النَّفْسِ» [٤].

قال أبو فراس:

إنَّ الغَنِيَّ هُوَ الغَنِيُّ بذَاتِهِ وَلَوَ أَنَّهُ عاري المناكب حافي

ما كُلُّ ما فَوْقَ البَسيطةِ كافيًا فإذا اقتنعْتَ فكُلُّ شَيْءٍ كافي

وقال آخر:

وَأُعرِضُ عن ذِيْ المَالِ حَتَّى يُقَالَ لِيْ أَأَحْدَثَ هذا جَفْوَةً وتَعَظُّما

وَمَا بِيْ جَفَاءٌ عَنْ صَديقٍ وَلَا أَخٍ ولكِنَّهُ فِعْلِيْ إذا كُنْتُ مُعْدِمَا

وقال عليُّ بْنُ محمد بن الحسن: ٥٦

إذا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللِّئام كَفَتْكَ القَناعةُ شِبَعًا ورِيَّا

فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ في الثَّرَى وهَامَتُهُ [٥] هِمَّةً في الثُّرَيَّا [٦]

---

(١) أَجْزَلَ لَهُ العَطاءَ: أَكْثَرَ وأَعْظَمَ.

(٢) العَرَض - بفتحتَيْن -: ما يُنْتَفَعُ به مِنْ متاع الدُّنيا.

(٣) رواه البخاريُّ (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٤) «الفتاوى» (١٨/ ٣٢٩).

(٥) الهامة: الرَّأْسُ، والجَمْعُ هَامٌ.

(٦) الثُّرَيَّا: سبعةُ نجومٍ مُنْضَمَّةٌ بَعْضُها إلى بَعْضٍ، تُشْبِهُ العُنْقودَ.

أَبِـيًّـا[١] لِـنَـائِـلٍ[٢] ذِي نِـعْـمَـةٍ تَـرَاهُ بِـهَا فِي يَـدَيْـهِ أَبِـيًّـا
فَـإِنَّ إِرَاقَـةَ مَـاءِ الْحَـيَـاةِ دُونَ إِرَاقَـةِ مَـاءِ الْمُـحَـيَّـا[٣]

وقال الحريريُّ:

لَعَمْرُكَ، مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً أَسِيرُكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ أَمِيرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ بِمَالِهِ أَمِيرُكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ أَسِيرُهُ

وقال أستاذنا العماد -حفظه الله- :

ولي عِزَّةٌ في النَّفْسِ لَوْ هِيَ قُسِّمَتْ على النَّاسِ تَلْقَى أَبْأَسَ النَّاسِ سَيِّدا
ولا عَيْبَ في فَقْري وبُؤسي وحاجتي ولا عارَ إلَّا أَنْ أَمُدَّ لَهُمْ يَدَا
تَعَفَّفْتُ حتَّى نافَسُوني على الغِنَى وأَصْبَحَ حَوْلِي أَيْسَر النَّاسِ حُسَّدا[٤]

نتيجة:

عَنْ ثَوْبَانَ – رضي الله عنه – **قال:** قال رَسُولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «**مَنْ تَكَفَّلَ**[٥] **لي أَلَّا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، فَأَتَكَفَّلَ لَهُ بالجَنَّةِ؟**».

فقال ثَوْبَانُ: أَنَا. فكان لا يَسْأَلُ أَحَدًا شيئًا.

(رواه أبو داوُدَ (١٦٤٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٦٠٣)).



(١) أبيًّا: رافضًا كارهًا.
(٢) لنائل: لمعطي خَيْرٍ.
(٣) المُحَيًّا: الوَجْه.
(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.
(٥) تكَفَّل: ضَمِنَ.

لــذة

إنّ لذّةَ العفوِ فوقَ لذّةِ الانتقام؛
لأنّ الانتقامَ أوّلُه لذاذةٌ، وآخِرُه
مرارةٌ، ولا بُدّ.
والعفوُ أوّلُه مرارةٌ، يعقبُها
نعيمٌ إلى الأبد.

وتأمّلْ معي قَوْلَهُ ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

أي: مَنْ عَفَا فذلك أَقْرَبُ لصلاحِهِ وتَقْواهُ، مَعَ ما فيه مِنْ سلامةِ الصَّدْرِ، وطُمَأْنينةِ النَّفْسِ، والرَّاحةِ مِنْ هَمِّ العَداوةِ.

وقَدْ يَقلبُ العَفوُ والصَفحُ العَداوةَ إلى محبّةٍ وصداقةٍ في الحال، دلّ على ذلك قَوْلُهُ ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

(فصلت: ٣٤، ٣٥).

فكَيْفَ كانتِ النّتيجةُ؟ أَلَيسَتْ قَدْ جاءَتْ بـ«إذا» الفُجَائيَّةِ الّتي تَدُلُّ على الحدوثِ الفَوْريِّ في نَتيجَتِها ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾؟[1].

أَتَيْتُكَ تائبًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ	وخَيْرُ النَّاسِ مَنْ أَخْطَا فتَابا
أَلَيْسَ اللهُ يُسْتَعْفَى فَيَعْفُو	وقَدْ مَلَكَ العُقُوبةَ والثَّوابا؟

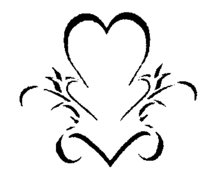
(١) انظر «مكارم الأخلاق» للعُثيمين (ص٢٦).

ياقوت

قال العلّامة ابنُ حَزْمٍ - رحمه الله -:

«مَنْ أَسَاءَ إلى أَهْلِهِ وجيرانِهِ، فَهُوَ أَسْقَطُهُمْ، ومَنْ كافَأَ مَنْ أَسَاءَ إليهِ مِنْهُمْ، فَهُوَ مِثْلُهُمْ، ومَنْ لَمْ يُكَافِئْهُمْ بإساءَتِهِمْ، فَهُوَ سَيِّدُهُمْ وخَيْرُهُمْ وأَفْضَلُهُمْ».

«الأخلاق والسِّير» (ص٨٥).



إقالة

إنَّ النَّاسَ جُبِلُوا على حُبِّ
مَنْ عُرِفَ بالإغضاء، والنُّفور
عمَّن اشْتَهر بالاستقصاء؛
لأنَّ الاستقصاءَ طبيعةُ اللِّئام،
والإغضاءَ سَجيَّةُ الكرام.

كُلٌّ منَّا لابُدَّ أَنْ يَهْفُوَ، ويُحِبَّ أَنْ يَجِدَ مَنْ يَعْذِرُهُ؛ لذلك جاء في الحديث: «**مَنْ أقال**[1] **مُسْلِمًا، أقال اللهُ عَثْرَتَهُ**»[2].

ويتأكَّدُ قَبُولُ العُذْرِ في حقِّ صاحبِ المَنْزِلَةِ والوَجَاهةِ الَّذي لا يُعْرَفُ بالشَّرِّ؛ لأنَّ النَّبيَّ - ﷺ - أَمَرَنا بإقالةِ عَثَراتِه بقَوْلِه: «**أَقِيلُوا ذَوِي الهَيْئاتِ**[3] **عَثَراتِهِمْ إلَّا الحُدُودَ**»[4].

ومن شوارد العباس بن الأحنف -عفا الله عنه- قوله:

تَحَمَّلْ عَظيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ ... وإنْ كُنْتَ مظلومًا فَقُلْ أنَا ظَالِمُ
فإنَكَ إنْ لم تَغْفِرِ الذَّنْبَ في الهَوَى ... يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَى وأَنْفُكَ رَاغِمُ

وقال أبو العتاهية - رحمه الله -:

خَلِيْلَيَّ إنْ لَمْ يَغْتَفِرْ كُلُّ وَاحِدٍ ... عِثَارَ أَخِيْهِ مِنْكُمَا فَتَرَافَضَا

---

(١) **الإقالة**: الصَّفْح عَنِ الذَّنْب.

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ (٣٤٦٠)، وابْنُ ماجَهْ (٢١٩٩) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٢٩٥٤)، و«صحيح الجامع» (٦٠٧١).

(٣) قال الشَّافعيُّ - رحمه الله - في تعريف ذَوي الهَيْئاتِ ـ كما في «الصَّحيحة» (٦٣٨) ـ: «إنَّهُمُ الَّذينَ لَيْسُوا يُعرفون بالشَّرِّ، فَيَزِلُّ أَحَدُهُمْ الزَّلَّةَ».

(٤) (صحيح) رواه أبو داوُدَ (٤٣٧٥) عَنْ عائشةَ - رضي الله عنها -، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٦٣٨).

وَمَـا يَلْبَثُ الخِـلَّانِ إنْ لَمْ يُجَـوِّزَا كَثِيرًا مِـنَ الْمَكْـرُوهِ، أن يَتَبَاغَضَا
خَلِيْلِيَّ بَـابُ الْفَضْلِ أنْ يتَوَهَبَا كَـمَا أَنَّ بَـابَ النَّقْصَ أنْ يتَقَارَضَا

وقال الحريري — رحمه الله — وأحسن:

سَـامِـحْ أَخَـاكَ إذَ خَـلَـطْ مِـنْـهُ الإصَـابَـةَ بـالـغَـلَـطْ
وَتَجَـافَ عَـنْ تَـعْـنِـيْـفِـهِ إنْ زَاغَ يَـوْمًـا أو قَـسَـطْ[1]
واقْـنَ الـوَفَـاءَ[2] وَلَـوْ أخـلَّ بـمَا اشْـتَرَطْـتَ ومـا اشْـتَرَطْ
واعـلـم بِـأنَّـك إنْ طَـلَـبْـتَ مُـهَـذَّبًـا رُمْـتَ الـشَّـطَـطْ[3]
مَـن ذا الَّـذي مـا سَـاءَ قَـطْ وَمَـنْ لَـهُ الحُـسْـنَـى فقط

وَمِنْ دُرَرِ العلَّامة ابنِ القيِّم — رحمه الله — قولُه:

«مَنْ أساء إليك، ثمَّ جاء يَعْتَذِرُ عَنْ إساءتِه؛ فإنَّ التَّواضُعَ يُوْجِبُ عَلَيْكَ قَبُولَ مَعْذِرَتِهِ ـ حقًّا كانت أَوْ باطلًا ـ وَتَكِلُ سَرِيرَتَهُ إلى الله ـ تعالى ـ، كما فعل رَسُولُ الله — صلى الله عليه وسلم — في المُنافقين الَّذين تَخَلَّفُوا عَنْهُ في الغَزْوِ، فلمَّا قَدِمَ جاءُوا يَعْتَذِرُونَ إلَيْه، فَقَبِلَ أَعْذَارَهُمْ، ووَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إلى الله ـ تعالى ـ[4].

وعَلَامَةَ الكَرَمِ والتَّواضع أَنَّكَ إذا رَأَيْتَ الخَلَلَ في عُذْرِه، لا تُوقِفُهُ عليه، ولا تُحاجُّهُ، وقُلْ: يُمْكِنْ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ كما تَقُولُ، ولَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكانَ، والمَقْدُورُ لا مَدْفَعَ لَهُ، ونَحْوَ ذلك»[5].

---

(١) **قسط**: جار وظلم.
(٢) **أقن الوفاء**: احصل عليه واحتويه.
(٣) **الشطط**: مجاوزة الحد.
(٤) انظر «صحيح البخاريِّ» (٤٤١٨).
(٥) «تهذيب مدارج السالكين».

ومن درر أبي الحسن الطغراني -عفا الله عنه- :

أخَـاكَ أخَـاكَ فَـهْـوَ أجَـلُّ ذُخْـرًا ... إذا نَـابَـتْـكَ نَـائِـبَـةُ الـزَّمَـان[1]
وإن بَـانَـتْ إسَـاءَتُـهُ فَـهَـبْـهَـا ... لِـمَـا فـيْـه مِـنَ الـشِّـيَـم الحِـسَـان
تَـرِيْـدُ مُـهَـذَّبًـا لا عَـيْـبَ فِـيْـهِ ... وَهَـلْ عُـودٌ يَـفُـوحُ بِـلاَ دُخَـانِ

وقال غيره:

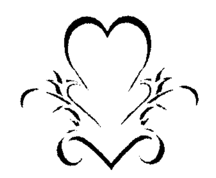
إذَا مـا أتَـى الجَـانِيْ مُـقِـرًّا بِذَنْبِه ... يَسُومُكَ عَفْوًا[2] لا تُـخَيِّبْ لَـهُ ظَنًّا
فَإنْ كَانَ مِنْ أهـلِ الـمَسَاءَةِ والخَطَا ... فَكُنْ أنْتَ من أهْلِ التجاوز والـحُسْنَى

وقال الشّافعيُّ -رحمه الله-:

اقْبَلْ مَعَاذِيْرَ مَـنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا ... إنْ بَرَّ[3] عِنْدَكَ فيما قال أوْ فَجرَا[4]
لَقَـدْ أطَـاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظاهِرُهُ ... وَقَدْ أجَلَّكَ مَنْ يَـعْصِيكَ مُسْتَترا[5]

مسك:

قال الحسن البصري -رحمه الله-: «أفْضَلُ أخْلاَقِ الْـمُؤمِنِ الْعَفْوُ».



---

(١) نابتك نائبة: أصابتك مصيبة.
(٢) يَسُومُكَ عفوًا: يسألك ويطلب منك.
(٣) بَرَّ: صدق.
(٤) فَجَرَ: كَذَبَ، وبابُهُ دَخَلَ.
(٥) ديوان الشّافعيِّ (ص٦٢) تحقيق البقاعيِّ.

توقير



إنَّ تَعْزِيرَ (١) وليّ الأمر وتَوْقيرَهُ أَصْلٌ مِنْ أُصُول أهْل السُّنَّة؛ لأنَّ مَن الْتَمَسَ ذُلَّهُ فقدْ ثَغَرَ (٢) في الإسلام ثُغْرَةً.

قال رَسُولُ الله - ﷺ -: «ستُّ خِصَالٍ ما مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ في واحدةٍ منْهُنَّ إلَّا كُنْتُ ضامنًا على الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجنَّةَ ...» وذكر منه: «رَجُلٌ أتى إمامًا لا يأْتيه إلَّا ليُعَزِّرَهُ ويُوَقِّرُه، فإن مَنْ مات في وَجْهِهِ ذلك، كان ضامنًا على الله»[٣].

وقال - ﷺ -: «سَيَكُونَ بَعْدِي سُلْطَانٌ فعزِّروهُ، مَنِ الْتَمَسَ ذُلَّهُ، ثَغَرَ ثُغْرَةً في الإسلام، ولَمْ يُقْبَلْ منْهُ توبةٌ، حتَّى يُعيدَها كما كانتْ»[٤].

قُلتُ: لا يَزَالُ دَأْبُ أَهْلِ البِدَعِ قَديمًا وحَديثًا تصيُّدَ عَثَراتِ الوُلاة، ونَشْرها مِنْ على المَنَابِرِ والمَحَافِلِ ومجالسِ الوَعْظِ، فَثَغَرُوا في الإسلام ثُغْرةً لا تُسَدُّ، وثَلَمُوا ثُلْمَةً لا تُصْلَحُ، وتنَكَّبُوا طَريقَ سَلَفِهِمُ الصَّالح، وأَمْثَالُ هؤلاء عَتَبُوا على أبي الوفاء ابْن عقيلٍ - رحمه الله - تقبيلَ يَدِ السُّلْطانِ، حِينَ صافَحَهُ!، وحُقَّ لَهُ مَا فَعَلَ، فقال: «أَرَأَيْتُم لَوْ كان والدي فَعَلَ ذلك، فقبَّلْتُ يَدَهُ، أكان خطأً، أَمْ واقعًا مَوْقعَهُ؟».

---

(١) التَّعزير: التَّعظيم والتَّفخيم.

(٢) ثَغَرَ: ثَلَمَ، وبابُهُ قَطَعَ.

(٣) (صحيح) أخرجه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٣٨٢٢) عن عائشةَ - رضي الله عنها -، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١١٤٨).

(٤) (صحيح) أخرجه ابنُ أبي عاصمٍ في «السُّنَّة» (١٠٧٩) عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (٤٩٩).

قالوا: بَلَى.

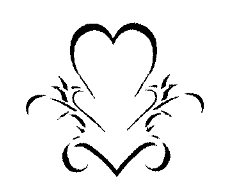
قال: فالأَبُ يُرَبِّي وَلَدَهُ تَرْبيةً خاصَّةً، والسُّلْطانُ يُرَبِّي العالَمَ تَرْبيةً عامَّةً؛ فَهُوَ بالإكرامِ أَوْلَى»[1].

قلتُ: لو كُنْتُ أنا مَكانَهُ، لقبَّلْتُ رِجْلَهُ، إذا كان لا يَحْصُلُ تَعْزيرُهُ وتَوْقيرُهُ إلَّا بذلك.

فرائد:

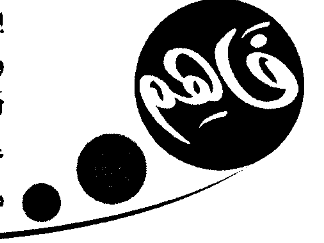
قال سهل بن عبد الله التُّستريُّ — رحمه الله —:

«لا يَزَالُ النَّاسُ بخَيْرٍ ما عظَّموا السُّلْطَانَ والعُلَماءَ، فإنْ عظَّموا هذَيْنِ؛ أَصْلَحَ اللهُ دُنْياهم وأُخْراهُمْ، وإنِ اسْتَخَفُّوا بهذَيْنِ؛ أَفْسَدُوا دُنْياهم وأُخْراهُمْ». «تفسير القُرْطُبيِّ» (٥/ ٢٦٠-٢٦١).



(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٧٦).

إسرار



إنَّ نصيحةَ السُّلطانِ مِنَ المَنابرِ والمَحافلِ والصُّحفِ السيَّاراتِ ليسَ مِنَ النَّصيحةِ، بل فضيحةٌ على الحقيقةِ؛ لأنَّها تُغريهمْ بالتَّمادي على أمرِهم لجاجًا[1] وحَرَدًا[2].

قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: «**أفْضَلُ الجِهادِ كَلِمةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائرٍ**». أَوْ: «**أميرٍ جائرٍ**»[3].

فـ«عِنْدَ» تُفِيدُ الظَّرْفِيَّةَ المكانيَّةَ أَيْ: عِنْدَ السُّلْطانِ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، مَعَ الرِّفْقِ؛ إذْ لَيْسَ سُلْطانُكَ بشَرٍّ مِنْ فِرْعَوْنَ، ولا أَنْتَ بأَفْضَلَ مِنْ مُوسَى -عليه السلام-.

ولْتكُنِ النَّصيحةُ فيما بَيْنَكَ وبَيْنَ سُلْطَانِكَ، كما فَعَلَ سَلَفُكَ؛ فإنَّهُ يَسَعُكَ ما وَسِعَهُمْ.

فقَدْ قِيلَ لأُسامةَ - رضي الله عنه -: «أَلَا تَدْخُلُ على عُثْمانَ فَتُكَلِّمَهُ؟. فقال: أَتَرَوْنَ أَنِّي لا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟!، واللهِ، لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فيما بَيْني وبَيْنَهُ، مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لا أُحِبُّ أَنْ أكونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ[4]»[5].

وها هُوَ النَّبيُّ - ﷺ - يَضَعُ إشارةً على طريقِ مَنْ أراد نصيحةَ سُلْطانِه - بقَوْلِه: «**مَنْ أراد أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطانٍ بأَمْرٍ، فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، ولكنْ لِيأْخُذْ بيَدِهِ، فَيَخْلُو به، فإنْ**

---

(١) **الحَرَدُ**: كالغَضَبِ زِنَةً ومعنًى.

(٢) **اللَّجاج** - بالفتح -: الخصومة.

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ (٤٣٤٤) عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٣٦٥٠).

(٤) **قال الأَلْبانيُّ** - رحمه الله - **في التعليق على هذا الحديث**: «يَعْني المُجاهرةَ على الأُمَراءِ في المَلَإ؛ لأنَّ في الإنكارِ جهارًا ما يُخْشَى عاقبتُهُ، كما اتفق في الإنكارِ على عُثْمانَ جهارًا، إذْ نَشَأَ عَنْهُ قَتْلُهُ».

(٥) رواه البُخاريُّ (٣٢٦٧، ٧٠٩٨)، ومسلم (٢٩٨٩) - واللَّفْظُ لَهُ - عَنْ أَسامةَ - رضي الله عنه -.

قَبِلَ منْهُ فَذاك، وإلَّا كان قَدْ أدَّى الَّذي عليه لَهُ»[١].

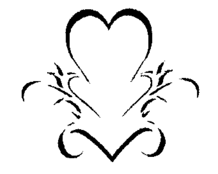
وَرَحِمَ اللهُ ابْنَ الورديّ القائلَ:

جانِبِ السُّلْطَانَ، واحْذَرْ بَطْشَهُ ... لا تُعانِدْ مَنْ إذا قالَ فَعَلْ

سبائك ذهبيّة:

قال الإمامُ أحمدُ - رحمه الله -: «لا يُتَعَرَّضْ للسُّلْطانِ؛ فإنَّ سَيْفَهُ مَسْلُولٌ[٢]».

«الآداب الشَّرْعيَّة» (١/ ١٩٧).

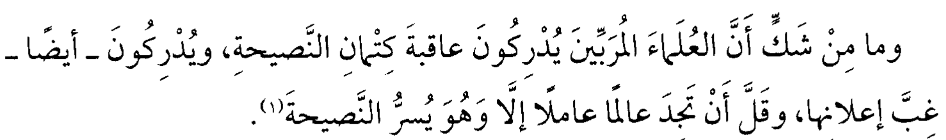


(١) (صحيح) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٠٣-٤٠٤) وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٧، ١٠٩٦) من حديث عياض بن غنم - رضي الله عنه - وصحَّحه الألْبانيُّ في «ظلال الجنَّة».

(٢) مَسْلُول: مُنْتَزَعٌ مِنْ غِمْدِه، وقَدْ سَلَّ سَيْفَهُ مِنْ باب رَدَّ.

سِرٌّ

إنَّ النَّصيحةَ لا تَكونُ نصيحةً بالغةً
حتَّى يُبالغَ النَّاصحُ في كِتْمانها جَهْدَهُ؛
لأنَّ مَنْ نَصَحَ أخاهُ سرًّا فقَدْ نَصَحَهُ،
ومَنْ نَصَحَهُ علانيةً فقَدْ فَضَحَهُ.



وما مِنْ شَكٍّ أَنَّ العُلَماءَ المُرَبِّينَ يُدْرِكُونَ عاقبةَ كِتْمانِ النَّصيحةِ، ويُدْرِكُونَ ـ أيضًا ـ غِبَّ إعلانِها، وقَلَّ أَنْ تَجِدَ عالمًا عاملًا إلَّا وَهُوَ يُسِرُّ النَّصيحةَ[1].

قال ابنُ المُبارَك ـ رحمه الله ـ: «كان الرَّجُلُ إذا رَأَى مِنْ أَخيهِ ما يَكْرَهُ، أَمَرَهُ في سِتْرٍ، ونهاه في سِتْرٍ، فَيُؤْجَرُ في سِتْرِه، ويُؤْجَرُ في نَهْيِه، فأمَّا اليَوْمَ فإذا رَأَى أَحَدٌ مِنْ أَحَدٍ ما يَكْرَهُ، اسْتَغْضَبَ أَخاهُ، وهَتَكَ سِتْرَهُ»[2].

وعَنْ سُفيَانَ قال: «جاء طَلْحَةُ إلى عَبْدِ الجَبَّارِ بْنِ وائلٍ ـ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ ـ فسارَّهُ بشيءٍ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

فقال: أَتَدْرُونَ ماذا قال لي؟.

قال: رَأَيْتُكَ الْتَفَتَّ أَمْسِ وأَنْتَ تُصَلِّي»[3].

---

(١) قَدْ تَكُونُ هُناكَ حالاتٌ نادرةٌ تَسْتَلْزِمُ إعلانَ النَّصيحةِ بَعْدَ إسرارِها: كأَنْ يَكُونَ هُناك شخصٌ يُجاهِرُ بالمُنْكَرات، فَيُسَرُّ لَهُ، فإذا لم يَقْبَلْ تُعْلَنُ النَّصيحةُ؛ حتَّى لا يَظُنَّ النَّاسُ أنَّ هذا لَيْسَ بمُنْكَرٍ؛ لأنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ إنكارَ أَحَدٍ.
وغَيْرِ ذلك مِنَ الأُمُورِ الَّتي يَعْرِفُها العُلَماءُ، ويَعْرِفُون المصالحَ والمفاسِدَ، وليس هُنا محلُّ بَسْطِها، ومَكَانُ ذلك كُتُبُ «الأَمْرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ»، على أنَّها حالةٌ نادرةٌ، وإلَّا فالأَصْلُ الإسرارُ.

(٢) «روضة العقلاء» (ص٣٢٩).

(٣) المرجع السابق (ص٣٢٩).

ومن درر المثقب العبدي:

فَـإِمَّـا أَنْ تـكُـونَ أَخِـي بِـحَـقٍّ ... فَـأَعْـرِفُ مِـنْـكَ غَـثِّـي مِـنْ سَمِيْنِي
وَإِلَّا فَـاطَّـرِحْـنِـي واتَّخِـذْنِي ... عُـدوًّا اتَّـقِـيـكَ وتَـتَّـقِـيـنِـي
وَإِنِّي لَـوْ تُـعَـانِـدُنِي شِـمَالِي ... عِـنَـادَكَ مَـا وَصَـلْـتُ بِهَـا يَمِينِي

وقال يحيى بنُ معين ـ رحمه الله ـ: «خَطَأُ عفَّانَ في نَيِّف[١] وعِشْرينَ حَديثًا، ما أَعْلَمْتُ بِهِ أَحدًا، وأَعْلَمْتُهُ فيما بَيْني وبَيْنَهُ، ولَقَدْ طَلَبَ إلى خَلَفُ بْنُ سالم أنْ أَذْكُرَها، فما قُلْتُ لَهُ، وما رَأَيْتُ على رَجُلٍ ـ قَطُّ ـ خَطَأً إلَّا سترتُهُ، وما اسْتَقْبَلْتُ رَجُلًا في وَجْهِهِ بما يَكْرَهُ، ولكنْ أُبَيِّنُ لَهُ خَطَأَهُ، فإنْ قَبِلَ، وإلَّا تَرَكْتُهُ»[٢].

ومن دُرر العلامة ابن حزم:

«إذا نَصَحْتَ فانْصَحْ سرًّا لا جَهْرًا، وبتَعْرِيضٍ لا تَصْرِيحٍ، إلَّا لِمَنْ لا يَفْهَمُ فَلا بُدَّ مِنَ التَّصْريحِ لَهُ، ولا تَنْصَحْ على شَرْطِ القَبُولِ مِنْكَ، فإنْ تعدَّيتَ هذه الوجوهَ، فأنتَ ظالمٌ لا ناصِحٌ، وطالبُ طاعةٍ ومُلْكٍ لا مُؤَدِّي حقٍّ أمانةً وأُخُوَّةً، ولَيْسَ هذا حُكْمَ العَقْلِ، ولا حُكْمَ الصَّداقةِ، لكنْ حُكْمَ الأَميرِ مَعَ رَعِيَّتِهِ، والسَّيِّدِ مَعَ عَبْدِهِ»[٣].

ولله درُّ الشافعيِّ حينَ قال:

تَـعَـمَّـدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْـفِـرادِي ... وجَـنِّـبْـنِـي النَّصِيحةَ فِي الجَـمَاعَـهْ
فَـإِنَّ الـنُّـصْـحَ بَـيْـنَ الـنَّـاسِ نَـوْعٌ ... مِـنَ التَّوبِيخِ لا أَرْضَى استِماعَهْ
فَـإِنْ خالَفْتَنِي وعَـصَـيْـتَ قَـوْلِي ... فـلا تَجْـزَعْ إذا لَمْ تُـعْـطَ طَـاعَـهْ[٤]

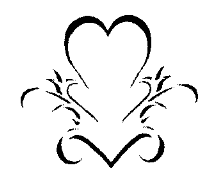
---

(١) النَّيِّفُ ـ بالفَتْحِ و المثَقَّلةُ أَفْصَحُ مِنَ المُخَفَّفةِ ـ: العَدَدُ الَّذي بَيْنَ عِقْدَيْنِ.
(٢) «تهذيب التَّهذيب» (١١/ ٢٥٠).
(٣) «الأخلاق والسِّير» (ص١٢٢ ـ ١٢٣).
(٤) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص١١٣).

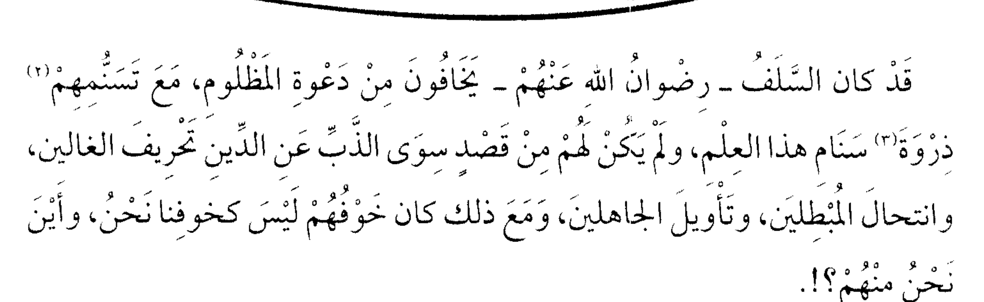
كلماتٌ نورانيّةٌ :

قال ابنُ حبانَ – رحمه الله – :

«علامةُ النَّاصحِ ـ إذا أراد زينةَ المَنْصُوحِ لَهُ ـ أَنْ يَنْصَحَهُ سِرًّا، وعلامةُ مَنْ أراد شَيْنَهُ أَنْ يَنْصَحَهُ علانيةً» «روضة العقلاء» (ص٣٢٩).



إبرُ النَّحل



قَدْ كان السَّلَفُ ـ رِضْوانُ اللهِ عَنْهُمْ ـ يَخافُونَ مِنْ دَعْوةِ المَظْلُومِ، مَعَ تَسَنُّمِهِمْ[٢] ذِرْوَةَ[٣] سَنَامِ هذا العِلْمِ، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَصْدٍ سِوَى الذَّبِّ عَنِ الدِّينِ تَحْرِيفَ الغالِينَ، وانتحالَ المُبْطِلِينَ، وتَأْوِيلَ الجاهلِينَ، وَمَعَ ذلكَ كانَ خَوْفُهُمْ لَيْسَ كخوفِنا نَحْنُ، وأَيْنَ نَحْنُ مِنْهُمْ؟!.

يَقُولُ أبو الرَّبيعِ محمدُ بنُ الفضلِ البَلْخيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ يقولُ: «إنَّا لَنَطْعَنُ على أَقْوامٍ لَعَلَّهُمْ قَدْ حَطُّوا رِحَالَهُمْ في الجَنَّةِ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ مائَةِ سَنَةٍ».

قال ابنُ مهرويه: «فَدَخَلْتُ على عَبْدِ الرَّحمنِ بْنِ أبي حاتمٍ ـ وَهُوَ يَقْرَأُ على النَّاسِ كتابَ الجَرْحِ والتَّعْديلِ ـ فحدَّثْتُهُ بهذا، فبكَى وارْتَعَدَتْ يَدَاهُ، حتَّى سَقَطَ الكِتابُ مِنْ يَدِهِ، وَجَعَلَ يَبْكي ويَسْتَعِيدُني الحِكايةَ»[٤].

فيا أخي، الكَلامُ في الرِّجالِ عَقَباتٌ، وأَيُّ عَقَباتٍ؟!، فإنْ كُنْتَ ـ لابُدَّ ـ فاعلًا

---

(١) **المجانيق**: جَمْعُ مَنْجَنيق ـ بالفتح ـ، وهي آلةٌ تُرْمَى بها الحِجارةُ، كانوا يَسْتعملُونها في الزَّمَنِ الماضي، ولمَّا ظهرَتِ المدافعُ أَغْنَتْ عنها. والمُرادُ: أنَّ دَعْوتَهُمْ صائبةٌ؛ لأنَّ دَعْوَةَ المَظْلُومِ لا تُرَدُّ.

(٢) **تَسَنَّمَ الشَّيءَ**: عَلاهُ.

(٣) **ذِرْوة الشَّيْءِ** ـ بالضَّمِّ والكَسْرِ ـ: أَعْلاهُ، والجَمْعُ ذُرا.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٩٥).

فبحَقِّه وإلَّا فَلا، فَانْجُ بنَفْسِكَ، ولا إخالُكَ ناجيًا.

فَـإنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذي عَظِـيمَةٍ وإلَّا فَـانيِّ لا إخـالُـكَ نَـاجِـيـا

قال الإمامُ ابنُ ناصرِ الدين الدِّمَشْقِي - رحمه الله -:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، إنَّ في مجالِ الكلامِ في الرِّجالِ عَقَبَاتٍ، مُرْتَقِيها على خَطَرٍ، ومُرتقيها هوى لا مَنْجَى لَهُ مِنَ الإثمِ ولا وَزَرَ[١]؛ فَلَوْ حاسَبَ نَفْسَهُ الرَّامي أخاهُ: ما السَّبَبُ الَّذي هاجَ ذلك، لتحقَّق أنَّهُ الهَوى الَّذي صاحِبُه هالكٌ»[٢].

واعْلَمْ أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ غَفْلَةٌ نَتيجةَ سَوابقَ تَمْنَعُهُ مِنْ رُؤْيَةِ الحقِّ، فيَظُنُّ أنَّ غَيْرَهُ هُوَ الصَّوابَ، فلا تَعْجَلْ عَلَيْهِ، ومَتَى عَجِلْتَ عليه، تعجَّلَ الدُّعاءَ واسْتَرْوَحَ إليه.

ورُبَّما كانتِ المَسْأَلَةُ لا تَحْتَمِلُ الفُرْقَةَ عِنْدَ العُلَماءِ الجَهَابذَةِ، وهي عِنْدَ غَيْرِهِمْ مُحْتملةٌ، فيقعُ الفَأْسُ على الرَّأْسِ.

وَرُبَّ ظَـلُـوم قَـدْ كُفِيتُ بحَرْبِهِ فَـأَوْقَـعَـهُ المَـقْـدورُ أَيَّ وُقُـوعِ
فـما كـانَ لِي الإسـلامُ إلَّا تَـعبُّـدًا وأَدْعِـيَـةً لا تُـتَّـقَـى بِـدُرُوعِ
وحَسْبُكَ أَنْ يَنْجُوَ الظَّلُومُ وَخَـلْفَهُ سِـهَـامُ دُعَـاءٍ مِـنْ قِـسِيٍّ[٣] رُكُـوعِ
مُرَيَّشةً[٤] بـالهُـدْبِ[٥] مِنْ كُلِّ ساهِرٍ مُـنْـهَـلَّـةً[٦] أَطْـرَافُـهـا بِـدُمُـوعِ[٧]

---

(١) الوَزَرُ - بالتَّحريك -: المَلْجَأُ والمُعْتَصَمُ.

(٢) «الرَّدُّ الوافر» (ص١٣).

(٣) القُسِيُّ - بكَسْر القاف وضَمِّها -: جَمْعُ قَوْس، وهي آلَةٌ على هَيئة هِلَالٍ، تُرْمَى بها السِّهَامُ.

(٤) رَيَّشَ السَّهْمَ فَهُوَ مُرَيَّشٌ: أَلْزَقَ على مُؤَخَّرَتِه الرِّيشَ؛ لتَزِيدَ سُرْعَتُهُ.

(٥) الهُدْب - بالضَّمِّ وبضمَّتَيْن -: شَعَرُ الأَجْفانِ، واحدَتُها بِهاء، وَجَمْعُها أَهْدابٌ.

(٦) مُنْهَلَّة: مُتَساقطَةٌ بشدَّة، يُقَالُ: انْهَلَّ المَطَرُ، إذا اشْتَدَّ انْصِبَابُهُ.

(٧) «ديوان الشَّافعيِّ» تحقيق د/ محمَّد عبد المنعم خفَاجي (ص١٠٩).

وَرُبَّما عَجلْتَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ الحَقُّ، ومَتَى تبيَّنَ لَهُ بَقِي في نَفْسِهِ ذلك العارِضُ، فمتى يَزُولُ؟!، وهذا ـ ونَحْوُهُ ـ يَحْصُلُ بَيْنَ أصحابِ المَنْهَجِ الواحِدِ.

بَلْ ويَحْصُلُ بَيْنَ النُّظَراءِ[١] ما هُوَ أَدْهَى مِنْ ذلك وأَمَرُّ مِنْ وَقيعةِ بَعْضِهِمْ في بَعْضٍ؛ فيَفْرَحُ العَدُوُّ، ويَسْتاءُ الصَّديقُ.

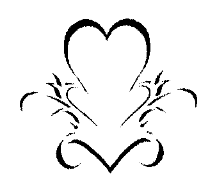
كمَن عناهُم ابنُ الجوزيِّ ــ رحمه الله ــ بقوله: «يَتزاوَرُونَ فيغتابُ بَعْضُهُمْ بعضًا، ويَطْلُبُ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ عَوْرَةَ أخيه، ويَحْسُدُهُ إنْ كانتْ نِعْمَةٌ، ويَشْمَتُ به إنْ كانتْ مَعْصِيةٌ، ويتكبَّرُ عليه إنْ صَحَّ لَهُ، ويُخادِعُهُ لتحصيلِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنيا، ويَأْخُذُ عليه العَثَراتِ إنْ أَمْكَنَ، هذا كُلُّهُ يَجْري بَيْنَ المُنْتَمينَ إلى العِلْمِ والزُّهْدِ، لا الرَّعَاعِ[٢]»[٣].

سبائك ذهبية:

قال الإمامُ الذهبيُّ ــ رحمه الله ــ:

«الكَلامُ في الرِّجَالِ لا يَجُوزُ إلا لتَامِّ المَعْرِفَةِ تَامِّ الوَرَعِ»

«ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٦).



(١) **النُّظَراء:** جَمْعُ نَظير، وهُوَ المِثْلُ.

(٢) الرَّعاع ـ بزِنَةِ سَحَابٍ ـ: سُقَّاط النَّاس وسَفِلَتُهُمْ، الواحِدُ رَعَاعة.

(٣) «صَيْدُ الخاطِرِ» (ص٢٢٥).

دفء المشاعر



إنَّ تذكيرَ المخاطَب بصلة تربطك به يهيّج مشاعرَ القرابة في نفسه، مع ما فيها من الإيناس، وشدّة الأسر.

تَهْييجُ مشاعرِ القرابةِ أَنْ تُذَكِّرَ القريبَ بصِلَةٍ تَرْبطُك به دُونَ أنْ تُسَمِّيَهُ باسْمِه، قدْ تَكُونُ كلمةً عابرةً، لكنّها تَطْرَبُ لها القُلُوبُ، وتَهْتَزُّ لها المشاعرُ، وتَهْفُو إليها النُّفُوسُ.

وَهُوَ خُلُقٌ مِنْ أخلاقِ الأَنْبياءِ والصَّالحينْ.

فها هُوَ إبراهيمُ الخليلُ -عليه السلام- يقولُ لأبيه:

﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ (مريم: ٤٢).

يقولُ ابنُ القيم -رحمه الله-: «فابْتَدَأَ خِطَابَهُ بذِكْرِ أُبُوَّتِهِ الدَّالَّةِ على تَوْقيرِهِ، ولَمْ يُسَمِّهِ باسْمِه»[1].

ويُوسُفُ -عليه السلام- يَستَعمِلُ رابطةَ المُصاحبة في السِّجْن، فيقولُ لصاحبَيه: ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ (يوسف: ٣٩).

ونبيُّنا محمّدٌ -صلى الله عليه وسلم- يُخاطِبُ قَومَهُ مِن قُرَيش: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣).

أَيْ: إلَّا أَنْ تُراعُوا القَرابةَ التِّي بَيْني وبَيْنَكُمْ، وتُوادُّوني بسببِ ذلك[2].

---

(١) انظر «بدائع الفوائد» (٣/ ١٣٣).

(٢) انظر «فقه الأخلاق» للعَدَويِّ (٢/ ٦).

فإذا كان لَكَ قَرِيبٌ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ، أَوْ جِهَةِ الأَبِ مَهْما عَلا[١]، فنادَيْتَهُ بِما يُذَكِّرُهُ بِصِلَةِ القَرابةِ ـ فسيهتزُّ لقَولِكَ ويَطْرَبُ.

وكَمْ كان للأنصارِ مِنْ قُوَّةِ الذَّكاءِ وحُسْنِ الأَدَبِ في خِطَابِهِمْ حِينَ قَالُوا لرَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ في شَأْنِ العَبَّاسِ ـ رضي الله عنه ـ: ائْذَنْ لَنَا، فَلْنَتْرُكْ لابْنِ أُخْتِنا[٢] عبَّاسٍ فِداءَهُ. فقال: «لا تَدَعُونَ منْهُ دِرْهَمًا»[٣].

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: «قال ابْنُ الجَوْزِيِّ: وإنَّما قالُوا ابن أُخْتِنا؛ لتكونَ المِنَّةُ عليهم في إطلاقِه، بخِلافِ ما لَوْ قالوا عمّكَ، لكانت المِنَّةُ عليه ـ ﷺ ـ ، وهذا مِنْ قُوَّةِ الذَّكاءِ، وحُسْنِ الأَدَبِ في الخِطَابِ، وإنَّما امْتَنَعَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ مِنْ إجابَتِهِمْ؛ لئلَّا يَكُونَ في الدِّينِ نَوْعُ مُحاباةٍ»[٤].

---

(١) لاشَكَّ أَنَّ حُكْمَ القَرابةِ مِنْ ذَوِي الأَرْحَامِ لا يَخْتَلِفُ في هذا عَنِ العَصَباتِ لأدلَّةٍ، منْها:

ما أخرجه التِّرْمذِيُّ (٣٧٥٢) بسندٍ صحيحٍ، صَحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح التِّرْمذِيِّ» (٢٩٥١): أَنَّهُ ـ ﷺ ـ قال في شَأْنِ سَعْدِ بْنِ أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ: «**هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خالَهُ**».

قال أبو عيسى التِّرْمذِيُّ ـ رحمه الله ـ: «وكان سَعْدٌ مِنْ بني زُهْرَةَ، وكانتْ أُمُّ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ مِنْ بني زُهْرَةَ؛ لذلك قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: هَذَا خَالِي».

وأخرج مسلمٌ (٢٣١٥) عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: «وُلِدَ لِيَ اللَّيْلَةَ غُلامٌ، فَسَمَّيْتُهُ باسْمِ أبي إبراهيمَ».

وأخرج التِّرْمذِيُّ (٣٨٩٤) بسندٍ صحيحٍ، صحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح التِّرْمذِيِّ» (٢٩٥١) عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ: أن النَّبيَّ ـ ﷺ ـ قال لصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ: «إِنَّكِ لابْنَةُ نَبِيٍّ، وإنَّ عَمَّكِ لنبيٌّ، وإنَّكِ لتحتَ نَبِيٍّ».

(٢) قال الحافظُ ـ رحمه الله ـ في «فتح الباري» (٥/ ٤٧٤): «والمُرادُ: أَنَّهُمْ أَخْوالُ أبيه عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فإنَّ أُمَّ العبَّاسِ هي نُتَيْلَةُ ـ بالنُّون والمُثَنَّاة مُصَغَّرةٌ ـ بِنْتُ جَنَّابٍ ـ بالجيم والنُّون ـ، ولَيْسَتْ مِنَ الأَنْصارِ، وإنَّما أرادُوا بذلك: أنَّ أُمَّ عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنْهُمْ؛ لأنَّها سَلْمَى بِنْتُ عَمْرِو بْنِ أُحَيْحَةَ ـ بمُهْمَلَتَيْنِ مُصَغَّرٌ ـ، وهي مِنْ بني النَّجَّارِ، ومِثْلُهُ ما وَقَعَ في حَدِيثِ الهِجْرةِ: أَنَّهُ ـ ﷺ ـ نَزَلَ على أَخْوالِه بني النجار، وأخوالُهُ ـ حقيقةً ـ إنَّما هُمْ بنو زُهْرَةَ، وبنو النَّجَّارِ أَخْوَالُ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ». أهـ.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٥٣٧).

(٤) «فتح الباري» (٥/ ٤٧٤).

وقال - رحمه الله -: «وأراد المُصَنِّفُ - أي: البُخاريُّ - بإيرادِه هُنا - أَيْ: هذا الحديث - : الإشارةَ إلى أنَّ حُكْمَ القَرابةِ مِنْ ذَوِي الأَرْحَامِ في هذا لا يَخْتَلِفُ مِنْ حُكْمِ القرابةِ مِنَ العَصَباتِ، والله أَعْلَمُ»[1].

أَيْـقِـظْ شُـعُـورَكَ بالمحبَّةِ إنْ غَفَا ... لَـوْلَا الشُّعُورُ النَّاسُ كانوا كالدُّمى

أَحْـبِـبْ فَيَغْدُو الـكُـوخُ كونًا نَـيِّرًا ... وأَبْغِضْ فَيُمْسي الكَوْنُ سِجْنًا مُظْلِما

لَـوْ تَعشقُ الـبَـيْـدَاءُ أَصْـبـحَ رَمْلُها ... زَهْـرًا، وصَـار سَرابُهـا الخَـدَّاعُ ما

وَالْـهُ بِـوَرْدِ الـرَّوْضِ عَـنْ أَشْـواكِـه ... وانْسَ العَقَارِبَ إنْ رَأَيْـتَ الأَنْجُما

خلاصة:

ممّا أفادَتني التَّجارِبُ: أَنَّهُ لا مِفْتَاحَ أَنْسَبَ لِقُلُوبِ القَرابةِ مِنْ تَذْكِيرِهِمْ بِصِلَةٍ تَرْبِطُكَ بِهِمْ.



(١) المرجع السَّابق (٥/ ٤٧٤).

جرح المشاعر

إنَّ أساس عداوة الأعداء جرح المشاعر؛ فمتى جرحت أخاك، فسارع إلى تضميد ذلك الجرح باعتذار بالغ، قبل أن يبيت الجرح على فساد، وإيّاك والاعتذار البارد.



وهأنا أسوق لك بعض الفوائد، عسى الله أن ينفعك بها:

اعْلَمْ أنَّ جَرْحَكَ لأخيكَ يتولَّدُ منْهُ الغَضَبُ، والغضَبُ وليدُهُ الحِقْدُ، ما لَمْ تُطْفِئ ذلك الغَضَبَ باعتذار، ولا يُعْتَبُ على مَنْ خَضَعَ في اعتذارِه؛ فَدِيَةُ الجرح غاليةٌ، وعاقِبَتُها حَميدةٌ، ومَتَى غَفَلْتَ عَنِ الاعتذار، فالحِقْدُ حاصلٌ، ولا بُدَّ، وَمِنَ الحِقْدِ يتولَّدُ الحَسَدُ الَّذي هُوَ مَنْشَأُ العَداوةِ، وهذه الثَّلاثُ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُها منْ بَعْضٍ.

يقولُ الغزاليُّ - رحمه الله -:

«اعْلَمْ أنَّ الحَسَدَ منْ نتائج الحِقدِ، والحِقْدَ مِنْ نتائج الغَضَبِ، فَهُوَ (أي: الحَسَدُ) فَرْعُ فَرْعِه، والغَضَبُ أَصْلُ أَصْلِه - أيْ: أَصْلُ الحِقْدِ -»[١].

وَمَتى أَهْمَلْتَ تَضْميدَ ذلك الجُرْحِ، فاحْذَرْ صاحِبَهُ على نَفْسِكَ، ولْيَكُنْ أوَّلَ ما تَقُومُ بِهِ أنْ تَرَى هَلْ هُوَ مِنْ الصِّنْفِ المُتسامحِ، فَتَصِلَهُ بالإحسان إليه تارةً، وطَلَبِ الإقالة تارةً؟، فإذا شاهَدْتَ أنَّ ذلك لا يَزيدُهُ إلَّا حَقْدًا «وشاهِدُ البُغْضِ اللَّحْظُ»[٢] - فإيَّاك وإيَّاهُ.

إذا ما الجُرْحُ رُمَّ[٣] على فَسادٍ ... تَبَيَّنَ فيهِ تَفْريطُ الطَّبيبِ[٤]

---

(١) «إحياء عُلوم الدِّين» (٣/ ١٩٨).

(٢) «المنتقى من أمثال النُّبلاء» (ص٦٦) للمؤلِّف.

(٣) رُمَّ: أُصْلِحَ.

(٤) «ديوان البُحْتُرِيِّ» (١/ ١٠٠).

ولله در صالح بن عبد القدوس القائل:

إِذَا وَتَــرْتَ امْــرُءًا فَــاحْــذَرْ عَــدَاوتَــهُ   مَنْ يَــزْرَعِ الشَّوْكَ لَمْ يَـحصُدْ بِهِ عِنَبَا

ومن دُرر ابنُ الجوزي -رحمه الله-: «إذا آذيتَ شَخْصًا، فَقَدْ غَرَسْتَ في قَلْبه عداوةً، فلا تَأْمَنْ تَفْريعَ تِلْكَ الشَّجْرة، ولا تَلْتَفِتْ إلى ما يُظْهِرُ مِنْ وُدٍّ، وإنْ حَلَفْ، فإنْ قارَبْتَهُ فَكُنْ مِنْهُ على حَذَر»[١].

وقال -رحمه الله-: «لَيْسَ في الدُّنْيا أَبْلَهُ ممَّن يُسيءُ إلى شَخْص، ويَعْلَم أَنَّهُ قَدْ بلغ إلى قَلْبه بالأَذَى، ثُمَّ يَصْطَلِحان في الظَّاهِر، فَيَعْلَمُ أَنَّ ذلك الأَثَرَ مُحِيَ بالصُّلْح، وخُصُوصًا المُلُوكَ؛ فإنَّ لَذَّتَهُمُ الكُبْرَى أَلَّا يَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ، ولا يَنْكَسرَ لهم غَرَضٌ، فإذا جَرَى شَيْءٌ مِنْ ذلك لَمْ يَنْجَبِرْ.

واعْتَبِرْ هذا بأَبي مُسْلِم الخُراسانيِّ، فإنَّهُ غَضَّ مِنْ قَدْرِ المَنْصُور قَبْلَ ولايته، فحصل ذلك في نَفْسِه فَقَتَلَهُ، وَمَنْ نظَرَ في التَّواريخ، رَأَى جماعةً قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هذا، ولا يَنْبَغي لِمَنْ أَسَاءَ إلى ذي سُلْطانٍ أَنْ يَقَعَ في يَدِهِ، فإنَّهُ إذا رَامَ التَّخَلُّصَ لَمْ يَقْدِرْ؛ فَيَبْقَى نَدَمُهُ على تَرْكِ احْتَرازه، وحَسْرَتُهُ على مساكنة الضِّمانِ للسَّلامة ـ أَشَدَّ عليه مِنْ كُلِّ ما يلقى به مِنَ الهَوَانِ والأَذَى.

وَمِنْ هذا الجِنْسِ الأَصْدقاءُ المُتماثِلُون، فإنَّكَ مَتَى آذيتَ شَخْصًا، وبلغ إلى قَلْبه أَذَاكَ ـ فلا تَثِقْ بمَوَدَّتِه؛ فإنَّ أَذَاكَ نُصْبُ عَيْنِه، فإنْ لَمْ يَحْتَلْ عَلَيْكَ، لَمْ يَصْفُ لَكَ، ولا تُخالطْ إلَّا مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْه بحب، فَهُوَ لَمْ يَرَ مِنْكَ شَيْئًا في نَفْسِه، وكذلك الوَلَدُ والزَّوْجَةُ والعامِلُونَ، ويَلْحَقُ بهذا أَنْ أَقُولَ: لا يَنْبَغي أَنْ تُعادِيَ أَحدًا، ولا أَنْ تَقُولَ في حقِّه؛ فَرُبَّما صارَتْ لَهُ دَوْلَةٌ فاشْتَفَى، ورُبَّما احْتِيجَ إلَيْه فَلَمْ يُقْدَرْ عليه، فالعاقِلُ يُصَوِّرُ في نَفْسِهِ كُلَّ مُمْكِنٍ، ويَسْتُرُ ما في قَلْبِهِ مِنْ البُغْضِ والوُدِّ، ويُداري مَعَ الغَيْظَ والحِقْد، هذه مَسَاوِرُ[٢] العَقْلِ إنْ قُبِلَتْ»[٣].

---

(١) «صيد الخاطر» (٢٠٣).

(٢) المَسَاوِرُ: جَمْعُ مِسْوَرٍ ـ بزنَة مِنْبَرٍ ـ، وهُوَ مُتَّكَأٌ مِنْ جِلْدٍ.

(٣) المرجع السابق (ص٢٢١ ـ ٢٢٢).

قال البهاء زهير -عفا الله عنه- :

تَـرَى كَـمْ قَـدْ بَـدَتْ مِنْكُمْ ... أُمُـورٌ مـا عَـهِـدْنَـاهَـا

وَعَـرَّضْـتُـمْ بِـأَقْـوَالٍ ... وَمَـا نَـجْـهَـلُ مَـعْـنَـاهـا

نَـبَـشْـتُـمْ بَـيْـنَـنَـا أشْـيَـا ... ءَ كُـنَّـا قَـدْ دَفَـنَّـاهَـا

وَطَـرَّقْـتُـمْ إلى الْـغَـدْرِ ... طَـرِيْـقًـا مـا سَـلَـكْـنَـاهَـا

وَكَـمْ جَـاءَتْ لَـنَـا عَـنْـكُـمْ ... أحَـادِيْـثٍ رَدَدْنَـاهَـا

وأَشْـيَـاءٌ رَأَيْـنَـاهَـا ... وَقُـلْـنَـا مـا رأَيْـنَـاهَـا

فَـلاَ واللهِ مـا يَحْـ ... سُـنُ بَـيْنَ الـنَّـاسِ ذِكْـرَاهَـا

قَـرَأْنَـا سـورة الـسُّـلْـوَا ... نِ عَـنْـكُـمْ بَـلْ حَـفِـظْـنَـاهَـا

فَـرِجْـلٌ تَـطْـلُـبُ المَـسْـعَـى ... إِلَـيْـكُـمْ قَـدْ مَـنَـعْـنَـاهَـا

وَعَـيْنٌ تَـتَـمَـنَّـى أنْ ... تَـراكُـمْ قَـدْ غَـضَـضْـنَـاهَـا

وَنَـفْـسٌ كُـلَّـمَا اشْـتَـاقَـتْ ... لِـلُـقْـيَـاكُـمْ زجَـرْنـاهـا

وَكَـانَـتْ بَـيْـنَـنَـا طَـاقٌ ... فَـهَـا نَـحْـنُ سَـدَدْنَـاهـا

وفي الـنَّـفْـسِ بَـقَـايـا مِـنْ ... أحَـادِيْـثٍ خَـبَـأْنَـاهَـا

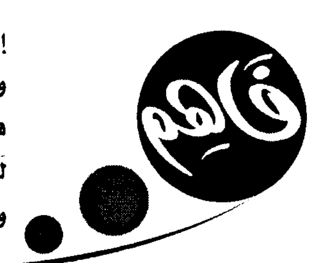
فَـلَـوْ أرْضَـتْـكُـمْ الأرْوَا ... حُ مِـنَّـا لَـبَـذَلْـنَـاهَـا

سحر :

بَنِي عَمِّنَا، إنَّ الـعـداوةَ شَـأْنُهَـا ... ضَغَـائِنُ تَبْقَى في نُـفُوسِ الأَقَـارِبِ



الكَلْبُ المُعَلَّمُ



إنَّ الكَلْبَ المُعَلَّمَ أَدْرَى بِفُنُونِ التَّعامُلِ،
وعَدْلِ السِّيرةِ ما لا يَدْرِيه كثيرٌ مِنَ النَّاسِ،
فإذا ما صَنَعَ أحَدُهُمْ صَنِيعَهُ،
لَظَهَرَ مِنْهُ الوَجْهُ الجميلُ،
وقَرَّرَ لَهُ فِي القُلُوبِ مِنَ الفَضْلِ ما لا يُدْرَكُ.

ما يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَعلَّمَ مِنْ هذا الحَيَوانِ ما يَنْفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ، فكثيرٌ مِنَ العُقَلاءِ ـ كما يقولُ ابْنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ: «يتعلَّمُ مِنَ الحيواناتِ البهم أُمُورًا تَنْفَعُهُ في معاشِه، وأخلاقِه، وصناعتِه، وحَرْبِه، وحَزْمِه، وصَبْرِه»[1].

ويقولُ الإمامُ ابنُ الجَوْزِيِّ ـ رحمه الله ـ: «رَأَيْتُ كِلَابُ الصَّيْدِ إذا مرَّتْ بكلابِ المحلةِ نَبَحَتْها، وبالغتْ وأَسْرَعَتْ خَلْفَها، وكأنَّها تَراها مُكَرَّمةً مُجَلَّلةً، فَتَحْسُدُها على ذلك.

ورأيتُ كِلَابَ الصَّيْدِ حِينَئذٍ لا تَلْتَفِتُ إليها، ولا تُعيرُها الطَّرْفَ، ولا تَعُدُّ نُباحَها شَيْئًا، فرأيتُ أنَّ كِلَابِ الصَّيْدِ كأنها لَيْسَتْ مَنْ جِنْسِ تِلْكَ الكِلَابِ؛ لأنَّ تِلْكَ غَليظةُ البَدَنِ، كَثيفةُ الأَعْضَاءِ، لا أمانةَ لها، وهذه لطيفةٌ دقيقةُ الخِلْقةِ، ومَعَهَا آدابٌ قَدْ ناسَبَتْ خِلْقَتَها اللَّطيفةَ، وإنَّها تَحْبِسُ الصَّيْدَ على مالِكِها خَوْفًا مِنْ عِقَابِه، أَوْ مُراعاةَ شُكْرِ نِعْمَتِهِ عليها، فرأيتُ أنَّ الأَدَبَ وحُسْنَ العِشْرةِ تتبعُ لطافةَ البَدَنِ، وصَفَاءَ الرُّوحِ، وهكذا المُؤْمِنُ العاقلُ لا يَلْتَفِتُ إلى حاسدِه، ولا يَعُدُّهُ شَيْئًا، إذْ هُوَ في وَادٍ، وذاك في وَادٍ، ذاك يَحْسُدُهُ على الدُّنْيا، وهذا هِمَّتُهُ الآخرةُ؛ فيا بُعْدَ ما بَيْنَ الوادِيَيْنِ!»[2].

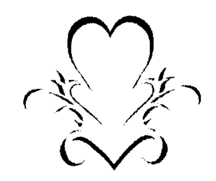
---

(١) «شفاء العليل» (ص١٦٣).
(٢) «صَيْدُ الخاطر» (ص٣٥٦).

الْكَلْبُ أكرمَ عشيرةً وَهُوَ النهايَةُ في الخَسَاسَة
من معشر طلبوا الرِّئَاسَة قَلَ تَحْقِيقِ الرِّئاسَة

خاطرة:

تعلَّمْ مِنَ الحَيوانِ البَهيمِ ما يَنْفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ؛ فإنَّهُ لَمْ يَحْسُدْكَ إلَّا على العَقْلِ.



اسْقِ أرضَك



إنَّ الأقاربَ أحوجُ النَّاس إلى حُسْنِ العشرة، وسَعةِ الخُلُق، والصَّفْحِ عن العَثَرات، والغَضِّ عن المَساوئ، مِنْ غيرِ إثمٍ أو معصيةٍ.

القَريبُ مَنْ قارَبَكَ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ أو الصِّهْرِ، رعايةُ أحْوالِهِمْ قَرابةٌ، صِلَتُهُمْ دِيانةٌ، قَطيعَتُهُمْ كَبيرةٌ، التَّحريشُ بَيْنَهُمْ جَريمةٌ، ظُلْمُهُمْ جُرْحٌ لا يَنْدَمِلُ.

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضاضةً[1] ... على المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ[2] المُهَنَّدِ[3]

ونَحْنُ نُحَذِّرُ مِنْ عَداوةِ الأقارب؛ فإنَّها تَبْدَأُ هَيِّنَةً، ثُمَّ تَصيرُ مُسْتَحْكِمةً، وأنا أُخْبِرُكَ: أنَّهُ كان حَوْلَنا أخٌ عاقلٌ، قال لعمِّه كلمةً عابرةً، ما كان أحَدٌ يتصوَّرُ أنْ تَبْلُغَ مَبْلَغَها، فَأَخَذَهُ ذلك العَمُّ مِنْ بَيْتِهِ لَيْلًا، على أساس أنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ، وفي الطَّريق قَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَةٍ، ثُمَّ تَرَكَهُ في الطَّريق، لِتَنْهَشَهُ الكلابُ[4]، والنَّاسُ لا يتصوَّرون هذا مِنْهُ، مَعَ ما بَيْنَهُما مِنْ وُدٍّ يَعْجَزُ القَلَمُ عَنِ التَّعبيرِ عَنْهُ!.

أَتَدْري ماذا قال؟، إنَّهُ قال لَهُ: «أَذْهَبْ إلى القَرْيةِ مَعَ أَهْلِكَ بملابسِكُمْ هذه!» فاعْتَبَرَها إهانةً أيَّما إهانة، غطَّتْ على حُرْمَةِ الأُبُوَّةِ، ورعايةِ حَقِّ الصُّحْبةِ، والوُدِّ القَديم!.

لِمِثْلِ هذا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ ... إنْ كانَ في القَلْبِ إسْلامٌ وإيمانُ!

---

(١) المَضاضة ـ بالفتح ـ: وَجَعُ المُصيبة.

(٢) الحُسَام: السَّيف القاطع.

(٣) المُهَنَّد: السَّيف المنسوبُ إلى الهِنْد صناعةً وجَوْدةً.

(٤) حَصَلَ أنِ اجْتَزْتُ مَعَ أَهْلي لَيْلًا مكانَ الحادث بَعْدَ أيَّام مِنْ وُقُوعه، فَطَلَبَ أَهْلي أنْ نَسْلُكَ غَيْرَ تِلْكَ الطَّريق، فَقُلْتُ: توكَّلوا على الله، وطيلةَ الطَّريق كانتْ زَوْجتي تلتفَّتُ وتَتَفَزَّعُ، فقلتُ لها: الشَّيْءُ الَّذي يَجِبُ أنْ نَخافَهُ هُوَ الخَوْفُ، وما زِلْتُ أعِظُها في الخَوْف، فما سَكَنَتْ، وقَدْ تَرَكَتْ تِلْكَ الحادثةُ في نَفْسي أثَرًا بالغًا.

قال العلامة ابنُ الجوزي – رحمه الله –: «عَدَاوَةُ الأَقَارِبِ صَعْبَةٌ، ورُبَّما دامَتْ كحَرْبِ بَكْرٍ وتَغْلِبَ ابْنَيْ وائلٍ، وعَبْسٍ وذُبْيَانَ ابْنَيْ بغيضٍ، والأَوْسِ والخَزْرَجِ ابْنَيْ قَيْلَةَ. قال الجاحظُ: رَكَدَتْ[1] هذه الحَرْبُ أَرْبَعينَ عامًا.

قُلتُ: والسَّبَبُ في هذا أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنَ الأَقَارِبِ يَكْرَهُ أَنْ يَفُوقَهُ قَرِيبُهُ، فيَقَعُ التَّحاسُدُ؛ فينبغي لِمَنْ فَضَلَ على أقاربِهِ أنْ يتواضَعَ لَهُمْ، ويَرْفَعَهُمْ جَهْدَهُ، ويَرْفُقَ بهِمْ؛ لعلَّهُ يَسْلَمُ»[2].

قال البهاء زهير – رحمه الله –:

أَأَحْبَابَنَا باللهِ كَيْفَ تغيَّرَتْ ... خَلائِقَ غُرٌّ فيكُمُ وغَرائِزُ
لَقَدْ ساءني الْعَتْبُ الَّذي جاءَ مِنْكُمُ ... وإنِّي عَنْهُ لو عَلِمْتُمْ لَعاجِزُ
لَكُمْ عُذْرُكُمْ أَنْتُمْ سمعتُم فقلْتُمْ ... وَمُحْتَمَلٌ ما قَدْ سَمِعْتُمْ وجَائِزُ
هَبُوا أَنَّ لي ذَنْبًا كَمَا قَدْ زَعَمْتُمُ ... فَهَلْ ضَاقَ عَنْهُ حِلْمُكُمْ والتَّجاوُزُ
نَعَمْ لِيَ ذَنْبٌ جئْتُكمْ مِنْهُ تَائبًا ... كَمَا تَابَ من فِعْلِ الخَطيئةِ مَاعِزُ
عَلى أنني لم أَرْضَ يَوْمًا خِيَانَةً ... وهَيْهَاتَ لي واللهِ عن ذاك حَاجِزُ
وَبَيْنَ فُؤادي والسُّلُوِّ مَهَالِكٌ ... وَبَيْنَ جُفُوني والرُّقَادِ مَفَاوِز
وإنْ قُلْتُ واشْوَاقَاهُ للبان والحِمَى ... فإنِّي عَنْكُمْ بالكناية رَامِز
دَعُوني والواشي فإنِّي حَاضِرٌ ... وصوتي مرفوعٌ وَوَجْهِيَ بَارِزُ
سيذكُرُ ما يجري لَنَا مِنْ مواقفٍ ... مشايخُ تبقى بعدنا وعَجَائزُ
بربِّك لا تَسْمعْ مَقَالَةَ حاسدٍ ... يُجَاهِرُ فيها بَيْننا ويُبَارِزُ
فما شَاقَ طَرْفِي غيرُ وجْهِكَ شائقٌ ... ولا حَازَ قَلْبِي غَيرُ حُبِّكَ حَائز

(١) رَكَدَتْ: طالتْ ودامتْ، وبابُهُ دَخَلَ.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٣٥٦).

سأكْتُمُ هـذا العَتْبَ خَيْفَةَ شَامِتٍ وأُوهِـــمُ أنِّي بالرِّضا مِـنْـكَ فائزُ
فلي فِيْكَ حُـسَّـادٌ وَبَيْني وبَيْنَهُمْ وَقَـائـعُ لَيْسَتْ تَنْقضي وَهَـزَاهِـزُ
وإِني لَهُــمْ في حَـرْبِهـمْ لَمُـخَـادعٌ أُسالِمُهُمْ طـورًا وَطَـوْرًا أُنَـاجِـزُ[1]

مِنْ مشْكَاة النُّبُوّة :

عَن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -: أنَّ رجلًا قال: يا رَسُولَ الله، إنَّ لي قرابةً أَصِلُهُمْ ويَقْطَعُوني وأُحْسِنُ إليهِمْ ويُسيئُونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عَنْهُمْ ويَجْهَلُونَ[2] عليَّ، فقال: «**لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فكأنّما تُسِفُّهُمْ**[3] **المَلَّ**[4]**، ولا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عليهِمْ**[5]**، ما دُمْتَ على ذلك**». «رواه مسلم» (٢٥٥٨).



(١) «ديوان البهاء زهير» ص ١٦٩-١٧٠ .
(٢) **الجهل هُنا**: القبيح من القَوْل.
(٣) **تُسِفُّهُم**: تُطْعمهم.
(٤) **المَلّ - بالفتح -** : الرَّماد الحارُّ، شبَّه ما يَلْحَقُهُمْ مِنَ الأَلَم بما يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمادِ الحارِّ مِنَ الأَلَم.
(٥) **ظهير عليهـم أيْ**: مُعِينٌ ودافعٌ لأذاهم.

أمارة النقص

فاهم

إنّ الذي يدندن: جدّي فلان، وخالي علاّن،
وأنا ممّنْ يقدّمهُ السّلطان.
وقبيلتنا كبيرة، بالمجد والكرم شهيرة
- جاعلا ذلك هجّيرَه[1] - ما زاد على أنْ جعل نفسه
مسخرة، وإن اعتقد ذلك مفخرة.

النَّاسُ يَكْرَهُونَ مادحَ نَفْسِه، فكَيْفَ بمَنْ جَعَلَ ذلك مِنْ أَوْرَادِه؟!، بَلْ ذلك دَلِيلُ النَّقْصِ على الحَقِيقة؛ لأنَ النَّاقصَ في أَصْلِه وشَخْصِه يُكْمِلُ نَقْصَهُ بالمَدْحِ، وهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا.

إنَّما الكاملُ ـ حقًّا ـ مَنْ تَرَكَ لسَانَ أَفْعالِه تُتَرْجِمُ عَنْ مقالِه، كما قيل:

وما حَسَنٌ أَنْ يَمْدَحَ المَرْءُ نَفْسَهُ ... ولكنَّ أَخْلاقًا تُذَمُّ وتُمْدَحُ

والعرب تقول في أمثالها: «إذا غاب عَنْكَ أَصْلُهُ، كان دَليلَ أَصْلِه فِعْلُهُ».

وتقول: «مَنْ طاب أَصْلُهُ، زَكَى فِعْلُهُ».

وتقول: «أَصْلٌ راسخٌ، وفِعْلٌ شامخٌ».

ويقول الشاعر:

لا تَنْظُرَنَّ إلى امْرِىءٍ ما أَصْلُهُ؟ ... وانْظُرْ إلى أَفْعالِه ثُمَّ احْكُمِ[2]

ولنا أَنْ نَنْظُرَ بماذا كان العَرَبِيُّ يَسُودُ قَوْمَهُ؟

فَهَلْ كان يَعْتَمِدُ على مآثِرِ آبائِه، كما هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ العَجَمِ، وانتقلتْ تِلْكَ النُّعَرةُ[3] عَنْهُمْ إلى بَعْضِ جُهَّالِ العَرَبِ؟!.

إنْ كُنْتَ تَسْمُو بآباءٍ ذَوِي نَسَبٍ ... فَقَدْ صَدَقْتَ، ولكنْ بِئْسَ ما وَلَدُوا!

---

(١) يُقالُ: هذا هِجِّيرُهُ ـ بكَسْر الهاء والجيم مُشَدَّدة ـ أَيْ: دَأْبُهُ وشَأْنُهُ.

(٢) «محاضرات الأدباء» (١/ ٦٩٩).

(٣) النُّعَرة ـ بزِنَةِ الهُمَزَةِ ـ: النَّخْوة والأَنَفة والكِبْر.

وقال آخَرُ:

عَجِبْتُ لِذِي جَهْلٍ يَظُنُّ جُدُودَهُ ... تُرْقِيهِ، والمَرْفُوعُ بالفِعْلِ فاعِلُهْ!

وَمِنْ دُرَرِ العلَّامةِ الهلاليِّ الحسنيِّ -رحمه الله- **قولُهُ:** بماذا كان يَسُودُ السَّيِّدُ عِنْدَ العَرَبِ؟، بانتسابٍ إلى بَيْتِ مَلِكٍ، كما هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ العَجَمِ !

الجوابُ نَجِدُهُ في شِعْرِ العَرَبِ، وهُوَ دِيوانُهُمْ.

قال الشَّاعرُ:

وإنِّي وإنْ كُنْتُ ابْنَ سيِّدِ عامرٍ ... وفارِسِها المَشْهُورِ في كُلِّ مَوْكِبِ

فما سَوَّدَتْني عامرٌ عَنْ وراثةٍ ... أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُوَ بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

ولكنَّني أَحْمِي حِماها، وأَتَّقي ... أَذاها، وأَرْمِي مَنْ رماها بِمَنْكِبي

وقال غَيْرُهُ:

بِبَذْلٍ وحِلْمٍ سادَ في قَوْمِهِ الفَتَى ... وكَوْنُكَ إيَّاه عليكَ يَسيرُ

وقال آخَرُ:

هُما سَيِّدانَا يَزْعُمانِ، وإنَّما ... يَسُودانِنَا إنْ يَسَّرَتْ غَنَماهُما[١]

فالسَّيِّدُ - عِنْدَ العَرَبِ - هُوَ الَّذي يَحْمِي الحِمَى بشَجَاعتِهِ، ويَبْذُلُ القِرَى[٢] بكَرَمِهِ، ويَحْلُمُ على الجاهِلِ، ويَنْصُرُ المَظْلُومَ، ويُكْرِمُ اليتيمَ، ويُعينُ الضَّعيفَ، فَمَن اتَّصف بهذهِ الخِصَالِ وما وَالاها، وتَفقَّه في الدِّينِ، وتمسَّكَ بِهِ - فَهُوَ السَّيِّدُ المُفَضَّلُ على مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ في ذلك». أهـ

ثُمَّ أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الدِّينِ والانتسابِ إليه على عِزَّتِهِ، وغُرْبَةِ أَهْلِهِ؟!، فإنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يقُولُ: «**انْتَسَبَ رَجُلَانِ على عَهْدِ مُوسَى، فقال أَحَدُهما: أنا فُلانُ بْنُ فُلانٍ، حتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ -لا أُمَّ لَكَ[٣]- ؟!**».

---

(١) يَسَّرَ الغَنَمُ: كثُرَ لَبَنُها أَوْ نَسْلُها.

(٢) القِرَى - بالكَسْر والقَصْر - : طعام الضِّيافة.

(٣) لا أُمَّ لك أيْ: أَنت لَقِيطٌ لا تُعْرَفُ لك أُمٌّ.

قال: أنا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنِ الإسلام.

فأوحى الله إلى موسى: أَنْ قُلْ لهذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ: أَمَّا أنْتَ - أَيُّها الْمُنْتَسِبُ إلى تِسْعَةٍ في النَّار - فأَنْتَ عاشِرُهُمْ في النَّار، وأَمَّا أَنْتَ - أيُّها الْمُنْتسبُ إلى اثْنَيْنِ في الجَنَّة - فأنْتَ ثالثُهما في الجنَّة»[١].

ويقولُ - ﷺ -: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوامٌ يَفْتَخِرُونَ بآبائِهِمُ الَّذين ماتُوا، إنَّما هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على الله مِنَ الجُعَلِ[٢] الَّذي يُدَهْدِهُ[٣] الخِرَاءَ بأَنْفه، إنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[٤] الجاهليَّة، وفَخْرَها بالآباءِ، إنَّما هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وفاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»[٥].

قال ابنُ الورديّ:

لا تَقُلْ أَصْلي وفَصْلي أَبَدًا ... إنَّما أَصْلُ الفَتَى ما قَدْ حَصَلْ
قَدْ يَسُودُ المَرْءُ مِنْ دُونِ أَبٍ ... وبِحُسْنِ السَّبْكِ قَدْ يُنْفَى الدَّغَل
إنَّما الوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ، وما ... يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إلَّا مِنْ بَصَلْ
قِيمَةُ الإنسانِ ما يُحْسِنُهُ ... أَكْثَرَ الإنسانُ فيهِ أَمْ أَقَل

وقال آخَرُ:

لَيْسَ الفَتَى مَنْ قالَ: كانَ أبي ... إنَّما الفَتَى مَنْ قالَ: ها أَنَا

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٥/ ١٢٨) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الألْبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٢٧٠).

(٢) الجُعَل - بزنَة صُرَد -: دُوَيْبَّةَ سوداءُ تأكل العَذِرة، يُقالُ لها الخُنْفَساءُ، كانت العَرَبُ إذا ذمَّت شخصًا شبَّهتْهُ بها، والجَمْعُ جِعْلانٌ - بالكَسْر -.

(٣) يُدَهْدِهُ: يُدَحْرِجُ.

(٤) العُبِّيَّة - بضمِّ العين وكَسْرها، وتشديد الباء المكسورة والياء المفتوحة: الكِبْرُ والفَخْرُ والنَّخْوة.

(٥) (حسن) أخرجه التِّرْمذيُّ (٣٩٥٥) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -، وحسَّنه الألْبانيُّ في «غاية المرام» (٣١٢).

وقال آخَرُ:

فلا تَحْسَبِ الأَنْسَابَ تُنْجِيكَ مِنْ لَظَى	**ولَوْ كُنْتَ مِـنْ قَـيْسٍ وعَـبْدِ مَدَانِ**
أَبُو لَهَبٍ صَبٍ فِي النَّارِ وَهْوَ ابْنُ هاشِمٍ	**وسَلْمَـانُ فِي الفِرْدَوْسِ مِنْ خُرْسَانِ**

قُلتُ: وَهُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ الفَخْرِ يَسْتَخْدِمُهُ الأَذْكِيَاءُ، ولا يَفْهَمُهُ إِلَّا أَمْثَالُهُمْ، وَهُوَ: أَنْ يَذُمَّ غَيْرَهُ؛ لِتَرتَفعَ نَفْسُهُ، وقُلْ مِثْلَ ذلك في القبائِلِ والعَشَائِرِ والبُطُونِ، وَهُوَ خُلُقٌ فاشٍ في النَّاسِ غالبٌ عليهم، قَدْ شَاهَدْنا وبَلَوْنَا، ولا يَتَّصِفُ به إِلَّا أَهْلُ السَّلاطَةِ والوَقَاحةِ مِنَ العيَّابِينَ.

ومِثْلُ هؤلاءِ تَلْفِظُهُمُ القُلُوبُ، كما يَلْفِظُ البَحْرُ الجِيَفَ !.

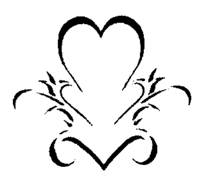
وللهِ دَرُّ القائِلِ:

وما عَبَّرَ الإنسانُ عَنْ فَضْـلِ نَفْسِهِ	**بِمِثْلِ اعْتِقَادِ الفَضْلِ فِي كُـلِّ فاضِلِ**

جَوَاهِرُ:

قال الزَّمَخْشَرِيُّ -غفر الله لَهُ- :

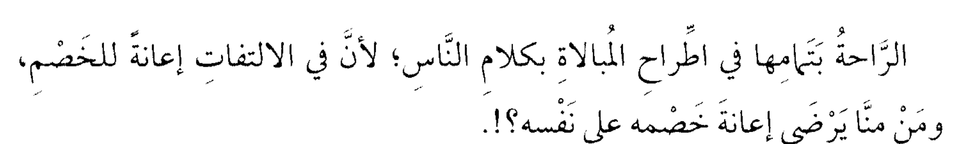
«الأَصِيلُ مَنْ رَسَخَ فِي ثَرَى الطَّاعةِ عِرْقُهُ، والمُقَدَّمُ مَنْ أَحْرَزَ قَصَبَ السَّبْقِ سَبْقُهُ[1]» «أطواق الذَّهب» (ص١٠٩).



(١) قولُهُمْ: أَحْرَزَ قَصَبَ السَّبْقِ: أَصْلُهُ أَنَّهم كانوا يَنْصِبُونَ في حَلْبَةِ السِّباقِ قَصَبةً، فَمَنْ سَبَقَ اقْتَلَعها وأخذها؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ السَّابِقُ مِنْ غيرِ نزاعٍ، ثُمَّ كَثُرَ حتَّى أُطْلِقَ على المُتبرِّزِ والمُشْتَمِرِ.

باب الرَّاحة

إنَّ الالتفاتَ لكلام النَّاس وذَمّهم إيَّاكَ يورثُ حُزْنَ القلب وضَجرَهُ، ويتَوَلَّدُ منْ ذلك آفاتٌ مُنْهِكَةٌ مُهْلِكَةٌ للجسد والخاطر معًا.



الرَّاحةُ بتَمامِها في اطِّراحِ المُبالاةِ بكلامِ النَّاسِ؛ لأنَّ في الالتفاتِ إعانةً للخَصْمِ، ومَنْ منَّا يَرْضَى إعانةَ خَصْمِه على نَفْسِه؟!.

ومِنْ دُرَرِ العَلَّامة ابن حزم - رحمه الله - قولُه: «بابٌ عظيمٌ مِنْ أَبْوابِ العَقْلِ والرَّاحةِ، وَهُوَ: اطِّراحُ المُبالاةِ بكلامِ النَّاسِ، واستعمالُ اللامُبالاةِ بكلامِ الخالقِ - عزَّ وجلَّ -، بَلْ هذا بابُ العَقْلِ كُلِّه، والرَّاحةِ كُلِّها»[1].

وقال: «مَنْ حقَّقَ النَّظَرَ، وراضَ نَفْسَهُ على السُّكونِ إلى الحقائقِ - وإنْ آلَمَتْها في أوَّلِ صَدْمةٍ - كان اغْتِبَاطُهُ بذَمِّ النَّاسِ إيَّاهُ أشَدَّ وأكثرَ مِن اغتباطِهِ بمَدْحِهِمْ إيَّاهُ؛ لأنَّ مَدْحَهُمْ إيَّاهُ إنْ كان بحقٍّ، وبَلَغَهُ مَدْحُهُمْ لَهُ - أَسْرَى ذلك فيه العُجْبَ، فأفْسَدَ بذلك فضائلَهُ، وإنْ كان بباطلٍ، فَبَلَغَهُ فَسَرَّهُ - فَقَدْ صار مَسْرُورًا بالكَذِبِ، وهذا نَقْصٌ شديدٌ.

وأمَّا ذَمُّ النَّاسِ إيَّاهُ فإنْ كان بحقٍّ فبلغه، فَرُبَّما كان ذلك سَبَبًا إلى تَجنُّبِه ما يُعابُ عَلَيْه، وهذا حَظٌّ عظيمٌ؛ لا يَزْهَدُ فيه إلَّا ناقصٌ، وإنْ كانَ بباطلٍ، فَبَلَغَهُ فَصَبَرَ، اكْتَسَبَ فَضْلًا زائدًا بالحِلْمِ والصَّبْرِ، وكان - مَعَ ذلك - غانِمًا؛ لأنَّهُ يَأْخُذُ حسَنَاتِ مَنْ ذمَّهُ بالباطلِ، فيَحْظَى بها في دارِ الجزاءِ، أَحْوَجَ ما يَكُونُ إلى النَّجاةِ بأعمالٍ لَمْ يَتْعَبْ فيها، ولا تَكَلَّفَها، وهذا حظٌّ عظيمٌ؛ لا يَزْهَدُ فيه إلَّا مَجْنُونٌ.

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص٨٠).

وأمَّا إنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَدْحُ النَّاسِ إيَّاهُ، فكلامُهُمْ وسُكُوتُهُمْ سَواءٌ، ولَيْسَ كذلك ذَمُّهُمْ إيَّاهُ؛ لأنَّهُ غانمٌ للأَجْرِ على كُلِّ حالٍ، بَلَغَهُ ذَمُّهُمْ أَوْ لَمْ يَبْلُغْهُ»[١].

فائدةٌ ذَهَبِيَّةٌ :

وأَمَّا الخطَّابيُّ - رحمه الله - فَيَسُوقُ لَكَ فائدةً ذَهَبِيَّةً، فلا تَعْزُبْ[٢] عَنْكَ؛ فرُبَّما لا تَجِدُها عِنْدَ غَيْرِه.

قال: «وسأُفِيدكُ فائدةً - يا أخي - يَجِلُّ نَفْعُها، وتَعْظُمُ عائِدَتُها، وما أَقُولُها إلَّا عَنْ وُدٍّ لَكَ، وشَفَقةٍ عليك؛ فإنَّ البَلْوَى في مُعاشرةِ أَهْلِ زمانِكَ عَظِيمَةٌ، فاسْتَعِنْ بهَا على ما يَلْقَاكَ مِنْ أَذَاهُمْ، فإنَّكَ لا تَخْلُو مِنْ قَلِيلِه، وإنْ سَلِمْتَ مِنْ كَثِيرِه؛ وذلك أَنَكَ قَدْ تَرَى الواحِدَ بَعْدَ الواحِدِ مِنْهُمْ يتكالبُ على النَّاسِ، ويتسفَّهُ على أَعْراضِهِمْ، ويَنْبَحُ فيها نُباحَ الكلب، فَيُهِمُّكَ مِنْ شَأنِه مَا يَهمُّك، ويَسُوءُكَ مِنْهُ ما يَسُوءُك، إلَّا أنْ يكونَ رَجُلًا فاضلًا يُرْجَى خَيْرُهُ، ويُؤْمَنُ شَرُّهُ؛ فَيَطُولُ في أَمْرِهِ فِكْرُكَ، ويَدُومُ بِهِ شُغْلُ قَلْبِكَ؛ فأَزِحْ هذا العارِضَ عَنْ نَفْسِكَ بأنْ تَعُدَّهُ - على الحقيقةِ - كلبًا خِلْقَةً!، وَزِدْ بِهِ في عَدَدِ الكلابِ واحِدًا، ولَعَلَّك قَدْ مَرَرْتَ - مَرَّةً مِنَ المِرَارِ - بِكَلْبٍ مِنَ الكِلابِ يَنْبَحُ ويَعْوِي، وَرُبَّما كان - أيضًا - قَدْ يُسَاوِرُ[٣] ويَعْقِرُ[٤]، فلم تُحدِّثْ نَفْسَكَ في أَمْرِه بأنْ يَعُودَ إنسانًا يَنْطِقُ ويَسِيحُ، فلا تتأسَّفْ لَهُ أَلَّا يكُونَ دابَّةً تُرْكَبُ، أَوْ شاةً تُحْلَبُ؛ فاجْعَلْ هذا المُتَكَلِّبُ كَلْبًا مِثْلَهُ، واسْتَرِحْ مِنْ شُغْلِهِ، وارْبَحْ مؤونَةَ الفِكْرِ فِيهِ، وكذلك فَلْيكُنْ عِنْدَكَ مَنْزِلَةُ مَنْ

(١) المرجع السَّابق (ص٨٠ - ٨١).
(٢) **فلا تعزب** أيْ: فلا تَغِبْ، وبابُهُ دَخَلَ وجَلَسَ.
(٣) **يُسَاوِر**: يُواثِب ويَثُورُ.
(٤) **يعقر**: يَجْرَحُ، وبابُهُ ضَرَبَ.

جَهِلَ حَقَّكَ، وكَفرَ مَعْرُوفَكَ، فاحْسِبْهُ حِمارًا، أَوْزِدْ بِهِ في عَدَدِ العانَةِ[١] واحِدًا، فَبِمِثْلِ هذا تَتَخَلَّصُ مِنْ آفَةِ هذا البابِ وغائلَتِه، واللهُ المُسْتَعانُ»[٢].

قُلتُ: قَلَّ أَنْ يَخْلُوَ زَمَانٌ مِنْ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ يُنَاصِبُونَ غَيْرَهُمُ العداءَ، وعَدَاوةُ اللِّسانِ أَنْكَى مِنْ عداوةِ السِّنانِ[٣]، وَمَنْ مِنَّا قَدْ سَلِمَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ؟!.

ولله دَرُّ القائل:

وَلَيْسَ يَخْلُو الزَّمَانُ مِنْ شُغَلٍ ... فِيهِ، ولا مِنْ خِيَانَةٍ وخَنَا[٤]

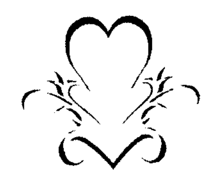
ما سَلِمَ اللهُ مِنْ بَرِيَّتِهِ ... ولا نَبِيُّ الهُدَى، فَكَيْفَ أَنَا؟!

حلية:

قال الإمامُ ابنُ حزمٍ -رحمه الله-:

«مَنْ قدَّر أَنَّهُ يَسْلَمُ مِنْ طَعْنِ النَّاسِ وعَيْبِهِمْ فَهُوَ مَجْنُونٌ».

«الأخلاق والسِّير» (ص٨٠).



(١) **العانة:** قَطيعُ حُمُرِ الوَحْشِ، والجَمْعُ عُونٌ ـ بالضَّمِّ ـ.
(٢) «العزلة» لأبي سُلَيمان الخَطَّابيِّ (ص٧٦).
(٣) **السِّنان** ـ بزِنَةِ الكِتَابِ ـ: نَصْلُ الرُّمْحِ، والجَمْعُ أَسِنَّةٌ.
(٤) **الخَنَا:** الفُحْشُ في المَنْطِقِ.

أدبٌ مفقودٌ

فاهِم

إنَّ كتمانَ السِّرِّ حتَّى عَنْ أخصِّ النَّاسِ بكَ فضيلةٌ تامَّةٌ، تُكسِبُكَ المحبةَ، وتكسُوكَ المهابةَ، وترفَعُ عنكَ الملامةَ.

كِتْمانُ السِّرِّ وما أَدْرَاكَ ما كِتْمانُ السِّرِّ؟، أَدَبٌ عَظِيمٌ، وخُلُقٌ رَفِيعٌ، لكنَّهُ غَرِيبٌ حتَّى عَنْ بَعْضِ أَهْلِهِ.

تستودِعَ السِّرَّ غَيْرَكَ، ثُمَّ لا تَلْبَثُ إلَّا يسيرًا، حتَّى تَجِدَهُ عَلَمًا في رَأْسِهِ نارٌ، تستشيرُ أخاكَ في أَمْرٍ: كزواجٍ أَوْ نَحْوِهِ، ثُمَّ تَلْتَفِتُ كالمُسْتَوْدعِ لحديثك[1] [illegible] ذَهَبَ مُسْتشارُكَ بحاجتِكَ، ورُبَّما خَطَبَ لك أَوْ لغَيْرِكَ.

وأَذْكُرُ أنِّي عَزَمْتُ على نصيحةٍ ذاتِ شَأْنٍ لمكانِ المخالفةِ، وبَعْدَ استشارتِهِ تقدَّمْتُ إليه بالنَّصيحةِ، فقال: «شَكَرَ اللهُ لَكَ الفَضِيحَةَ» !.

وكُلُّ هذا يَحْصُلُ بَيْنَ الصَّالحين قَبْلَ غَيْرِهِمْ.

وأيُّ رَجُلٍ يَشُمُّ رائحةَ العِلْمِ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْلُ هذا الأَدَبِ.

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إلَّا أنَّ النَّاسَ يُحِبُّونَ! مَنْ تَدَثَّرَ بِهِ لكَفَى، فكَيْفَ وفيهِ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ، وعُلُوِّ القَدْرِ، وسَلَامةِ العِرْضِ ما فِيهِ؟!.

---

(١) أخرج أحمدُ في «المسند» (٣/ ٣٧٩) وأبو داوُدَ (٤٨٦٨)، والتِّرْمذيُّ (١٩٥٩) بسندٍ حَسَنٍ حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٨٦)، و«الصَّحيحة» (١٠٩٠) مِنْ حديث جابر - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم - : «إذا حدَّثَ الرَّجُلُ بالحديثِ-ثُمَّ الْتَفَتَ - فَهُوَ أَمَانَةٌ».

(٢) المُخْدَع - بضمِّ الميمِ وكَسْرِها - : الخِزانة.

عَـلَيَّ لِـلـسِّرِّ حَـقٌّ لا أُضَـيِّـعُـه   أَسِيرُ صَدْري، وإنْ أَفْشَاهُ مُـوْدِعُهُ

خِـلٌّ لَـهُ مُخْـدَعًـا[٢] قَلْبي فغَيَّبه   حَتَّى نَسِيتُ بِـأَنَّ القَلْبَ مُخْدَعُـهُ

بَلْ أَقْذِفُ السِّرَّ في جَوْفِ الضَّمير، فما   تَـدْري خَواطِرُ فِكْري أَيْـنَ مَوْضِعُهُ

فيا أخي، إذا ضاق صَدْرُكَ عَنْ حَمْلِ سِرِّكَ، فَصَدْرُ مُسْتَوْدَعِه أَضْيَقُ، فإن أَفْشَاهُ أتُعاتِبُهُ؟!، كَيْفَ وقَدْ ضِقْتَ بِحَبْسِه ذَرْعًا؟!.

قال عَمْرو بْنُ العاص - رضي الله عنه -: «ما وَضَعْتُ سِرِّي عِنْدَ أَحَدٍ، فَلُمْتُهُ على أَنْ يُفْشِيَهُ، كَيْفَ أَلُوْمُهُ وقَدْ ضِقْتُ به ذَرْعًا؟!»[١].

إذا الـمَـرْءُ أَفْـشَـى سِرَّهُ بِلِسَانِهِ   ولام عَـلَـيْه غَيْـرَهُ - فَـهُوَ أَحْـمَقُ

إذا ضاق صَـدْرُ المَـرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِه   فَصَدْرُ الَّذي يُسْتَوْدَعُ السِّـرَّ أَضْيَقُ[٢]

فالـ[illegible] مَنِ انْفَرَدَ بسِرِّه، وَمَنْ نوابغِ الحِكَم: «لا تُنْكِحْ خاطِبَ سِرِّكَ»[٣]، والمُتَشَوِّفُ المُتطلِّعُ إلى ما [illegible] كالذباب، لا يحتفظ بها أَخَذَهُ منْكَ بُرْهَةً.

والمَرْأَةُ ضَعيفَةٌ، فلا تُحَمِّلْها ما لا تُطيقُ؛ فإنَّهُمْ قالُوا: «السِّرُّ في صَدْرِ المَرْأَةِ كالسُّمِّ، إذا لَمْ يَخْرُجْ قَتَلَها!».

وقالُوا: «اسْتَوْدِع المَرْأَةَ الخَرْساءَ سِرًّا، تَنْطِقْ به».

وأَجْمَعُوا على أَنَّ السِّرَّ الوَحيدَ الَّذي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْتَفِظَ بِهِ هُوَ عُمْرُهَا !

جُمان:

قال ابنُ المُعتز - رحمه الله -:

«انْفَرِدْ بسِرِّكَ، ولا تُودِعْهُ حازِمًا فَيَزِلَّ، ولا جاهلًا فَيَخُونَ»

«التَّمثيل والمحاضرة» (ص٢٤٧).

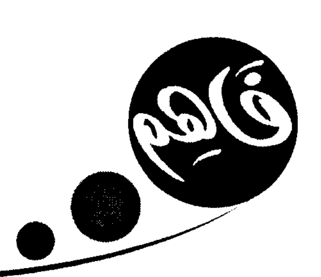
---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٨٨).

(٢) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٩٢) تحقيق البقاعيِّ.

(٣) «التمثيل والمحاضرة» (ص٢٤٧).

غُرْبَةٌ



إنَّ صيانةَ اللِّسانِ عَنْ أعراضِ المُسلمينَ حَسَنٌ جميلٌ، وأجْمَلُ مِنْ ذلك صيانةُ السَّمعِ؛ لقلَّة مَنْ يتفطَّنُ لهُ، وغُرْبَةِ أهْلِه.

مِنْ حقِّ إخْوانِكَ عَلَيْكَ عَدَمُ السَّماحِ لأَحَدٍ أَنْ يَذْكُرَهُمْ في حَضْرَتِكَ بسُوءٍ، بَلْ مِنْ حقِّهِمْ أنْ تتولَّى الدِّفاعَ عَنْهُمْ بالغَيْبِ، كما تُدافعُ عَنْ نَفْسِكَ في المَغيبِ والمَشهَدِ، فإنْ فعلتَ ذلك عَنْ قَصْدٍ حسنٍ، كُنْتَ أَهْلًا لأَنْ يَرُدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِكَ حَرَّ السَّعيرِ، وجُزِيتَ في الدُّنيا بأنْ يَنْصُرَكَ اللهُ في مَوْطِنٍ أنْتَ أحْوَجُ فيهِ إلى النُّصْرةِ، والجزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

فعن أبي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - أنَّهُ قال: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخيه، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيَامةِ»[1].

وعَنْ جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ وأبي طَلْحَةَ - رضي الله عنهما - قالا: قال رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: **«ما مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا في مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، ويُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ - إلَّا خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ - يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ.**

وما مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا في مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، ويُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ - إلَّا نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»[2].

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٦/ ٤٥٠)، والتِّرْمذيُّ (١٩٣١)، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٢٦٢).

(٢) (حسن) أخرجه أحمدُ (٤/ ٣٠)، وأبو داوُدَ (٤٨٨٤)، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٦٩٠).

وَمَنْ عُرِفَ بكراهةِ إيحاشِ صَدْرِه على إخوانِه، وذِكْرِهِمْ بما يَكْرَهُونَ في حَضْرتِه - عَذَرَهُ النَّاسُ مِنْ أنْفُسِهِمْ، وأجَلُّوهُ فَوْقَ إجلالِهِمْ لذي سُلْطَانٍ مِنْهُمْ.

ومن روائع البهاء زهير -عفا الله عنه- قوله:

صَديقيَ مَا هَذا الجَفَاءُ الَّذي أرى ... وَأيْنَ التَّغَاضِيْ[1] بَيْنَنَا والتَّعَطُّفُ
لَكَ الْيَوْمَ أَمْرٌ لا أَشُكُّ يُرِيْبُني ... فَمَا وَجْهُكَ الوَجْهَ الَّذيْ كُنْتُ أعْرِفُ
لَقَدْ نَقَلَ الوَاشُونَ عَنِّي بَاطِلا ... وَمِلْتَ لِمَا قالوا وزادوا وَأَسرَفُوا
كَأَنَّكَ قَدْ صَدَّقْتَ فيَّ حَدِيْثَهُمْ ... وَحَاشَاكَ مِنْ هَذا وَخَلْقُكَ أشْرَفُ
وَقَدْ كان قَوْلُ النَّاس في النَّاسِ قَبْلَنَا ... فَفَنَّدَ يَعْقُوبُ وَسُرِّقَ يُوسُفُ
بِرَبِّكَ قل لي ما الَّذي قد سَمِعْتَهُ ... فإنَكَ تدري ما تَقُولُ وتُنْصِفُ
فَإِنْ كان قَوْلًا صح أني قُلْتُهُ ... فَلِلْقَولِ تأويْلٌ[2] ولِلْقَولِ مَصْرَفُ
وَهَبْ أَنَّهُ قولٌ من الله مُنْزَلٌ ... فَقَدْ بَدَّلَ التَوراةَ قومٌ وَحَرَّفوا
فها أنا والواشيْ وأنْتَ جَميعُنَا ... يَكُونُ لَنَا يَوْمٌ عَظيمٌ وَمَوقِفُ[3]

سحر:

قال أبو الحسن الهاشميُّ -رحمه الله-:

وسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبيحِ الكَلا ... مِ كَصَوْنِ اللِّسانِ عَنِ النُّطقِ بهْ
فإنَّكَ عِنْدَ اسْتِماعِ القَبِيـ ... ـحِ شَرِيكٌ لقائِلِهِ فانْتَبِهْ

«أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٨٤).

---

(١) **التغاضي**: التفاضل.

(٢) **تأويل**: تفسير وتصريف.

(٣) «ديوان البهاء زهير» ص ٢١٤ .

سبك من بلغك السبا (١)



إنَّ نَقْلَ السَّبِّ أَوْ نَحْوِه، كالغيبة، أو الكلام الرديء. لا يَحْسُنُ بأهل العفَّة والمروءة الحقَّة، فالبضاعة الساقطة لا يَحْمِلُها إلَّا سُقَّاطُ النَّاس وهَمَلُهُمْ.

مَنْ مِنَّا يُحِبُّ أَنْ يُنْقَلَ إليه ما يَحْزُنُهُ أَوْ يَسُوءُهُ؟!.

قَدْ هَيَّئُوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ ... فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ(٢) أَنْ ترعى مَعَ الهَمَلِ

ولْنَنْظُرْ إلى جيلِ الصَّحابةِ، نجدهُمْ يتسابَقُون على ماذا؟!.

إنَّهُمْ كانوا يتسابقون على حَمْلِ البِشَارةِ لغَيْرِهِمْ، فَبشَّرَ اللهُ وُجُوهَ حامِلِيها بكُلِّ خَيْرٍ!.

فإذا رُزِقَ أَخُوكَ نجاحًا أَوْ مَوْلُودًا، أَوْ قَدِمَ لَهُ غائبٌ فَبَشِّرْهُ، تُلْقَ مَيْمونًا مُباركًا، ووَجْهُكَ لا يَأْتِيَ إلَّا بالخَيْرِ.

وإذا كان لك أَخٌ عَزيزٌ تَرَى، في أَهْلِه أَوْ أبنائِه ما يَدْعُوك لنُصْحِه ـ فتجنَّبِ التَّصريحَ؛ فَمِنَ التَّصريحِ ما يَجْرَحُ، ولكنْ لِتَقُلْ لَهُ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ في رِفْقٍ: تعاهدْ أَهْلَكَ وأبناءك، وعوِّدْهُمُ الخيرَ؛ فإنَّ الخَيْرَ عادةٌ، وتخيَّرْ لَهُمُ الأصحابَ ذوي السُّمْعةِ الجيِّدةِ في المُجتمع، وتفقَّدْ أصحابَهُمْ، فإنْ كانوا على خَيْرٍ وصَلاحٍ فاحْمَدِ اللهَ، وإنْ كانوا على غيرِ ذلك، فاصْرِفْهُمْ عَنْهُمْ، وفَّقَكَ اللهُ لكُلِّ خَيْرٍ.

---

(١) «مجمع الأمثال» (١/ ٣٧٢).

(٢) فارْبَأْ بنفسك: ارتفع بها، وبابُهُ قَطَعَ.

ومَتى رأيتَ ما يَريبُ فانْتَبِهْ؛ فإنَّ للنَّقْلِ شُروطًا لا يَسْلَمُ حامِلُهُ مِنَ المَعَرَّةِ[١] إلَّا بها.

وإذا سَمِعْتَ فَقَدْ عَلِمْتَ أنّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لا يَرْقُبُونَ اللهَ في إخوانِهِمْ.

قال ابنُ حزمٍ - رحمه الله -: «مَنْ سَمِعَ قائلًا يَقُولُ في امْرَأَةِ صَديقِه قَوْلَ سَوْءٍ، فلا يُخْبِرْهُ بذلك أَصْلًا، لا سِّيما إنْ كانَ القائلُ عَيَّابَةً وقَّاعًا في النَّاسِ، سَليطَ اللِّسانِ، أو دافعَ مَغْرَمٍ عَنْ نَفْسِه، يُريدُ أنْ يَكْثُرَ أَمْثالُهُ في النَّاسِ، وهذا كَثيرٌ مَوْجُودٌ»[٢].

قلتُ: هذا واقعٌ لا محالةَ، فالثِّقَةُ إنَّما يأْتي البُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها، بَلْ يُعالِجُ الأُمُورَ في مَحَلِّها، ويَنْصَحُ لأَهْلِها، ويَسْتُرُ عليهم، ولا يَرْفَعُ أَمْرَهُما إلَّا مَتَى اسْتَعْصَى عليه، ورَأى أنَّ إصلاحَهُ لا يُجْدي مَعَهُ إلَّا عَصا رَبِّ المَنْزِلِ، وآخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ، وأَيْنَ ذلك الرَّجُلُ الثِّقَةُ؟!.

ولا أَنْصَحُ بحَمْلِ رسالةٍ لا تَحْمِلُ البِشَارةَ والخَيْرَ لأَهْلِها، ومَنْ فَعَلَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ.

وأنا أُحَدِّثُكَ بقِصَّةٍ وَقَعَتْ لي: كان لي أَخٌ طَلَّقَ زَوْجَهُ، وهي ابْنَةُ عَمِّنا، لا لعَيْبٍ فيها إلَّا لعَدَمِ وُجُودِ الأُلْفَةِ، فَقَدْ كانتْ ذَاتَ دِيْنٍ وخُلُقٍ، فحمَّلني أخي رسالةَ طلاقِها، فحملتُها على مَضَضٍ؛ لعِلْمي بالحالِ، ولأنَّ الاستمرارَ على تِلْكَ الحالِ مُحَالٌ.

إذا لَمْ تَكُنْ إلَّا الأَسِنَّةُ مَرْكَبًا ... فما حِيلَةُ المُضْطَرِّ إلَّا رُكُوبُها

فلمَّا أَوْصَلْتُ الرِّسالةَ لعمِّي، تغيَّرَ عليَّ على أَسْوَإِ ما يَكُونُ، وأَنْكَرْتُ وُدَّهُ ولُطْفَهُ، وهُوَ مَنْ ربَّاني صَغيرًا، وإلى الآنَ وأنا أُعاني ما أُعاني.

وأنا أُحَذِّرُ نَفْسي وإيَّاكَ مِنَ الدُّخُولِ في أَمْرٍ حتَّى نتبيَّنَ عاقبتَهُ، ومَنِ استطاع ألَّا يَدْخُلَ بَيْنَ أَحبَّائِه ومَعَارِفِه فلْيَفْعَلْ؛ فإنَّ السَّعيدَ مَن اتَّعظَ بغَيْرِه.

---

(١) المَعَرَّة - بزِنَةِ المَجَرَّة -: الإثْمُ.

(٢) «الأخلاق والسِّير» (ص١٢٥).

قال السَّمَوْءَلُ بْنُ عادياءَ:

إذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَديهِ جَمِيلُ
وإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبِيلُ[1][2]

وَمِنْ هذا القَبيلِ إعادةُ الكَلامِ المُذَكِّرِ بالأَسَى والحُزْنِ؛ فلا يَحْسُنُ إعادتُهُ على مَسْمَعِ مَنْ يتأذَّى بسَماعِه.

وانْظُرْ إلى هذا الجَوابِ مِنْ وَحْشيِّ بْنِ حَرْبٍ قاتلِ حَمْزَةَ - رضي الله عنه - بَعْدَ ما أَسْلَمَ، وقَدِمَ على رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -، فسأله رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - قائلًا: «**أنتَ وَحْشيٌّ؟**». قال: نَعَمْ. قال: «**أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؟**». قال: قَدْ كانَ مِنَ الأَمْرِ ما بَلَغَكَ[3].

فَلَمْ يُعِدْ وَحْشيٌّ ذِكْرَ القَتْلِ على مسامعِ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -، بَلْ قال - على وَجْهِ الإجمالِ -: قَدْ كانَ مِنَ الأَمْرِ ما بَلَغَكَ.

وبنَحْوِ هذا أجابَ الأَنْصارُ، لَمَّا تكلَّمَ بَعْضُهُمْ في قِسْمةِ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - غنائمَ حُنَيْنٍ، فدعاهم رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -، فقال: «**ما الَّذي بَلَغَني عَنْكُمْ؟**»

وكانوا لا يَكْذِبُونَ، فقالُوا: هُوَ الَّذي بَلَغَكَ[4].

فالكَلامُ المُؤْذِي الَّذي يُذَكِّرُ بالمآسي والآلامِ لا يُعادُ ولا يُكَرَّرُ، أَمَّا الكلامُ الطَّيِّبُ فيُعَادُ ويُكَرَّرُ؛ إذِ السَّامعُ يُحبُّ ذلك، ويَرْغَبُ فيه، وَمِنْ ثَمَّ قال بَعْضُ المُفَسِّرين لَمَّا طُرِحَ سُؤَالٌ في قَوْلِ زَكَريَّا - عليه السلام -: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٥)، فلَمَّا بُشِّرَ قال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (مريم: ٨).

---

(١) يَقُولُ: مَنْ لم يُصَبِّرِ النَّفْسَ على مكارهها، فلا سبيلَ إلى اكتسابِ حُسْنِ الثَّناءِ، وليس معنى الضَّيْمِ ضَيْمَ الغَيْرِ لَهُمْ؛ لأنَّهُمْ يأْنفُون مِنْ ذلك، ويَعُدُّونه تَذَلُّلًا.

(٢) «نهاية الأرب» (٣/ ٨٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٠٧٢).

(٤) رواه البخاريُّ (٣٧٧٨).

فكيف سـأل وقَدْ سألَ وهُوَ كبيرٌ بدلالةِ قوْلِه: ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم: ٤).

ولَمَّا بُشِّرَ قال: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ (مريم: ٨)؟!.

كَيْفَ سَأَلَ؟!، ولِمَ تعجَّبَ مِنَ الإجابةِ لَمَّا أُجيبت؟!.

أجاب بَعْضُ المُفسِّرين بأَجْوبةٍ، منها: أنَّهُ سَأَلَ كَيْ يُعادَ عليه التَّبشيرُ بالغُلام، وهذا ممَّ يُسْعِدُ ويَسُرُّ. والله أَعْلَمُ[1].

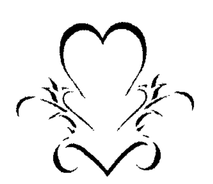
ومن درر عبد الله بن طاهر:

إنَّ مَـــنْ بَـلَّـغَ شَـتْـماً عَـــنْ أخٍ	فَـهُـوَ الـشَّـاتِـمُ لا مَـــنْ شَـتَـمَـكْ
ذاكَ شيءٌ لَمْ يُـواجِـهْـكَ بِـهِ	إنَّـما الـلُّـؤْمُ عَـلَى مَـنْ أعْـلَـمَـكْ
كَـيْـفَ لَمْ يَـنْـصُرْكَ إنْ كَـانَ أخًا	ذَا وَفَـاءٍ عِـنْـدَ مَـنْ قَـدْ ظَلَمَكْ
إنَّـما رَامَ بِــإِبْـلاغِ الَّـذي	نَـمَّ فيه فَـاعْـلَـمَـنْ أنْ يُـرْغِـمَـكْ
فَـأَهِـنْـهُ إنَّـهُ مِـنْ لُـؤْمِـهِ	إنْ نَـسُـمْـهُ بِـهَـوانٍ أكْـرَمَـكْ

فُصوصٌ:

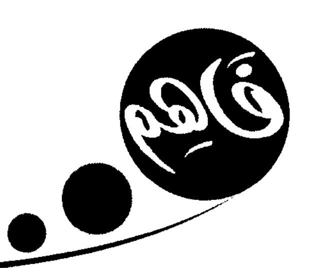
قال ابنُ حَزمٍ — رحمه الله —:

«لا تَنْقُلْ إلى صَدِيقِكَ ما يُؤْلِمُ نَفْسَهُ، ولا يَنْتَفِعُ بمَعْرِفَتِهِ؛ فهذا فِعْلُ الأَرَاذِلِ». «الأخلاق والسِّير» (ص١٢٥).



(١) انظر «فقه الأخلاق» (ص٢٤٠ ـ ٢٤١).

اجنِ العسلَ، ولا تكسر الخليّةَ



إنَّ الغضبانَ تشتعلُ النَّارُ في أحشائه،
ومتى خلصتْ إلى قلبه،
رُفِعَ عنهُ القلمُ، وسقطَ عنهُ التَّكليفُ،
ومتى كانت النَّارُ تُطفأُ بالنَّارِ؟،
إنَّما تُطفأُ بالماءِ الَّذي هو ضدُّها.

كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ لا يُحسِنُوا التَّعامُلَ مَعَ الغَضْبَانِ، بَلْ إنَّ بَعْضَهُمْ مَتَى رَأى اشتعالَ الغَضَبِ في أخيهِ، سارع إلى صَبِّ الزَيْتِ في النَّارِ لِدَفْعِ مغرمٍ عَنْ نَفْسِهِ وبَعْضُهُمْ يَعْتَدُّ بكُلِّ صَغيرةٍ وكبيرةٍ مِنْ قَوْلِهِ، وهذا كثيرٌ مَوْجُودٌ.

وبَعْضُهُمْ يَرُدُّ عليهِ الصَّاعَ بصاعَيْنِ، والكَيْلَ بكَيْلَيْنِ، وما هكذا تُوْرَدُ الإبلُ!.

قال ابْنُ الجَوْزِيّ - رحمه الله -: «مَتى رَأيْتَ صاحِبَكَ قَدْ غضبَ، وأَخَذَ يتكلَّمُ بما لا يَصْلُحُ - فلا يَنْبَغي أنْ تَعْقِدَ على ما يقولُهُ خِنْصراً[١]، ولا أَنْ تؤاخذَ به؛ فإنَّ حالَهُ حالُ السَّكْرانِ، لا يَدْري ما يَجْري، بَلِ اصْبِرْ لفَوْرَتِهِ، ولا تُعَوِّلْ عليها[٢]؛ فإنَّ الشَّيطانَ قَدْ غَلَبَهُ، والطَّبْعَ قَدْ هَاجَ، والعَقْلَ قَدِ اسْتَتَرَ، ومَتى أَخَذْتَ في نَفْسِكَ عليه، أَوْ أَجَبْتَهُ بمُقْتَضَى فِعْلِهِ - كُنْتَ كعاقلٍ وَاجَهَ مَجْنُونًا، أو كَمُفيقٍ عاتَبَ مُغْمَىً عليه، فالذَّنْبُ لَكَ، بَلِ انْظُرْ إليه بعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وتَلَمَّحْ تَصْريفَ القَدرِ لَهُ، وتَفَرَّجْ في لَعِبِ الطَّبْعِ بِهِ، واعْلَمْ أَنَّهُ إذا انْتَبَهَ نَدِمَ على ما جَرَى، وعَرَفَ لَكَ فَضْلَ الصَّبْرِ.

(١) **الخِنْصَر - بكَسْرِ الخاءِ والصَّادِ وتُفْتَح -**: الإصْبَع الصُّغْرى أو الوُسْطَى.

(٢) يَحْسُنُ أَلَّا تُذَكِّرَ الغَضْبَانَ باللهِ حالَ هَيَجانِ غَضَبِهِ؛ لئلَّا يتكلَّمَ بما لا يُحْمَدُ عُقْباهُ. قال النَّوويُّ - رحمه الله - في «الأذكار» (ص٨٥١): «رَوَى النحاسُ عَنْ أبي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى - وكان أَحَدَ الفُقَهاءِ الأُدَباءِ - أنَّهُ قال: يُكْرَهُ أَنْ يُقالَ لأَحَدٍ عِنْدَ الغَضَبِ: اذْكُرِ اللهَ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَحْمِلَهُ الغَضَبُ على الكُفْرِ».

وأَقَلُّ الأقسام أنْ تُسَلِّمَهُ فيما يَفْعَلُ في غَضَبه إلى ما يَسْتريحُ به، وهذه الحالةُ يَنْبغي أنْ يتلَمَّحَها الوَلَدُ عِنْدَ غَضَب الوالد، والزَّوْجَةُ عِنْدَ غضَب الزَّوْج، فَتَتْرُكُهُ يَشْتَفي بما يَقُولُ، ولا تُعَوِّلْ على ذلك، فسيعودُ نادمًا مُعْتَذرًا، ومَتى قُوبلَ على حالته ومقالته، صارت العَداوةُ مُتمكِّنَةً، وجازى في الإفاق على ما فَعَلَ في حَقِّه وَقْتَ السُّكْر.

وأكثرُ النَّاس على غَيْر هذه الطَّريق، ومَتى رَأَوْا غَضْبانًا، قَابَلُوهُ بما يَقُولُ ويَعْمَلُ، وهذا على غَير مقتضى الحِكْمة، بَل الحِكْمَةُ ما ذَكَرْتُهُ، وما يَعْقِلُها إلَّا العالِمُونَ»[1].

قال أُستاذُنا عَبْدُ الكريم العمادُ -حفظه الله-:

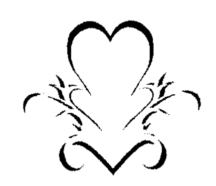
دَع الغَضْبَانَ يُخْرجْ ما لَدَيْه ... وأَحْسَنْتَ الصَّنيعَ إذا سَكَتَّا

وإنْ جادَلْتَهُ والنَّارُ فيه ... فأنتَ تَصُبُّ في النِّيران زَيْتَا

مرجان:

قال الأَحْنَفُ بْنُ قَيس -رحمه الله-:

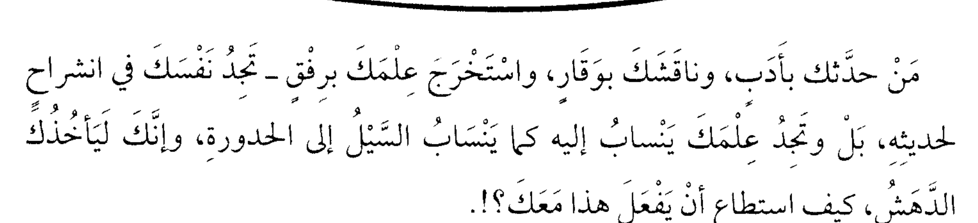
«مِنْ حَقِّ الصَّديق أَنْ يُحْتَمَلَ لَهُ ظُلْمُ الغَضَب، وظُلْمُ الدَّالَّة[2]، وَظُلْمُ الهَفْوَة». «الصَّداقة والصَّديق» (ص٥٤).



(١) «صَيْد الخاطر» (ص٢٢١).

(٢) الدَّالَّة: ما تَدلُّ به على حَميمك.

تجمّل



مَنْ حدَّثك بأدبٍ، وناقشَكَ بوَقارٍ، واسْتَخْرَجَ عِلْمَكَ برِفْقٍ ـ تَجِدُ نَفْسَكَ في انشراح لحديثِه، بَلْ وتَجِدُ عِلْمَكَ يَنْسابُ إليه كما يَنْسَابُ السَّيْلُ إلى الحدورةِ، وإنَّكَ لَيَأخُذُكَ الدَّهَشُ، كيف استطاع أنْ يَفْعَلَ هذا مَعَكَ؟!.

في حِينِ أنَّكَ لتعْجَبُ لأُناسٍ يَسُدُّونَ النَّفْسَ، ويُشَتِّتُونَ الفِكْرَ، حتَّى إنَّكَ لتخالُ نَفْسَكَ أمامَهُمْ لَمْ تُؤْتَ عِلْماً بَعْدُ!، فَهَلْ ثَمَّةَ فَرْقٌ؟!.

ما مِنْ شَكٍّ أنَّهُ الإلحاحُ الَّذي يَحْمِلُ السَّمْحَ على الشُّحِّ في كُلِّ شَيْءٍ، يُصَوِّرُ ما نَراهُ قَوْلُ أبي نُوَاسٍ:

تَـأَنَّ مـواعيـدَ الكـرامِ؛ فَرُبَّمـا ... حَمَلْتَ مِنَ الإلْحاحِ سَمْحًا على بُخْلِ (١)

فَحَرِيٌّ بالمُتعلِّمِ أنْ يَصُونَ نَفْسَهُ عَنِ الإلحاحِ؛ فإنَّهُ رُبَّما أَحْدَثَ لَهُ رِقَّةَ شأْنٍ وسُخْفَ مَنْزِلَة.

وأَقْبَحُ الإلحاحِ الإلحاحُ في الطَّلَبِ، فإذا طَلَبْتَ إلى أخيكَ حاجةً، فَتِلْكَ الحاجة قَدْ فُرِغَ مِنْها لك أو لغَيْرِكَ، فإنْ كانتْ مِنْ نَصيبِكَ، فاطْلُبْها بكلمةٍ واحدةٍ تُزَيِّنُكَ؛ فإنَّ ما لا يَكُونُ مِنْ نَصيبِكَ لا يَكونُ بإلحاحٍ يَشِينُكَ، فإذا عَلِمْتَ ذلك، فمَالَكَ وللإلحاحِ؟!.

---

(١) «ديوان أبي نَواس» (ص٥٩٩).

(٢) «العِقْدُ الفَرِيد» (١/ ٢٥٣).

إذا كُنْتَ طالبَ حاجةٍ فَتجمَّلِ فيها بأَحْسَنِ ماَ طَلَبْتَ وأَجْمِلِ
إنَّ الكَرِيمَ أخا المُرُوءةِ والنُّهَى مَنْ لَيْسَ في حاجاتِه بِمُثَقِّلِ[٢]

سبائك ذهبيّة :

قال سُفيانُ الثوريُّ - رحمه الله -:

«الإلحاحُ لا يَصْلُحُ ولا يَجْمُلُ إلَّا على اللهِ - عَزَّ وجلَّ - .»

«الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ٢٨٦).



رياض المتحابين



إنَّ العتابَ إذا وُضِعَ مَوْضعَهُ، واستُغلَّتْ فُرْصَتُهُ. كان رياضَ المتحابِّينَ، ومَتى عَرِيَ منْ ذلك، كانتْ ثمَرَتُهُ إلى العَدَاوةِ.

للعِتَابِ رِجالٌ ومقامٌ وأَحْوالٌ، فلا يَصْلُحُ أنْ تُعاتِبَ مَلُولًا ولا مُتَلوِّنًا؛ فالمَلُولُ لا يَسْرِي وُدُّكَ في نَفْسِهِ سَرَيانَهُ، والمُتلوِّنُ لا يُرْجَى وُدُّهُ، ولا يُوثَقُ بعَهْدِهِ؛ لأنَّ مودَّتَهُ مُتَلَوِّنةٌ كتَلَوُّنِ الحِرْباءِ.

إذا أَنْتَ عاتَبْتَ المَلُولَ[1]، فإنَّما ... تَخُطُّ على صُحُفٍ مِنَ المَاءِ أَحْرُفا

وَهَبْهُ[2] ارْعَوَى[3] بَعْدَ العِتَابِ، أَلَمْ تَكُنْ ... مَوَدَّتُهُ طَبْعًا، فصارتْ تَكَلُّفا[4]

وغالبُ النَّاسِ مِنْ هذا الصِّنْفِ، وهؤلاءِ الَّذين «مُعاتَبَتُهُمْ تَبْعَثُ التَّجنِّي[5]، والتَّجَنِّي يَبْعَثُ المُخاصمةَ، والمُخاصمةُ تَبْعَثُ العداوةَ، ولا خَيْرَ في شَيْءٍ ثَمَرَتُهُ العَدَاوةُ».

فَدَعِ العِتَابَ، فَرُبَّ شَرٍّ ... رٍ هاجَ أَوَّلُهُ العِتَابُ[6]

وهؤلاء هُمُ الَّذينَ شَكَى حالَهُمُ الإمامُ ابنُ الجَوزيِّ - رحمه الله - بقوله:

«كان لنا أصدقاءُ وإخوانٌ أعتدُّ بهم، فرأيتُ مِنْهُمْ مِنَ الجَفَاءِ، وتَرْكِ شُرُوطِ الصَّداقةِ

---

(١) المَلُول: هُوَ السَّريعُ التَّغيُّرِ، والوَشيكُ التَّنكُّرِ.
(٢) هَبْ: فعل أمر جامد بمعنى: ظُنَّ وافْتَرِضْ.
(٣) ارْعَوَى: رَجَعَ رُجُوعًا حَسَنًا.
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٥).
(٥) التَّجنِّي: التَّجرُّم، وهُوَ أَنْ يَدَّعِيَ أَحَدُهما على الآخَرِ ذَنْبًا لَمْ يَفْعَلْهُ.
(٦) «المستطرف» (١/ ٢٨٢).

والأُخُوَّةِ ـ عجائبَ، فأخذتُ أعْتِبُ، ثُمَّ انْتَبَهْتُ لنَفْسي، فَقُلْتُ: وما يَنْفَعُ العِتَابُ؟!؛ فإنَّهُمْ إنْ صَلَحُوا فَلِلْعتَاب لا للصَّفاءِ، فَهَمَمْتُ بمقاطَعَتِهِمْ، ثُمَّ تفكَّرْتُ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ بَيْنَ معارِفَ وأَصْدِقَاءَ في الظَّاهِرِ وإخوةٍ مُباطنين، فقُلْتُ: لا تَصْلُحُ مُقاطَعَتُهُمْ، وإنَّما يَنْبَغي أنْ تَنْقُلَهُمْ مِنْ ديوانِ الأُخُوَّةِ إلى ديوانِ الصَّداقةِ الظاهرةِ، فإنْ لَمْ يَصْلُحُوا لها، نَقَلْتَهُمْ إلى جُمْلَةِ المعارفِ، وعامَلْتَهُمْ مُعاملةَ المعارفِ، ومِنَ الغَلَطِ أنْ تُعَاتِبَهُمْ»[1].

ويَحْسُنُ العِتَابُ مَعَ الأخِ الوافي الَّذي حَثَّكَ الشَّاعِرُ على التمسُّكِ به بقَوْله:

وإذا صفا لك مِنْ دَهْرِكَ واحِدٌ ... فاشْدُدْ عَلَيْه، وعِشْ بذاكَ الواحِدِ

فَعِتَابُ مَنْ هذا حالُهُ دَليلٌ على بَقَاءِ المودَّةِ.

أُعاتِبُ ذا المودَّةِ مِنْ صَديقٍ ... إذا ما سامَني مِنْهُ اغْتِرابُ

إذا ذَهَبَ العِتَابُ فلا وِدَادَ ... ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِيَ العِتَابُ

فالعِتَابُ في هذهِ الحالةِ حَسَنٌ جميلٌ، وممَّا يَزيدُهُ جمالًا لُزُومُ الاعتدالِ، لا شَطَطَ[2] فيه، ولا يَكُونُ إلَّا على زَلَّةٍ.

قال الماوري ـ رحمه الله ـ:

«إنَّ كَثْرَةَ العِتَابِ سَبَبٌ للقَطيعةِ، واطِّراحُ جَميعِهِ دَليلٌ على قِلَّةِ الاكْتِراثِ بأَمْرِ الصَّديقِ، وقَدْ قِيلَ: علَّةُ المُعاداةِ قلَّةُ المُبالاةِ. بَلْ تتوسَّطُ حالَتَا تَرْكِهِ وعِتَابِه، فَيُسَامِحُ بالمُتاركةِ، ويَسْتَصْلِحُ بالمُعاتبةِ، فإنَّ المُسامحةَ والاستصلاحَ إذا اجتمعا، لم يَلْبَثْ مَعَهُما نُفورٌ، ولَمْ يَبْقَ مَعَهما وَجْدٌ[3]، وقَدْ قال بَعْضُ الحُكَماءِ: لا تُكْثِرَنَّ مُعاتبةَ إخْوانِكَ؛ فَيَهُونَ عَلَيْهِمْ سُخْطُكَ»[4].

---

(١) «صَيْد الخاطر» (ص ٢٩٤).

(٢) الشَّطَط ـ بفتحتين ـ: مُجاوزةُ القَدْرِ المَحْدُود.

(٣) الوَجْدُ: الغَضَبُ.

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨).

ولله در البهاء زهير -عفا الله عنه- حيث قال:

تَعَالَوْا بِنَا نَطْوِيْ الحَدِيثَ الَّذِيْ جَرَى ... ولا سمع الواشي بذاك ولا دَرَى
تعالوا بنا حتّى نَعُودَ إلى الرِّضَا ... وَحَتّىَ كَأَنَ العَهْدَ لَنْ يَتَغَيَّرَا
ولا تَذْكُرُوا ذَاكَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ... عَلى أَنَّهُ مَا كَانَ ذَنْبٌ فَيُذْكَرَا
لَقَدْ طَالَ شَرْحُ القَالِ والْقِيْلِ بَيْنَنَا ... وَمَا طَالَ ذَاكَ الشَّرْحُ إلَّا لَيَقْصُرَا
مَتَّى يَجْمَعُ الرَّحْمَنُ شَمْلِيْ بِقُرْبِكُمْ ... وَيَصْفُو لَنا مِنْ عَيْشِنَا ما تَكَدَّرَا
سَأَذْكُرُ إحْسَانًا تَقَدَّم مِنْكُمُ ... وأتْرُكُ إكْرَامًا لَهُ ما تأَخَّرَا
مِنَ الْيَوْم تَارِيْخُ المَحَبَّةِ بَيْنَنَا ... عَفَا الله عَنْ ذَاكَ الْعِتَابِ الذي جَرَى
فَكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا وَكَمْ بَاتَ بَيْنَنَا ... مِنَ الأُنْسِ ما يُنْسَى به طَيِّبُ الكَرَى
أحَادِيْثُ أحْلَى في النُّفُوسِ مِنَ المُنَى ... وألْطَفُ مِنْ مَرِّ النَّسِيْمِ إذَا سَرَى

وقال -أيضًا-:

مِنَ الْيَومِ تَعَارَفْنَا ... ونَطْوِيْ مَا جَرَى مِنَّا
ولَا كَانَ ولا صَارَ ... ولا قُلْتُمْ وَلَا قُلْنَا
وإنْ كَانَ ولابُدَّ ... مِنْ العَتْبِ فَبالحُسْنَى
فَقَدْ قِيْلَ لَنَا عَنْكُمْ ... كَمَا قِيْلَ لَكُمْ عَنَّا
كَفَى مَا كَانَ مِنْ هَجْرٍ ... وَقَدْ ذُقْتُمْ وَقَدْ ذُقْنَا
وَمَا أحْسَنَ أنْ نَرْ ... جِعَ لِلْوَصْلِ كَمَا كُنَّا

سَبَائكُ ذَهَبيَّة:

قال ابْنُ حَزم -رحمه الله-:

«العِتَابُ للصَّديقِ كالسَّبْكِ للسَّبيكَةِ، فإمَّا تَصْفُو، وإمَّا تَطيرُ».

«الأخلاق والسِّير» (ص١١٥).

لا تجادل

إنَّ الجدَلَ يتولّدُ منهُ العنادُ،
الّذي منْ ثمرتهِ الحقدُ،
فمَنْ أحبَّ أنْ تبقى القلوبُ
سليمةً لبعضها، فليترُكِ الجدَلَ.

فاهم

الجدلُ: أَنْ يَجْمَعَكَ الحديثُ برَجُلٍ مُمارِيًا لَجُوجًا، يُثْبِتُ لك أنَّ الشَّمْسَ غائبةً، وأنْتَ تَرَاها طالعةً، وقِسْ على ذلك، فالحديثُ مَعَ مَنْ هذا حالُهُ يُسمَّى جِدالًا، فإنْ جادَلْتَهُ بَقِيَ في قَلْبِهِ ما يَضُرُّكَ ولا ينفعه.

واللهُ - سُبحانَهُ وتعالى- يَقُولُ في هذا وأمثاله:

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (الزخرف: ٥٨).

وقال رَسُولُ الله - ﷺ -: «أَبْغَضُ الرِّجالِ إلى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[١].

وقال - ﷺ -: «ما ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً أَتَاهُمْ، إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»[٢].

فلكي تَكْسِبَ قَلْبَهُ؛ لا تُجادِلْهُ، بَلِ اتْرُكْهُ وما هُوَ عَلَيْهِ، فَسَيَعُودُ إلَيْكَ، سواء طال الزَّمانُ أَوْ قَصُرَ.

ومِنْ دُرَرِ العلَّامة ابن حَزمٍ - رحمه الله - قَوْلُهُ:

«إيَّاكَ ومُخَالفةَ الجليسِ، ومُعارضةَ أَهْلِ زمانكَ فيما لا يَضُرُّكَ في دُنْياكَ، ولا في آخرَتِكَ، وإنْ قَلَّ؛ فإنَّكَ تستفيدُ بذلك الأَذَى والمُنافرةَ والعداوةَ، ورُبَّما أدَّى ذلك إلى المُطالبةِ والضَّررِ العظيمِ دُونَ مَنْفَعَةٍ أَصْلًا».

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨) عَنْ عائشةَ - رضي الله عنها -.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٥/ ٢٥٢ - ٢٥٦)، والتِّرْمذيُّ (٣٢٥٣)، وابْنُ ماجَهْ في المقدِّمة (٤٨) عَنْ أبي أُمامَةَ - رضي الله عنه -.

كلماتٌ نورانيَّةٌ :

قال مالكُ بنُ أنسٍ - رحمه الله - :

«الجِدالُ في الدِّينِ يُفْشِيءُ المَرْءَ[1]، ويَذْهَبُ بِنُورِ العِلْمِ مِنَ القَلْبِ، ويُقَسِّي ويُورِثُ الضَّغائِنَ» «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٠).



(١) يُفْشِيءُ المَرْءَ: يَجْعَلُهُ مُسْتكبرًا.

احذر الانزلاق

فاهم

إنّ المجالسة تولّد المجانسة، والصّاحب ساحب، ومن عاشر متلوّنا، تبيّن له -مع الأيام- تلوُّنُه.

المُتَلَوِّنُ لا يَسْتَقِرُّ على حالٍ، ولا يَقِرُّ لَهُ قَرارٌ، يَدُورُ مَعَ مَصْلَحَتِهِ حَيْثُ دارَتْ، ويَميلُ مَعَ مَنْفَعَتِهِ حَيْثُ مالَتْ، ومَنْ جَلَسَ إلى نافخِ الكيرِ[١] أصابَهُ أَذاهُ، وَمَنْ يَصْحَبِ الطِّيبَ المُعَطِّرَ يَعْبَق.

قال ابنُ عقيل - رحمه الله - محذّرًا من هذا الصنف من الناس: «احْذَرْ مِمَّنْ إذا غَلَبَتْ عليه حَالٌ مِنَ الأَحْوالِ اسْتَحَالَ[٢]، حتَّى لَمْ يَظْهَرْ فيهِ تقييدُ العَقْلِ على السَّطْحِ[٣]، وإنْ غضبَ تَأَسَّدَ[٤]، فَلَمْ يَبْقَ فيهِ ما يَكُفُّهُ عَنِ الصَّوْلِ[٥]، وإنِ اعْتَراهُ النَّهَمُ[٦]، خَرَجَ بِصُورةِ رَخَمٍ[٧] ساقِطًا على ما وَجَدَ مِنَ المَطَاعِمِ، لا يَلْوي[٨] عَنْ تَنَاوُلِ المُسْتَقْذَراتِ في الطَّبْعِ، والمكروهاتِ في الشَّرْعِ، وإنْ عرض بها طالبُ الحقِّ، ومُقْتَضى الشَّرْعِ، راغ[٩] رَوَغَانَ

---

(١) **الكير** - بالكسْر - : مِنْفَخُ الحدَّادِ، والجمْعُ أَكْيارٌ، وكِيرَةٌ - بزِنَة عِنَبَة - ، وكِيرانٌ.

(٢) **استحال**: انْقَلَبَ عَنْ حاله.

(٣) **السَّطح**: البَسْط، وبابُهُ مَنَعَ.

(٤) **تأسد**: صار كالأَسَد.

(٥) **الصَّوْل**: السَّطْوُ والاستطالة، وبابُهُ قال، وصَوْلَةً - أيضًا - .

(٦) **النَّهَم**: إفراط الشَّهْوة في الطَّعام، وبابُهُ فَرِحَ.

(٧) **الرَّخَم** - بفتحتين - : طائرٌ أبْقَعُ (أيْ: فيه سوادٌ وبياضٌ)، يُشْبِهُ النَّسْرَ في الخِلْقَة، يأكلُ العَذِرَة، وهُو مِنَ الخبائث، الواحدةُ رَخَمَةٌ.

(٨) **لا يَلْوي**: لا يُعْرِضُ.

(٩) **راغ**: مال وحادَ عَنِ الشَّيْءِ، وبابُهُ قال، ورَوَغَانًا - أيضًا بفتحتَيْن - .

الثَّعْلَب، لا يَمْزُجُ رَوَغَانَهُ ثباتًا، ولا إصغاءً إلى إذْعَان، ولا استجابةً إلى هذا الشَّأْن، فهذا لا يُدَّخَرُ عِنْدَهُ الإحسانُ؛ لأنَّهُ كالوعَاء المُخْتَرِق، ولا يُرْجَى مِنْهُ الخَيْرُ، فاحْذَرْ مُعاشرةَ أَمْثَاله؛ فإنَّها مِنْ أعظم الأَخْطَار، ومَجْمُوعُ هذا في كلمة: لا تُعَاشِرْ مُتَلَوِّنًا»[١].

وَوَصَفَ أَحَدُهُمْ صاحبًا لَهُ، فقال: «مَوَدَّتُهُ مُتَنَقِّلةٌ كتَنَقُّل الأَفْيَاء[٢]، وأُخُوَّتُهُ مُتَلَوِّنةٌ كتَلَوُّن الحِرْبَاء»[٣].

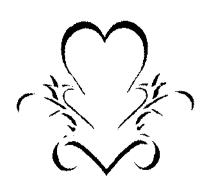
قُلْ للَّذي لَسْتُ أَدْري مِنْ تَلَوُّنِه ... نَاصِحٌ أَمْ على غِشٍّ يُدَاجيني[٤]:

تَغْتَابُني عِنْدَ أَقْوامٍ، وتَمْدَحُني ... في آخَرِينَ، وكُلُّ ذلك يَأْتِيني[٥]

مِنْ مشكاة النُّبوَّة:

قال رَسُولُ الله - ﷺ -: «تَجِدُ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ يَوْمَ القِيامةِ عِنْدَ اللهِ ذا الوَجْهَيْنِ: الَّذي يَأْتي هؤلاءِ بوَجْهٍ، وهؤلاءِ بوَجْهٍ».

رواه البخاريُّ (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -.



(١) «الفُنُون» (١/ ٤١٤).

(٢) الأَفْيَاء: جَمْعُ فَيْءٍ، وهُوَ الظِّلُّ الَّذي بَعْدَ الزَّوال، سُمِّي فَيْئًا لرُجُوعِه مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ.

(٣) «محاضرات الأدباء» (٣/ ٤٠).

(٤) يُقالُ: داجاهُ: إذا داراهُ كأنَّهُ ساتَرَهُ العَدَاوةَ.

(٥) «محاضرات الأدباء» (٣/ ٤٠).

محنة الكرام

إنَّ المرءَ لا يزالُ يتقلَّبُ بَيْنَ محن لا تَنْقضي إلى أنْ يُوارَى الثَّرَى، وأعظمُها محْنَتُهُ بأهْلِ جنسه، وما أحدٌ يَعْدَمُ عدوًّا، ولا يَفْقِدُ حاسدًا.

فما دام الأَمْرُ كما ذَكَرْتُ لك، فاعْلَمْ أنَّهُ بحسبِ قَدْرِ النِّعْمةِ تَكْثُرُ الأَعْداءُ والحَسَدَةُ.

كما قال البُحْتريُّ:

ولَنْ تَسْتَبِينَ -الدَّهْرَ- مَوْقِعَ نِعْمَةٍ   إذا أَنْتَ لَمْ تُدْلَلْ عَليها بحاسِدِ[١]

ومن دُرر العلامة ابن حزم -رحمه الله-: «إنْ لمْ يَكُنْ لَكَ عَدُوٌّ فلا خَيْرَ فيكَ، ولا منزلةَ أَسْقَطَ مِنْ مَنْزِلَةِ مِنْ لا عَدُوَّ لَهُ؛ فَلَيْسَتْ إلَّا مَنْزِلَةَ مَنْ لَيْسَ للهِ ـ تعالى ـ عِنْدَهُ نِعْمةٌ يُحْسَدُ عَلَيْها، عافانا اللهُ»[٢].

قُلتُ: لا يَحْسُنُ قَرْشُ العَصَا للعَدُوِّ قَبْلَ الإعداد، ولا قَدْحُ[٣] زَنْدِه[٤] بإخبارِه بعَدواتك لَهُ، فيُوقِدَ عليك نارَهُ، ولا تَسْخِينُ صَدْرِه، فَيَقْلِبَ لك ظَهْرَ المِجَنِّ[٥]، وحالُهُ: «خُذِ اللِّصَّ قَبْلَ أَنْ يأخُذَكَ».

فإنَّ الحياةَ قصيرةٌ، والعُمُرُ أَجَلُّ وأعظمُ مِنْ أنْ يَضِيعَ في تِلْكَ التَّوافِهِ.

لَوْ كُلُّ كَلْبٍ عَوَى أَلْقَمْتُهُ حَجَرًا   لَأَصْبَحَ الصَّخْرُ مِثْقَالًا بدِينارِ

---

(١) انظر «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٠).

(٢) «الأخلاق والسِّير» (ص١٧٨).

(٣) قَدْحُ الزَّنْد: إيراؤُهُ وإخراجُ ناره، وبابُهُ قَطَعَ.

(٤) الزَّنْدُ ـ بالفتح ـ : العُودُ الَّذي يُقْدَحُ به النَّارُ، والجَمْعُ زِنادٌ، وأَزْنُدٌ، وأزنادٌ.

(٥) المِجَنُّ ـ بالكسر ـ : التُّرْسُ؛ لأنَّهُ يَسْتُرُ حامِلَهُ، والجَمْعُ المَجَانُّ ـ بالفتح ـ .
وقولُهُمْ: قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ المِجَنِّ: كلمةٌ تُضْرَبُ مَثَلًا لِمَنْ كان لصاحِبِهِ على مودَّةٍ أوْ رعايةٍ، ثُمَّ حال عَنْ ذلك.

وَهَلْ كان سَلَفُنا الصَّالحُ يَلْتَفِتُونَ إلى مِثْلِ تِلْكَ الأُمُورِ؟، إنَّما كان لَهُمْ سَلاحان: المُداراةُ، والتَّغافُلُ، فسارت الشَّمْسُ في فَلَكِها رغمَ نُبَاحَ الكِلَابِ، وعُوَاءِ الذِّئابِ، فعاشُوا آمنينَ مُغْتَبطِينَ في ذِمَّةِ الحَمْدِ والسَّلامة.

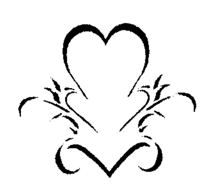
قال ابنُ المُقفَع: «لِيَكُنْ مِمَّا تَنْتَظِرُهُ مِنْ أَمْرِ عَدُوِّكَ وحاسِدِكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لا يَنْفَعُكَ أَنْ تُخْبِرَ عَدُوَّكَ وحاسِدَكَ أَنَّكَ لَهُ عَدُوٌّ، فَتُنْذِرَهُ نَفْسَكَ، وتُؤْذِنَهُ بحَرْبِكَ قَبْلَ الإعداد والفُرْصَة، فتَحْمِلَهُ على التَّسلُّح لَكَ، وتُوقِدُ نارَهُ عَلَيْكَ، واعْلَمْ أَنَّهُ أَعْظَمُ لخَطَرِكَ[1] أَنْ يَرَى عَدُوُّكَ أَنَّكَ لا تتَّخذُهُ عَدُوًّا؛ فإنَّ ذلك غِرَّةٌ[2] وسَبيلٌ لَكَ إلى القُدْرةِ عليه.

فإنْ أَنْتَ قَدَرْتَ واسْتَطَعْتَ اغتفارَ العَداوةِ عَنْ أَنْ تُكَافِىءَ بها ـ فهُنالِكَ اسْتَكْمَلْتَ عَظِيمَ الخَطَرِ»[3].

وإذا عَجَزْتَ عَنِ العَدُوِّ فَدَارِه ... وامْزَحْ لَهُ، إنَّ المِزاحَ وِفَاقُ
فالنَّارُ بالماءِ الَّذي هُوَ ضِدُّهَا ... تُعْطِي النَّضَاجَ، وطَبْعُها الإحْرَاقُ[4]

تجَارِبُ:

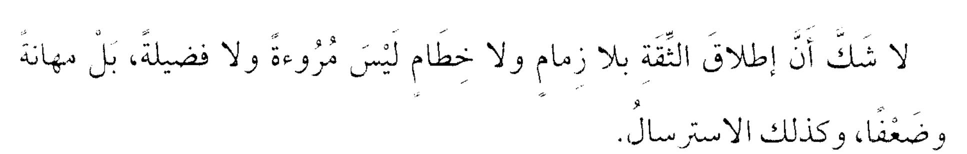
قال ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ: «مِمَّا أفادَتْني تَجَارِبُ الزَّمَانِ: أَنَّهُ لا يَنْبَغي لأَحَدٍ أَنْ يُظاهِرَ بالعَداوَةِ أَحَدًا ما اسْتَطَاعَ» «صَيْدُ الخاطر» (ص١٦٩).



---

(١) **الخَطَر** ـ بفتحتين ـ: الشَّرَفُ ورِفْعَةُ القَدْرِ.
(٢) **غرة**: غفلة.
(٣) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١١٢ ـ ١١٣).
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٢).

الثقة بكل أحد عجز



إنّ الثقة بكلّ أحد ليس من الحزم، بل الحزمُ حجبُ الثقة حتى تجد لها موضعاً، وقل مثل ذلك في الاسترسال.

لا شكّ أنّ إطلاقَ الثِّقة بلا زمام ولا خِطام لَيسَ مُرُوءةً ولا فضيلةً، بَلْ مهانةً وضَعْفًا، وكذلك الاسترسالُ.

يقولُ ابنُ حزمٍ - رحمه الله -: «مَن امْتُحِنَ بأنْ يُخالِطَ النّاسَ، فلا يُلْقِ بوهمِهِ كُلَّه إلى مَنْ صَحِبَ، ولا يَبْنِ منْهُ إلاّ على أنَّهُ عَدُوٌّ مُناصِبٌ، ولا يُصْبِحُ كُلَّ غَداةٍ إلاَّ وَهُوَ مُتَرَقِّبٌ مِنْ غَدْرِ إخوانِهِ، وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ، مِثْلَما يترقَّبُ مِنَ العَدُوِّ المُكاشِفِ، فإنْ سَلِمَ مِنْ ذلك، فللّه الحَمْدُ، وإنْ كانتِ الأُخْرَى؛ أُلْفِي[1] مُتَأَهِّبًا، ولَمْ يَمُتْ هَمًّا.

وأَنا أُعْلِمُكَ أنَّ بَعْضَ مَنْ خالَصَني المودَّةَ، وأَصْفَاني إيَّاها غايةَ الصَّفاءِ في حالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والسَّعَةِ والضِّيقِ، والغَضَبِ والرِّضَى ـ تَغَيَّرَ عليَّ أَقْبَحَ تَغَيُّرٍ بَعْدَ اثْنَي عَشَرَ عامًا مُتَّصِلةً في غايةِ الصَّفاءِ، لِسَبَبٍ لطيفٍ جدًّا، ما قدَّرْتُ ـ قطُّ ـ أنَّهُ يُؤَثِّرُ مِثْلُهُ في أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، ما صَلُحَ لِي بَعْدَها، ولَقَدْ أَهَمَّني ذلك سِنِينَ كثيرةً هَمًّا شَديدًا»[2].

وقال ابنُ الجوزيِّ - رحمه الله -: «مِنْ أَعْظَمِ الغَلَطِ الثِّقَةُ بالنّاسِ والاسترسالُ إلى الأَصْدِقاءِ؛ فإنَّ أشدَّ الأعداءِ وأَكْثَرَهُمْ أذَىً الصَّديقُ المُنْقَلِبُ عَدُوًّا؛ لأَنَّهُ قدِ اطَّلَعَ على خَفِيِّ السِّرِّ.

---

(١) أُلْفِي: وُجِدَ.

(٢) «الأخلاق والسِّير» (ص١١٦).

قال الشاعر:

احْـــــذَرْ عَـــــــدُوَّكَ مَـــــرَّةً ... واحْـــذَرْ صَـدِيـقَـكَ أَلْـــفَ مَــرَّهْ

فَـلَـرُبَّـمـــا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيـقُ ... فـكــان أَدْرَى بـالــمَـضَــرَّهْ

وقال آخر:

كُـنْ مِـنْ صَدِيْقِكَ حَـاذِرًا فَلَرُبَّما ... خَـانَ الصَّدِيقُ فَصَارَ غَـيرْ صَدِيْقِ

واحــذَر صَـدِيْـقَـكَ لَا عَــدُوكَ إنَّـمَا ... حَـرَكَـاتُ سِرِّكَ عِنْدَ كُـلِّ صَدِيْقِ

وقال ابن ليون التجيبي:

قَـلَّـما يـؤذِيـكَ مَــنْ لَا يَـعْـرِفُـكْ ... فَـتَـحَـفَّـظْ مِــنْ صَــدِيْـقٍ يَألفُكْ

لَا تَـثِـقْ بـالـوُدِّ مِمَّــنْ تَصْطَفِيْ ... كَــمْ صَـدِيـقٍ تَصْطَفِيْهِ يُتْلِفُكْ

واعْلَمْ أنَّ مِنَ الأَمْرِ المَوْضُوعِ في النُّفُوسِ الحَسَدُ على النِّعَمِ، أَوِ الغِبْطَةُ وَحُبُّ الرِّفْعَةِ، فإذا رآك مَنْ يَعْتَقِدُكَ مثلًا لَهُ، وَقَدِ ارْتَقَيتَ عليه، ولا بُدَّ أَنْ يتأثَّرَ، ورُبَّما حَسَدَ، فإنَّ أُخْوَةَ يُوسُفَ -عليه السلام- مِنْ هذا الجِنْسِ جَرَى لَهُمْ.

فإن قُلتَ: كَيْفَ يَبْقَى الإنسانُ بلا صديقٍ؟. قُلْتُ لَكَ: أتراكَ ما تَعْلَمُ أنَّ المُجانِسَ يَحْسُدُ، وأنَّ أكثرَ العَوَامِّ يَعْتَقِدُونَ في العالِمِ أنَّهُ لا يَبْتَسِمُ، ولا يَتَناوَلُ مِنْ شَهَواتِ الدُّنْيا شَيْئًا، فإذا رَأَوْا بَعْضَ انْبِسَاطِهِ في المُبَاحِ، هَبَطَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، فإذا كانتْ هذِهِ حالةَ العَوَامِّ، وتِلْكَ حالةَ الخَوَاصِّ، فَمَعَ مَنْ تَكُونُ المُعاشرةُ؟!.

لا بَلْ واللهِ، ما تَصِحُّ المُعاشرةُ مَعَ النَّفْسِ؛ لأَنَّها مُتَلَوِّنَةٌ، ولَيْسَ إلَّا المُداراةُ للخَلْقِ، والاحترازُ مِنْهُمْ، واتِّخاذُ المعارفِ مِنْ غَيْرِ طَمَعٍ في صَدِيقٍ صادِقٍ، فإنْ نَدَرَ فَلْيَكُنْ

غَيْرَ مُماثِلٍ؛ لأنَّ الحَسَدَ إليه أَسْبَقُ، ولْيَكُنْ مُرْتفعًا عَنْ رُتبةِ العَوامِّ، غَيْرَ طامعٍ في نَيْلِ مقامِك.

وإنْ كانتْ مُعاشرةُ هذا لا تَشْفي؛ لأَنَّ المُعاشرةَ يَنْبغي أَنْ تَكُونَ بَيْنَ العُلَماءِ مِنْ مُجانسٍ، لزِمَهُمْ مِنَ الإشاراتِ في المُخالطةِ ما تطيبُ به المجالسةُ، ولكنْ لا سبيلَ إلى الوِصَالِ»[١].

وقال جعفرُ بنُ محمد: «إيَّاكَ وسَقْطَةَ[٢] الاسترسالِ؛ فإنَّها لا تُسْتَقَالُ»[٣].

وقيلَ: «صُنِ الاسترسالَ منْكَ، حتَّى تجدَ لَهُ مُسْتحقًّا»[٤].

وقيلَ: «الإفراطُ في التَّواضُعِ يُوجبُ المَذَلَّةَ، والإفراطُ في المُؤانسةِ يُوجبُ المَهانةَ»[٥].

فتِلْكَ إشاراتٌ على الطَّريقِ، وما منَّا مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَقَدْ جَرَتْ لَهُ مِحْنَةٌ مِنْ صَديقٍ مُماثِلٍ، أَوْ قَريبٍ مُشاكِلٍ.

ويُعْجِبُني ما ذكرهُ الأَخُ وليدُ الرَّيْميُّ ـ حفظه الله ـ في هذا المَعْنَى مِنْ شِعْرٍ لَهُ:

وكُلُّ الَّذي أَدْريهِ أَنَّ تَجرُّعي ... كُئوسَ المَرارةِ كانَ مِنْ أَحْبابي

فَكَمْ قَدْ ظُلِمْتُ مِنَ الأَحِبَّةِ دُونَما ... ذُنُوبٍ أُقارِفُها وجاءَ مَتابي

وَقَدْ قِيلَ عَنِّي كُلُّ شَرٍّ وَتُهمَةٍ ... فَكَيْفَ بِمِثْلي لا يُحاطُ بما بي؟!

سَأَكْتُمُ ما أَلْقاهُ مِمَّنْ يُسيءُ لي ... إلى أَنْ يَصيرَ السوءُ بَعْضَ سَرابِ

ويا ربِّ، عِلْمُكَ بالقُلُوبِ وأَهْلِها ... يُريكَ مَدَى حُبِّي، وبُغْضِ صِحَابي

على كُلِّ حالٍ لَيْسَ شَيْءٌ يُهِمُّني ... إذا سِرْتُ دَرْبَ الواحِدِ الوَهَّابِ[٥]

---

(١) «صَيْدُ الخاطر» (ص ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) السَّقْطة ـ بالفتح ـ: العَثْرةُ والزَّلَّةُ.

(٣) «محاضرات الأدباء» (٣/ ٣١).

(٤) المرجع السابق (٣/ ٣١).

(٥) المرجع السابق (١/ ٥٤٥).

ومن روائع الببغاء البغدادي:

وأَكْـثَـرُ مَــنْ تَلْقَى يَـسُرُّكَ قَـوْلُـهُ ... ولَـكِـنْ قَلِيلٌ مَـنْ يَـسُرُّكَ فِعْلُهُ

وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بعض مَذَاهِبِيْ ... فَـأَدبـنـي هــذا الــزَّمَــانُ وأَهْـلُـهُ

عَسْجَدٌ:

قال أَكْثَمُ بْنُ صَيفِيّ:

«الانقباضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ للعَداوةِ، والانْبِسَاطُ إِلَيْهِمْ مَجْلَبَةٌ لقُرنَاءِ السُّوْءِ». «محاضرات الأدباء» (٣/ ٣١).



(١) مِنْ قصيدةٍ لأخينا وليدٍ في مَدْحِ شَيْخنا ووالدنا مُقْبِل الوادعيِّ -رحمه الله-، انظرها في ترجمته (ص٧٣١)، وَمَطْلَعُها:

بَـــدَأْتُ بِـبِـسْـمِ اللهِ خَـطَّ كِتَابي ... وأَحْمَـــدُ ربِّي عِـنْـدَ كُـلِّ جَـوَابِ

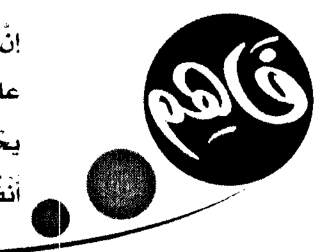
إلى مُقْبِلٍ مَلِكِ الحَدِيثِ وشَيْخِه ... سـلامٌ عَـلَـيْـكَ، ثُـمَّ هَـاكَ خِطَابي

أَيَـا شَـيْـخَ حِـمْـيَرٍ والجَـزِيـرةِ كُلِّها ... لأَجْـلِـكَ أُخْـرِجُ مُنْتَهى آدابي

لِمِثْلِكَ أَطْـرَبُ بالنَّشِيدِ تَـرَنُّـمـا ... وَأَنْـسِـجُ بـالإِبْـدَاعِ أَحْـلَى ثِيَابِ

فَعِلْمُكَ في الوِدْيَانِ والبَحْرِ وَاصِلٌ ... كذاك وفي الصَّحْراءِ وَفَوْقَ هِضَابِ

كلنا ذوو خطإ



إنّ التّعامُل مع النّاس على أنّهم بشرٌ جُبِلُوا على الخطإ، وقدّرت عليهم الذّنوب ـ مسلك عزيز، يحسُن بكلّ أحد سلوكه؛ ليعذر النّاس من أنفسهم، ويلتمس لهم المعاذير، وإن لم يعتذروا.

ولْنَنْظُرْ إلى الأنبياءِ والصَّالحين كَيْفَ يَعْتَرِيهِمْ ما يَعْتَرِي غَيْرَهُمْ، فتَجْري مِنْهُمُ الهفواتُ الّتي لا تُنْزِلُ مِنْ أَقْدارِهِمْ؛ لأنّ مُسْتَقَرَّها في بَحْرِ حَسَناتِهِمْ: فهذا آدَمُ أَبُو البَشَرِ -عليه السلام- ظَلَّ إبليسُ يُغْرِيهِ ويُمَنِّيهِ، حتَّى أَخْرَجَهُ وزَوْجَهُ مِنَ الجنَّةِ ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ (الأعراف: ٢٢).

ومُوسَى الكليمُ يُلْقي الأَلْوَاحَ وفيها هُدىً ورحمةٌ، ويَأْخُذُ برأْسِ أَخيهِ يَجُرُّهُ إليه ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ (الأعراف: ١٥٠).

ويُصَاحِبُ الخَضِرَ على عَدَمِ المُخالفةِ، ثُمَّ يُخالِفُهُ مِرارًا، حتَّى قال لَهُ:

﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (الكهف: ٧٦).

ثُمَّ يَسْأَلُ بَعْدَ ذلك، ويتعقَّبُ بقَوْلِه:

﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (الكهف: ٧٧).

ونبيُّنا محمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- هُوَ ـ أيضًا ـ بَشَرٌ[١]، يَأْتِيه ذُو جاهٍ وأَعْمَى لا جاهَ لَهُ، فيُقْبِلُ على الأوَّلِ، ويُعْرِضُ عَنِ الثَّاني، فيُعَاتِبُهُ رَبُّهُ عِتابًا لَطِيفًا بقَوْلِه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ (عبس: ١).

---

(١) ذلك حَقٌّ لا رَيْبَ فيه، يقولُ اللهُ ـ سُبْحانَهُ ـ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف: ١١٠).

وروى مسلمٌ (٢٦٠٣) مِنْ حديث أنس -رضي الله عنه- قال: قال رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إنَّما أنا بَشَرٌ، أرْضَى كما يَرْضَى البَشَرُ، وأَغْضَبُ كما يَغْضَبُ البَشَرُ**».

وأمَّا الصَّالِحُونَ فَلْنَنْظُرْ إلى جِيلِ الصَّحابةِ خَيْرِ القُرُونِ:

ـ فَمِنْهُمْ مَنْ كان يُحِبُّ المالَ:

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢)[١].

ـ وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ مِنَ القِتَالِ، لكنَّ اللهَ عَفَا عَنْهُمْ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

وَوَقَعَ بَعْضُهُمْ في يَمِينٍ كَذِبٍ مِنْ أَجْلِ عَرَضٍ مِنَ الدُّنيا[٢].

حتَّى أَفْضَلُهُمْ على الإطْلاقِ يَعْتَرِيهِ ما يَعْتَرِي البَشَرَ، فها هُوَ يُغَاضِبُ الأَضْيَافَ، ويَسُبُّ وَلَدَهُ؛ ويَنَالُ مِنْهُ غايةَ النَّيْلِ لتقصيرِهِ في حَقِّ الأَضْيافِ[٣].

---

(١) ممَّا يَدُلُّ على أنَّ مِنَ الصَّحابةِ مَنْ كان يُحِبُّ المالَ ما جاء في البُخاريِّ (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١) مِنْ حديثِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ -رضي الله عنه-: أنَّ رَسُولَ الله -ﷺ- بَعَثَ أبا عُبَيْدَةَ بْنَ الجرَّاحِ إلى البَحْرَيْنِ، يَأْتي بجزْيَتِها، وكان رَسُولُ اللهِ -ﷺ- هُوَ صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ، وأَمَّرَ عليهم العَلاءَ بْنَ الحَضْرَميِّ، فَقَدِمَ أبو عُبَيْدَةَ بمالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصارُ بقُدُومِ أبي عُبَيْدَةَ، فَوَافَوْا صلاةَ الفَجْرِ مَعَ رَسُولِ الله -ﷺ- فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله -ﷺ- حِينَ رَآهُمْ، ثُمَّ قال: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أبا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بشَيْءٍ؟**». قالوا: أَجَلْ يا رَسُولَ الله. قال: «**فَأَبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فوالله، ما الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، ولكنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا، كما بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فتنافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ**».

(٢) رَوَى البخاريُّ (٢٧٨٠) مِنْ حَديثِ ابْنِ عبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قال: خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَني سَهْمٍ مَعَ تَميمٍ الدَّارِيِّ وعَدِيِّ ابْنِ بَدَّاءٍ، فمات السَّهْميُّ بأَرْضٍ لَيْسَ بها مُسْلِمٌ، فلمَّا قَدِما بتَرِكَتِه، فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا مِنْ ذَهَبٍ، فَأَحْلَفَهُما رَسُولُ الله -ﷺ-، ثُمَّ وُجِدَ الجَامُ بمكَّةَ، فقالُوا: ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَميمٍ وعَدِيٍّ، فقام رَجُلانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْميِّ، فَحَلَفا: لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا. وإنَّ الجامَ لصاحِبِهِمْ. قال: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ (المائدة: ١٠٦).

(٣) رَوَى البخاريُّ (٦١٤٠، ٦١٤١) ومسلم (٢٠٥٧) مِنْ حديثِ عَبْدِ الرَّحمنِ بْنِ أبي بَكْرٍ -رضي الله عنهما-: أَنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ كانوا ناسًا فُقَراءَ وإنَّ رَسُولَ الله -ﷺ- قال مَرَّةً: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعامُ اثْنَيْنِ،

وَمَنْ قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ - في حَقِّهِ: «ما أَظَلَّتِ الخضْراءُ[١]، ولا أَقَلَّتِ[٢] الغَبْراءُ[٣] مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ مِنْ أبي ذَرٍّ» [٤].

- يَسُبُّ رَجُلًا، فَيُعَيِّرُهُ بأُمِّهِ[٥].[٦]

فَلْيَذْهَبْ بثلاثة، ومَنْ كان عِنْدَهُ طعامُ أَرْبعة، فَلْيَذْهَبْ بخامس بسادس». أَوْ كما قال، وإنَّ أبا بَكْرٍ جاء بثلاثة، وانْطَلَقَ نبيُّ الله - ﷺ - بعَشَرة، وأَبو بَكْرٍ بثلاثة، قال: فَهُوَ وأنا وأبي وأُمِّي - ولا أَدْري هَلْ قال: وامْرَأَتي وخادمٌ بَيْنَ بَيْتِنا وبَيْتِ أبي بَكْرٍ - قال: وإنَّ أبا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبيِّ - ﷺ -، ثُمَّ لَبِثَ حتَّى صُلِّيَت العشاءُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَلَبِثَ حتَّى نَعَسَ رَسُولُ الله - ﷺ -، فجاء بَعْدَ ما مَضَى مِنَ اللَّيْلِ ما شاءَ اللهُ، قالتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: ما حَبَسَكَ عَنْ أَضْيافِكَ - أَوْ قالتْ: ضَيْفِكَ - ؟. قال: أَوَ مَا عَشَّيْتِهِمْ؟. قالتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجيءَ، قَدعَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ. قال: فَذَهَبْتُ أنا فاخْتَبأْتُ، وقال: يا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وسَبَّ، وقال: كُلُوا، لا هَنيئًا. وقال: واللهِ، لا أَطْعَمُهُ أَبَدًا. قال: فايْمُ اللهِ، ما كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِها أكثرَ مِنْها. قال: حتَّى شَبِعْنا، وصارَتْ أَكْثَرَ ممَّا كانتْ قَبْلَ ذلك، فَنَظَرَ إليها أَبو بَكْرٍ، فإذا هي كما هي أَوْ أَكْثَرُ، قال لامْرَأَته: يا أُخْتَ بني فِراس، ما هذا؟. قالتْ: لا، وَقُرَّةِ عَيْني، لَهِيَ الآنَ أكثرُ مِنْها قَبْلَ ذلك بثَلاثِ مِرارٍ، قال: فَأَكَلَ منها أَبو بَكْرٍ، وقال: إنَّما كان ذلك مِنَ الشَّيْطانِ - يَعْني يَمينَهُ -، ثُمَّ أَكَلَ مِنها لُقْمةً، ثُمَّ حَمَلَها إلى رَسُولِ الله - ﷺ -، فأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، قال: وكان بَيْنَنا وبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ، فَمَضَى الأَجَلُ، فعَرَّفْنا اثْنا عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُناسٌ، اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، إلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنْها أَجْمَعُونَ، أَوْ كما قال.

(١) **الخَضْراء**: السَّماء.

(٢) **أَقَلَّتْ**: رَفَعَتْ وحَمَلَتْ.

(٣) **الغَبْراء**: الأرض.

(٤) (صحيح) أخرجه أحمدُ في «المُسند» (٢/ ١٦٣)، والتِّرْمذيُّ (٣٨٠١) عَن ابْنِ عَمْرو - رضي الله عنهما -، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٥٣٧).

(٥) رَوَى البخاريُّ (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١) مِنْ حَديثِ أبي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قال: كان بَيْني وبَيْنَ رَجُلٍ كلامٌ، وكانَتْ أُمُّهُ أَعْجَميَّةً، فَنِلْتُ مِنها، فَذَكَرَني إلى النَّبيِّ - ﷺ -، فقال لي: «أَسَابَبْتَ فُلانًا؟». قُلْتُ: نَعَمْ. قال: «أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ؟». قُلْتُ: نَعَمْ. قال: «إنَّكَ امْرُؤٌ فيكَ جاهِليَّةٌ». قُلْتُ: على حِينِ ساعَتي: هذه مِنْ كِبَرِ السِّنِّ؟. قال: «نَعَمْ».

(٦) انظر «فقه الأخلاق» للعَدَويِّ (ص١١٢) وما بَعْدَها.

والمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو يَأتِيهِ الشَّيْطَانُ، فَيُغرِيهِ بشُرْبِ نَصيبِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - مِنَ اللَّبَنِ(١).

فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ هؤلاءِ؟!.

قَوْمٌ هُمُ الآنُفُ، والأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ ... وَمَنْ يُساوي بأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبا؟

(١) رَوَى مسلمٌ (٢٠٥٥) عَنِ المقْدَاد قال: أَقْبَلْتُ أَنَا وصاحِبَانِ لي، وقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنا وأَبْصَارُنا مِنَ الجَهْد (أي: الجُوعِ والمشَقَّة)، فَجَعَلْنا نَعْرِضُ أَنْفُسَنا على أَصْحابِ رَسُولِ الله - ﷺ -، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنا، فَأَتَيْنا النَّبيَّ - ﷺ -، فانْطَلَقَ بنا إلى أَهْله، فإذا ثلاثةُ أَعْنُزٍ، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «احْتَلِبُوا هذا اللَّبَنَ بَيْنَنا». قال: فكُنَّا نَحْتَلِبُ، فَيَشْرَبُ كُلُّ إنسانٍ مِنَّا نَصيبَهُ، ونَرْفَعُ للنَّبيِّ - ﷺ - نَصيبَهُ. قال: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيل، فَيُسَلِّمُ تسليمًا لا يُوقِظُ نائمًا، ويُسْمِعُ اليَقْظانَ. قال: ثُمَّ يَأْتي المَسْجِدَ فَيُصلِّي، ثمَّ يأتي شرابَهُ فيشربُ، فأتاني الشَّيْطانُ ذاتَ لَيْلَة، وقَدْ شَرِبْتُ نَصيبي، فقال: محمَّد يَأْتي الأَنْصَارَ، فَيُتْحِفُونَهُ، ويُصيبُ عِنْدَهُمْ، ما بِهِ حاجةٌ إلى هذه الجُرْعة؛ فَأَتَيْتُها فَشَرِبْتُها، فلمَّا أَنْ وَغَلَتْ في بَطْني، وَعلِمْتُ أنَّه لَيْسَ إليها سبيلٌ، قال: نَدَّمني الشَّيطانُ، فقال: وَيْحَكَ، ما صَنَعْتَ؟، أَشَرِبْتَ شَرابَ مُحمَّد؟!، فيجيءُ فلا يَجدُهُ، فيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ، فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وآخِرَتُكَ، وعليَّ شَمْلَةٌ إذا وَضَعْتُها على قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسي، وإذا وَضَعْتُها على رَأْسي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لا يَجيئُني النَّوْمُ، وأَمَّا صاحِبَايَ فناما، ولَمْ يَصْنَعا ما صَنَعْتُ. قال: فجاء النَّبيُّ - ﷺ -، فسلَّم كما كان يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ فَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى شَرابَهُ، فَكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فيه شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّماء، فَقُلْتُ: الآنَ يَدْعُو عليَّ فَأَهْلِكُ. فقال: «اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَني، وأَسْقِ مَنْ أَسْقَاني». قال: فَعَمَدْتُ إلى الشَّمْلَة، فَشَدَدْتُها عليَّ، وأَخَذْتُ الشَّفرَةَ، فانْطَلَقْتُ إلى الأَعْنُزِ أَيُّها أَسْمَنُ، فَأَذْبَحُها لرسُول الله - ﷺ -، فإذا هي حافلةٌ، وإذا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إلى إناءٍ لآلِ محمَّد - ﷺ - ما كانوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فيه. قال: فَحَلَبْتُ فيه، حتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إلى رَسُولِ الله - ﷺ -، فقال: «أَشَرِبْتُمْ شَرابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟». قُلْتُ: يا رَسُولَ الله، اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ ناوَلَني، فَقُلْتُ: يا رَسُول الله، اشْرَبْ، فَشَرِبَ ثُمَّ ناولني، فلمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قَدْ رَوِيَ، وأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حتَّى أُلْقِيتُ إلى الأَرْض. قال: فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «**إحْدَى سَوْآتِكَ يا مِقْدادُ**». فَقُلْتُ: يا رسولَ الله، كان مِنْ أَمْري كَذَا وكَذَا، وفَعَلْتُ كَذَا. فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «**ما هذه إلَّا رَحْمةٌ مِنَ الله، أَفَلا كُنْتَ آذَنْتَني، فَنُوقِظَ صاحِبَيْنا، فَيُصيبانِ منها**». قال: فَقُلْتُ: والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أُبالي إذا أَصَبْتَها، وأَصَبْتُها مَعَكَ مَنْ أَصَابَها مِنَ النَّاس.

يا قوم: «ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ[1]»، فالمُهَذَّبُ السالمُ مِنَ الخطإ عَزيزٌ مَعَ إدبارِ الدُّنيا، ومَعَ إقبالها، أَنْدَرُ مِنَ الكبْريت الأَحْمَر[2]، وها هُمُ الأَنْبياءُ والصَّالحونَ ما سَلِمُوا مِنَ الخطَإِ، فَغَيْرُهُمْ مِنْ بابِ أَوْلَى.

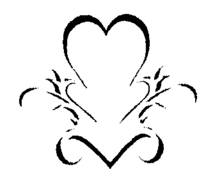
هُمُ النَّاسُ والدُّنْيا ولا بُدَّ مِنْ قَذًى[3] يُلِمُّ[4] بِعَيْنٍ، أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبا
وَمِنْ قِلَّةِ الإِنْصافِ أَنَّكَ تبتغي الْـ مُهَذَّبَ في الدُّنْيا، ولَسْتَ المُهَذَّبا

جواهر:

قال ابن حزم - رحمه الله -:

«لا يَخْلُو مَخْلُوقٌ مِنْ عَيْبٍ، فالسَّعيدُ مَنْ قَلَّتْ عُيُوبُهُ وَدَقَّتْ».

«الأخلاق والسِّير» (ص١١٤).



(١) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ (٤٩٤١)، والتِّرْمذيُّ (١٩٢٤) مِنْ حَديثِ عَبْدِ الله بن عَمْرو - رضي الله عنهما - عن النَّبي - صلى الله عليه وسلم -، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

(٢) سار الكيمائيُّون العَرَبُ في العَصْرِ الوسيط على خُطَا أرسطو، فَهُمْ يُقسِّمونَ الكِبْريتَ إلى أنواعٍ ثلاثة: أَحْمَرَ، وأَبْيَضَ، وأَصْفَرَ.

والأَوَّلُ أَنْدَرُها؛ لأَنَّهُ - فيما يَزْعُمونَ - يُوجَدُ في مَناجِمَ مِنْ أَرْضٍ بَعيدةٍ، تقعُ عِنْدَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، قريبًا مِنَ المُحيط، أو خَلْفَ التُّبَّتِ بوادي النَّمْلِ، ومِنْ هُنا كانتْ نُدْرَتُهُ، ومَضْرَبُ المَثَلِ به (د. مكي).

(٣) **القَذَى - بزِنَةِ الفَتَى -**: ما يَقَعُ في العَيْنِ وفي الشرابِ مِنْ عُودٍ، وترابٍ، ووَسَخٍ، ونَحْوِ ذلك، الواحدة قَذَاةٌ.

(٤) **يُلِمُّ**: يَنْزِلُ.

الفَهرس

